

ولدت بمصر

قصة
١٠٠ عام

1084

تأليف:

جون فيليب لویر
کلودین لوتورنور دیسون

ترجمة وتقديم: حسن نصر الدين



المشروع القومي للترجمة

ولد جون فيليب لويس في باريس وارتحل لمصر عام ١٩٢٦
ليعمل لدى مصلحة الآثار لمدة ستة أشهر، فإذا به يبقى بها
ثلاثة أرباع القرن.

أعاد مجموعة زوسر الجنائزية بسقارة للوجود من جديد
عبر إعادة عشرات الآلاف من الكتل الحجرية إلى أماكنها
الأصلية، وقام بدراسة الأهرام عمومًا، وأصبح علمًا على سقارة
ومجموعة زوسر خصوصًا، وكان غرامه بالمهندس القديم
أمنحوتب لا حدود له وتمنى أن يعثر على قبره، ثم تمنى أن
يرى متحفًا اسماء متحف أمنحوتب ليضع فيه ما كسب للمجموعة
كلها والآثار التي عثر عليها بسقارة، ويحكى لنا قصة هذا
المتحف وقصة زكريا غنيم. ثم يأخذنا في رحلة ساحرة لعالمه
الخاص ببيته الصغير في سقارة، ويصف لنا التخيّل وغروب
الشمس وشوارع مصر آنذاك في النصف الأول من القرن
العشرين، وجروبي وزواج فاروق الأسطوري، والمعهد الفرنسي
وقصة زواجه من فرنسية على أرض مصر وسوق البدرشين
بالإضافة إلى قصص أخرى كثيرة تجعله بحق شاهدًا على
عصره على مدار القرن العشرين.

ولدت بمصر منذ ٤٧٠٠ عام

المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

– العدد : ٨٤

– ولدت بمصر منذ ٤٧٠٠ عام

– جون فيليب لويز ، وكلودين لوتورنور ديسون

– حسن نصر الدين حسن

– الطبعة الأولى : ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

Je suis né en Egypte il ya 4700 ans

De : Philippe Lauer

et Claudine le Tourneur d'Ison

© Editions Albin Michel, S.A. - Paris 2000

حقوق الترجمة والنشر محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

Tel. : 7352396 Fax : 7358084.

ولدت بمصر منذ ٤٧٠٠ عام

تأليف : جون فيليب لوير

كلودين لوتورنور ديسون

ترجمة وتقديم : حسن نصر الدين حسن



بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

لوير ، جون فيليب

ولدت بمصر منذ ٤٧٠٠ عام تأليف: جون فيليب لوير؛

ترجمة: حسن نصر الدين حسن - ط ١ - القاهرة : المجلس

الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧

٣٢٤ ص : ٢٠ سم (المشروع القومي للترجمة ، العدد ١٠٨٤)

١ - الأدباء الفرنسيين

(أ) حسن ، حسن نصر الدين (مترجم)

٩٢٨ ، ٤

(ب) العنوان

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٢٣٤٩

الترقيم الدولي 4 - 153 - 437 - 977 I.S.BN.

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

9	تقديم المترجم
19	لويز وعمرٌ مديد
24	الخطاب
28	الانتظار
35	جروبي
40	في اتجاه الشرق
47	زوسر
56	القاهرة ، الانتباعات الأولى
63	ألف ليلة وليلة
68	الأهرام
75	الخطوات الأولى في الأبدية
80	زوجة الملك ببي
89	عند جوستاف جيكييه
95	ميمي

104 سيسيل فيرث
109 منزل السعادة
118 الحيرة العظيمة
123 هرم إيمحوتب
132 عمل جبار
138 رابطة فى الصحراء
146 لدى صديقتى حتشبسوت
151 السرابيوم
157 المقبرة الجنوبية
167 الفيانس الأزرق
172 أبو الهول
177 الأربعون ألف أنية
184 الزيارات
191 أسلوب إعادة البناء Anostylose
198 عام ١٩٣٦ عام درامى
204 بورخاردت ونفرتيتى
210 ١٩٤٥ و ١٩٥٩ والعودة
219 إمري

225	سقوط الملكية
231	حول البحر المتوسط
440	متحف إيمحوتب
245	كاهن في مصر
250	هوليود في وادي النيل
256	سقارة ومجرد خدش
263	مصير زكريا الباش
270	رحلة في النوبة
276	نظرة على القرن

تقديم المترجم

تنشر صحيفة "لوفيجارو" ذات صباح أن أكثر من عشرة ملايين من أبناء الشعب الفرنسي يقرأون مؤلفات الكاتب الفرنسي الشهير "كريستيان جاك" المستوحاة من التاريخ المصرى القديم، وعرفت فرنسا ما يسمى بـ "إيجيبتومانيا" أو "الهوس بمصر" ولم يكن هذا الولع والافتتان وليد اليوم ولكن له جذوراً ممتدة عبر عدة قرون من الزمان.

لقد كان الإمبراطور فرانسوا الأول لا يذهب فى أى من رحلاته إلا ومعه حقيبة جلدية صغيرة مملوءة بمسحوق اسمه "مومياء"، يفترض أنه مستخرج من المومياوات المصرية، وقالوا إنه يعالج من أمراض لا حصر لها. وكان دوبيرسيك (١٥٨٠ - ١٦٢٧) وهو قاض من إقليم بروفانس من أكثر من جمع أشياء وتحفاً مصرية نادرة.

وكانت مصر فى القرنين السادس عشر والسابع عشر "بلاد العجائب" ولا ريب، فقد كانت بآثارها عصية على الفهم، فلم تكن المصرية القديمة قد تم فك رموزها وحل طلاسمها، ومن ثم كانت تغذى الأساطير بصمتها الغامض هذا. وازداد اهتمام فرنسا بالشرق فى عهد لويس الرابع عشر، وفى عام ١٦٩٦ كانت هناك مسرحية باسم "مومياوات مصر" كانت حديث المجتمع الباريسى.

وفى عام ١٧٢١ - ١٧٢٢ كانت رحلات الأب بول سيكار التى وصل فيها حتى فيلة، وفى عام ١٧٢٥ يصدر قنصل فرنسا فى مصر بينواووه ماييه كتاباً أسماه "وصف مصر" بخلاف الكتاب الشهير اللاحق له الذى يحمل العنوان نفسه، وهو مؤلف شامل عن بلاد وادى النيل لدرجة أن الناس مع منتصف القرن الثامن عشر كانوا يعرفون عن مصر تقريباً كل شىء.

وكانت مارى أنطوانيت (ملكة فرنسا ١٧٥٥ - ١٧٩٢) مولعة بمصر، وملاّت غرف نومها بتماثيل أبو الهول وذلك فى قصر فرساي أو فرسان - كلو، وفى العصر نفسه ازدهرت نماذج الأهرام ومسلات تقوم بها مصانع أشهرها مصنع حديقة "إيتوب" الذى بناه مهندس معمارى هو "جان - باتيست - كليبر" وهو الذى أصبح جنراً فيما بعد وجاء إلى مصر، وفى ١٤ يوليو ١٧٩٢ أقيم بساحة شان دى مارس بباريس هرم من القماش ديكوراً للاحتفال بهرم رموز الإقطاع، وفى أغسطس ١٧٩٢ بمناسبة ذكرى الشهداء أقاموا هرمًا فى حدائق التويلرى ومسلّة بميدان الفيكتوار (النصر)، وميدان الباستى، وفى ١٠ أغسطس ١٧٩٢ تقام نافورة بميدان الباستيل على هيئة الإلهة إيزيس.

وبعد غزو بوناپرت لمصر عام ١٧٩٨ كتب فيفان دينون كتابه "رحلة فى مصر العليا والسفلى خلال حملات الجنرال بوناپرت" وحقق رواجاً كبيراً. ثم كان كتاب "وصف مصر" الشهير الذى كتبه العلماء الفرنسيون المصاحبون لبوناپرت أثناء حملته على مصر، والذى بدأ فى

الظهور عام ١٨٠٩، واشتملت طبعته الأولى على تسعة أجزاء من النصوص وأربعة عشر جزءاً من اللوحات، وأصدر الناشر بانكون طبعة ثانية من الموسوعة فى ستة وعشرين جزءاً آخرها عام ١٩٢٨ .

وكانت الخطوة الكبرى التى أذنت بميلاد "علم المصريات" تلك التى توصل إليها جان فرانسوا شامبليون عندما أخبر أخاه جاك جوزيف صباح ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ بأنه قد تمكن على التو من حل رموز اللغة المصرية القديمة. وقد توصل شامبليون لهذه النتيجة بعد عقدين من الأبحاث وكان فى سن الحادية والثلاثين من عمره. وقد أفاد من أبحاث سابقة قام بها سيلفستر دو ساسى الفرنسى ويوهان ديفيد إكربلاد السويدى وتوماس يونج الإنجليزى. وفى صباح ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢ يقرأ شامبليون أمام الأكاديمية رسالته الشهيرة إلى السيد داسييه، ويكافئه الملك لويس الثامن عشر ويستقبله بابا الفاتيكان ليون الثانى، ويصبح شامبليون أمين المتحف المصرى الذى افتتح فى الوفر ١٨٢٧، وكان اسمه آنذاك متحف شارل العاشر.

كان أوجست مارييت فى التاسعة عشرة من عمره فى عام ١٨٥٠ عندما ابتعته متحف الوفر لشراء بعض المخطوطات القبطية، وكان بقرابة بنستور لوت مرافق شامبليون، واطلع على أوراقه الخاصة بمصر وازداد شغفه بهذا البلد. وغير برنامج بعثته ليكتشف معبد السيرايوم فى سقارة، وهو عبارة عن مدافن العجل أبيس المقدس وغيرها من المكتشفات، ويبحث إلى باريس بمئات الصناديق المليئة بالآثار التى

لا تقدر بثمن؛ لتتري متحف اللوفر الذى أصبح مارييت فى عام ١٨٥٢
أميناً على الآثار المصرية به. وكان لمارييت منزل بسقارة.

وجعله سعيد باشا مأمور الآثار المصرية، وهى وظيفة جديدة. ومنذ
تلك اللحظة أصبح مدافعاً عن التراث المصرى، وعمل على إنشاء العشرات
من مواقع الحفائر، ومن ثم تمكن فى عام ١٨٦٢ من إنشاء المتحف المصرى
فى حي بولاق القديم.

ومن أشهر عشاق مصر كذلك جورج لوجران الذى ولد فى باريس
فى الرابع عشر من أكتوبر عام ١٨٦٥ لأب يعمل بالطباعة، وقام بدراسة
اللغة المصرية القديمة بمدرسة اللوفر، وكان من المغرمين باللغة المصرية
وخاصة فى خطها الديموطيقى، وقام باكتشاف خبيثة الكرنك.
كما اشترك لوجران فى كل مواقع العمل بمصر، فبعد انتهاء أعمال
البعثة عند الأهرام فى دهشور والجيزة والإسكندرية وواحة الخارجة،
صعد لوجران إلى منابع النهر وعاد بحقائب مليئة بالنصوص والرسومات.
وكان يصور الآثار التى أحس بأهميتها مبكراً خاصة بالنسبة للنقوش،
وعمل على حماية أبنية الأقصر الأثرية وبيّن أعمدتها، ومن شدة الإعياء
الناتج عن العمل وافته منيته فى أغسطس ١٩١٧ وكان قد نال وسام
الشرف عام ١٩٠٨ وكان يعتز به كثيراً.

ومن العلماء الفرنسيين الذين تحتفظ بهم الذاكرة جاستون
ماسبيرو الذى يعد من ألمع رؤساء هيئة الآثار المصرية ومن أشهر علماء
المصريات العالميين، وعاصر لوجران وكذلك فيكتور لوريه وبيير لافو ...

وتستمر مصر تجتذب علماء الآثار الكبار، كما تستهوى الباب
المفرمين بها من كل أنحاء العالم.



ولد جون فيليب لوير فى ٧ مايو ١٩٠٢ فى باريس، وحصل على
شهادته مهندساً معمارياً، وحتى عام ١٩٢٦ لم يكن قد زار مصر.
وذات صباح يصله خطاب من مصر من ابن عمه جاك هاردى يخبره أن
بيير لافكو مدير مصلحة الآثار فى حاجة إلى مهندس معمارى يعمل لعدة
أشهر لدى المصلحة، وكان هذا الخطاب نقطة تحول فى حياة لوير ...

ويأتى إلى مصر بصحبة خيال كبير مما قرأه عنها بمكتبة والده
وما معه من كتب، خاصة كتاب ماسبيرو "تاريخ مصر".

وجاء لوير إلى مصر فتى شاباً مع بدايات القرن العشرين ليعيش
بها طيلة سنى هذا القرن مشاركاً فى أفراحها وأتراحها، مشاهداً لعهود
الملكية والجمهورية، فهو بحق شاهد على مصر فى القرن العشرين.

يحكى لنا لوير عن مصر فيقول عن جروبى إنه شكل جزءاً مهماً من
ذكرياته، فهناك كان يلتقى شابة تدعى مارجرى جوجى والتي سوف
تشاركه حياته لأنه أتى مصر عزباً ليتزوج على أرضها - فكان جروبى :
"مكان التقاء الطبقة البرجوازية بالقاهرة، وكان يقع عند ملتقى شارعين
بميدان طلعت حرب، ويتميز بنوافذه الزجاجية الضخمة وزخارفه

الداخلية النادرة وأنواع الحلوى التي لا حصر لها ...، كما يحدثنا عن قهوة الفيشاوى فى الثلاثينيات بزبائننا التي كان فى مقدمتها شاب صغير اسمه نجيب محفوظ، كاتب شاب، اعتاد المجيء إلى المقهى ليكتب رواياته فى هذا الجو الحالم، لكنه ومنذ حصوله على جائزة نوبل لم يعد يأتى للفيشاوى لكن المقهى وبفضله أصبح مكاناً تاريخياً^١

عمل جون فيليب لوير مع معظم علماء المصريات الكبار منذ قدومه إلى مصر ومنهم جوستاف جيكييه الذى اصطحبه معه ليعطيه فكرة عن سقارة، وهى المنطقة التى سوف يعيش فيها طيلة عمره وسوف تشكل تصوره وسوف يمنح أثرها الشهير وهو مجموعة زوسر ملامحه الأصلية بعد أن تهدمت بشكل كبير.

وسقارة هذه اشتق اسمها من إله الجبانة سوكر بمنف، وهى جزء من جبانة منف الكبيرة التى تمتد على مسافة خمسين كيلومترا على حدود وادى النيل من "أبو رواش" شمال أهرام الجيزة وحتى "الشت" جنوباً. وأهم آثار سقارة مجموعة زوسر الجنائزية بعناصرها المعمارية الفريدة.

يعيش بمنزل صغير بسقارة مع زوجته لبدأ عمله فى الثانى من يناير ١٩٢٧ فى مجموعة زوسر الجنائزية، ويلتقى العالم الانجليزى فيرث ويحكى لنا عن طرافته وعمله واكتشافاتها معا بسقارة.

"ابتداء ... لم تكن لدى الرغبة فى العودة حيا إلى فرنسا!" هكذا كتب لوير عن نفسه بعد بداية عمله بسقارة، ويضيف: "عندما كنت أسافر

إلى باريس لفترة الصيف كنت أعيش حتى الخريف غير واثق من عودتي ثانية، وكان على أن أنتظر موافقة الإدارة المصرية من جديد، ومع ذلك لم تنس هذه الإدارة أبداً، وحتى يومنا هذا مازلت أتقاضى معاشاً من مصلحة الآثار المصرية بوصفى موظفاً بها.

يساهم لوير مع فيرث فى اكتشاف محتويات المقبرة الجنوبية وما كانت تحتويه من فخار و"فيانس" أزرق، وفى هذا يقول: "وهنا على هذا العمق فى هذا المكان الضيق فقدنا ابننا الأول عندما نزلت زوجتى معى لتنظف هذه الآثار!".

ثم يحدثنا لوير عن نشاط زامى حواس واهتمامه بالمنطقة منذ سنين، ولكنه يلمس له العذر فى صعوبة التغلب على المشاكل كلها التى تتهدد آثار الجيزة وخاصة "أبو الهول"، ثم يبرز شهادته على حدث مهم عاصره عام ١٩٨٨ فىقول: "حدثت دراما عام ١٩٨٨ عندما تهدل جزء من الكتف الأيسر لتمثال أبو الهول، وهو كتلة تزن حوالى مائتين من الكيلوجرامات، وكان المصريون قد قرروا منذ عام ١٩٨٢ أن يتولوا هم أعمال الترميم وارتكبوا أخطاء كبيرة على رأسها استخدام أسمنت يفتت الأحجار".

ثم يعود مرة أخرى ليحدثنا عن قصة آخر اكتشاف له مع سيسيل فيرث، وهو رأس جرانيتية ضخمة للملك وسركان، وبعد ذلك توفي فيرث ليتترك لوير فيصبح الأثرى الوحيد فى شمال سقارة وكان عمره آنذاك تسعاً وعشرين عاماً.

ويحدثنا لوير عن العثور على أربعين ألف أنية في الدهاليز أسفل الهرم المدرج وترميمها .

ومن أعماله المهمة إعادة دهليز الأعمدة للوجود من جديد، وقام في دأب وبلا كل بوضع كل عنصر معماري في مكانه الأصلي، وكان شيئاً يدير الرأس ، فكل شيء مختلط بالآلاف الكسر الحجرية، والأعمدة مهشمة تماماً، وجذع العمود يتكون من ثلاث كتل وأحياناً أربع وأحياناً خمس، وكان عليه أن ينسب كل قطعة إلى عمودها، ومجموع ما توصل إليه سبعائة قطعة توصل إلى مكانها الأصلي، وكثيراً ما خاطب إيمحوتب، ولسوء الحظ لم يظهر له أبداً، ولكن عندما يجد مكان قطعة يقول: "هذه هدية من إيمحوتب". واستغرقت هذه العملية من لوير سنوات وسنوات فكان يعد رسماً لكل قطعة من قطع الأعمدة، ومجموع القطع بلغ حوالي ألفين من القطع والعناصر المعمارية.

ثم يفرد لوير للراحل زكريا غنيم فصلاً في كتابه معتبراً إياه من أروع من أنجبت مصر من الأثاريين الوطنيين، ويحكي قصة اكتشاف هرم سخم خت، ودراما انتحار زكريا غنيم بعد اتهامه بسرقة أنية فخارية، ثم اجتهاد لوير في البحث عن هذه الأنية ليثبت براءة هذا المصري المتميز، وعثر عليها ولكن بعد فوات الأوان.

ثم يعرض في كتابه لما مرت به مصر من تحولات من الملكية إلى الجمهورية، وزيارات عبد الناصر لسقارة ومبارك كذلك وزيارات الملوك والرؤساء الأجانب بعين مدققة.

ويتوقف عند أمنية حياته في العثور على قبر إيمحوتب، وكيف أنه كان لديه الأمل في العثور على قبر المهندس الذي شاد هذه المجموعة، وكذلك الأمنية الأخرى وهي إنشاء متحف لكي يعرض به نموذجاً مصغراً قام بإعداده يحاكي المجموعة الكبيرة، واختار الموقع وبدأ العمل وتوقف، ويحكي كيف أن شيراك تدخل لكي يستأنف العمل في متحف إيمحوتب من جديد، ثم يقول متعجباً بعد أن توقف العمل ثانية : "على أن أنتظر زيارة أخرى لشيراك لكي يستأنف العمل من جديد".

حسن نصر الدين حسن

لوير وعمر مديد

ينبض قلبي بشدة يوماً كلما عدت لمصر . ومنذ عدة أعوام قلت
لنفسى : هذه ربما تكون آخر مرة . ثم لا ! استمر الإله يمد فى عمرى ،
وعدت لسقارة بسعادة يوماً ، على الرغم من أن مصر منذ عام ١٩٢٦
تغيرت كلية ، ولحسن الحظ أن الهرم كان لا يزال هنا ، ولكن بالنسبة لى ،
فإن التغيرات كانت متسارعة ، ومن ثم اعتدت على ذلك لو جاز لنا القول .
حقاً لقد فقد هذا البلد الكثير من بهائه والقاهرة بخاصة ، فالمدينة التى
خبرتها لم تكن تأوى سوى مليون نفس ، أما الآن فإنها تضم ١٥ مليون
ساكن . فى كل مرة أعود فيها تأخذنى الدهشة لمروى بأحياء جديدة لم
أكن أعرفها ، ففيما مضى كانت ضفاف النيل خلابة تحف بها منازل
وحدائق غناء ، فى الوقت الحاضر لم يعد موجوداً إلا مباني خرسانية
ولكن بالنسبة لى كان الشيء الأكثر إثارة للغضب هو أن يترك الأمر ل يتم
بناء مدينة حول أهرام الجيزة ، فلا يوجد مكان واحد نتمكن من خلاله
من رؤيتها معزولة فى الصحراء ، إذا ما أحطنا المباني بخطوط الضغط
العالى التى تخيم على المنظر فى مشهد حزين حقاً . الطريق الصغير
الذى يؤدى من الجيزة لسقارة أصبح طريقاً سريعاً يعج بالشاحنات .

من خلال شرفة منزلى أتحقق فى كل مرة أعود فيها أن المدينة تزداد اتساعاً ، والخرسانة تقف وسط شجيرات النخيل ، ولا أشك فى أنه سيصل يوماً ما إلى المنحدر الصخرى فى سقارة . عندما أنظر إلى أسفل إلى الوادى حيث أشجار النخيل أكتشف المزيد من التدمير ، أكداس من أكياس البلاستيك وسط باقات من الأعشاب الخضراء ، تعلقت بفروع الشجر وكأنها أكاليل غير مرغوب فيها أو قلاند من النفايات لبشر فقدوا القدرة على تذوق الجمال . فى هذا الموقع العتيق ما يعكسه القرن العشرون هو مدى تخلفنا .

كانت سعادتى منذ عشرين عاماً ولا تزال هى زيارة مصر عبر الطريق البرى ، تلك الرحلة التى أصبحت مع مرور الوقت طقساً يمنحنى الفرصة لأن أحمل عالمى معى. ولقد شحنت سيارتى الرينو القديمة بالكتب وحقائب السفر المواد المفيدة كلها للعمل فى الموقع ، ولقد انتشيت منذ البداية للمناظر الطبيعية التى كانت فى انتظارى، والتى سوف أكتشفها والمدن التى سوف أعبرها وخاصة التى بها شعور خاص بالحرية التى تمنحها لك السيارة . فالسفر بالطائرة يوماً معقد جداً، حيث يجب عليك الوصول قبل الموعد بعدة ساعات لتجد نفسك محشوراً فى صالات مكتظة، وتنتظر بالتالى على مقاعد غير مريحة بدون عمل شىء، ثم المرور بتفتيش متعدد وممل . أما فى السيارة أعبر فرنسا وإيطاليا ويوغوسلافيا ثم اليونان ثم أخذ المركب إلى بيريه لكى أصل للإسكندرية، ولطالما تمتعت بهذه الرحلة السياحية، وكان صعباً على نفسى أن أواجه اليوم

الذى أخبر فيه أننى تخطيت العمر الذى يمكننى فيه التتزه هكذا بمفردى على الطرق .

أودران لابروس ، مدير البعثة الفرنسية للحفائر فى سقارة اصطحبى فى رحلتى الأخيرة ، فى ذاك الزمن كان لا يزال صغيراً ذا شعر طويل ، فعلى الحدود اعتبره رجال الحرس ابنتى .

وعندما وصلت فى عام ١٩٢٦ كانت مصر بلداً شاعرياً ، كانت مملكة الرمال والسكون والغموض ، حديقة هائلة حيث كل شىء ينمو بغزارة ، وأن تطأ قدمك أرض هذا البلد المدهش فى وقت الفيضان وتحت هذه الأشعة الجميلة لهو حلم . رحلتى الأولى ستبقى للأبد الذكرى الأكثر إبهاراً فى حياتى ، فأتذكر حقول البرسيم وذهب عيدان قصب السكر والشعير الأصفر وسنابل القمح الأخضر ، علام نخشى المصير ؟ شاب... لم أكن أتخيل أننى سأتى يوماً لزيارة مصر وأننى سأمضى بها أربعة وسبعين عاماً من عمرى! أجهل الملابس التى قادت خطاى إلى مواقع خطى إيمحوتب ، أكثر المهندسين المعماريين شهرة فى تاريخ البشرية، والذى عاش فى ٢٧٠٠ ق . م. قبل عصرنا . كان هنا قدرى، ولقد سرت إليه دونما أدنى تردد رغم أن الحياة بدت لى أحياناً مملة، وكان لى انطباع بالرتابة حتى كان اليوم الذى استيقظت فيه ووجدتني هنا منذ سبعين عاماً دون أن أشعر .

وأحد حظوظى فى هذه الدنيا هو تمتعى بصحة من حديد ، فعند سن السادسة أصبت بكل أمراض الطفولة ، الجدرى والسعال الديكى ...

بعد ذلك أصبحت محصناً، ثم أفدت من مناخ سقارة الصحي جداً فى
جونى تماماً ، فهناك سماء صافية ذات نجوم لم تكن قد تلوّثت بعد ،
وأشعة الصباح الأولى تشرق على الشرفة حيث أتناول كل صباح
إفطارى، والهدوء يحيط بالمكان . أما اليوم فالطائرات تحدث ضجيجاً
لا يطاق فى المكان .

بكل تأكيد لدى وصولى للموقع لم أكن أحيط بحجم العمل الذى
ينتظرنى فى المجموعة الجنائزية للملك زوسر . فى عهد هذا الفرعون
الذى حكم حوالى ٢٧٠٠ ق.م. عرفت مصر عصرأ من ازهى عصورها ،
ولقد فطنت بسرعة منذ العام الأول، أى عمل جبار ينتظرنى بين جنبات
هذا الحطام فى سقارة . وكل من جاء لمساعدتى سرعان ما يتخلى عن
ذلك ، حتى صلاح النجار وهو واحد من ألمع علماء المصريات المصريين،
والذى عمل معى لعدة أعوام لكنه لم يوفق للعثور على قطعة ولو صغيرة،
لكى يضعها فى موضعها من الدهليز، فى حين إننى أعدت ما لا يقل عن
سبعمئة قطعة فى هذا الدهليز . على الرغم من الصعوبات التى لم تكف
عن التعرض لى طوال هذه العقود المديدة، فإننى فى الإجمال أراى
محظوظاً هنا . وأكثر اللحظات سعادة تلك التى أحسها لدى العثور على
قطعة مهمة للترميم فى أحد الأعمدة، على سبيل المثال لطالما جربت هذه
السعادة الغامرة التى تغزوك عند توصلك لهدف رئيسى . عبر حياتى
كلها كانت سقارة رئيسية، وعندما أنظر خلفى كثيراً ما يثيرنى عدد السنين
التي قضيتها فى مصر ، ويبدو ذلك لا يصدق عندما أجدنى على مبعدة

عامين من عمر المائة عام ، ولم أستطع التحقق من أنني وصلت هذه السن فكل شيء مر سريعاً ورغم كل ذلك لدى شعور أنني أستطيع عمل المزيد، ولكن الواقع يحول دون ذلك ، تمر على أوقات أحس أنني أفيق من حلم كبير، وأحياناً أقول لنفسى إن العمال كانوا محقين عندما يقولون "إن الإله قد نسى السيد لوير" .

الخطاب

لن أنسى ما حييت ذلك اليوم من عام ١٩٢٦ عندما هرولت أُمى نحو باب غرفتى نقرعه بلهفة لكى تعطينى خطاباً، فقامت عن طاولة عملى وأخذت المظروف شاكرًا لها ، والنظر كان مصوبًا تجاه الورقة البيضاء حيث اسمى مدون بشكل جميل ودقيق ، إنه خط ابن عمى جاك هاردى، وهو فى الحقيقة ابن عمى بالمصاهرة ، فلقد تزوج من ابنة عمه لى ، جرمانية ، وهى ابنة أخت والدى، والتى كانت تجمعنى بها رابطة قوية يوماً على الرغم من فارق عمرينا، حيث كانت تكبرنى باثنى عشر عاماً ، وكذلك كان جاك متعلقاً بى جداً، وهو زوجها ، رجل لذيذ وبالأحرى أصيل ولامع من ناحية مهنته . لقد كان مهندساً ويعيش فى القاهرة منذ سنين عديدة مع ابنة عمتى وأطفاهما السبعة . هذا الخطاب هو الذى سوف يغير مجرى حياتى ، وكنت أتساءل ، ما الذى دفع هاردى حقيقة لكى يكتب إلى؟ وفى هذا الخطاب وبعد عبارات المجاملة المعتادة ذكر أن بدير لاکو مدير مصلحة الآثار المصرية يبحث عن مهندس شاب للعمل بموقع سقارة؛ لمساعدة عالم المصریات الإنجليزى سيسيل فيرث الذى كان قد عرف اسمى من هاردى أثناء تناول طعام العشاء ، وطلب لاکو الاتصال

بى سريعاً لمعرفة ما إذا كانت وظيفة لمدة ثمانية أشهر فى مصر تلقى لدى قبولاً . آنذاك كنت فى العام الأخير من دراستى للعمارة فى مدرسة الفنون الجميلة فى باريس، وكنت أجهل كيف أتجه مستقبلاً فى الحياة العملية . العمارة لم تكن على ما يرام تماماً فى فرنسا . لقد انتهوا من إعادة بناء الأقاليم التى خربتها حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ ، وفى باريس لم تشهد عمليات البناء أى نشاط لرفض السكان هذا الأمر بشدة ، وبالطبع لا أحد يجرؤ على الاستثمار فى البناء ، وكنت أفكر فى الرحيل لأمريكا اللاتينية أو المغرب ، بلاد بها أشياء كثيرة نقوم بها، ومع ذلك لم أكن قد اتخذت أى قرار لأننى لم أكن قد حصلت على شهادتى بعد . وقد غمرنى هذا الاقتراح الذى هبط على من السماء بالسعادة البالغة، ومن ثم فقد أخذت أحلم بقية يومى هذا .

وفى المساء فاتحت والدى الذى كان قريباً منى ، فى هذا الأمر ، وبالمناسبة إننى أكن لهذا الرجل احتراماً عظيماً، فلقد كان واسع الاطلاع والمعرفة ، حيث كان طالباً متفوقاً ، وأول دفعته فى مدرسة المدفعية ، ثم أخذ إجازة الحقوق قبل أن يحصل على شهادة مدرسة الدراسات العليا . ولقد ابتعث إلى روما ، إلى قصر فارنيزز للإعداد لدرجة الدكتوراه حول اكتشاف تم فى قصر لاتران . ولقد كان محظوظاً عندما عثر على مكان خبيثة كنز سانكتا سانكترم، وعين لدى عودته مباشرة من روما مرمماً بالمكتبة الوطنية بقسم المحفوظات، حيث أمضى حياته العملية حتى وصل لمرتبة المشرف على المرممين . لكنه عارض

فكرة أن أسير على دريه . ومن جهة أخرى كنت أجهل ما إذا كانت لدى القدرة على ذلك، وخاصة تلك المعاملة القاسية التي لاقاها هو وأمثاله، فلم يكن ليستطيع أن يعيش بمرتبته الزهيد، لولا ما كان ينفق على نفسه من ثروته هو وأسرته المكونة من زوجته وأطفاله الأربع .

ولأن العمارة كانت تقليداً عائلياً خرج عليه والدي ، فلقد ألح على في اقتفاء أثر والده وجده اللذين امتهنا ذات المهنة وهي العمارة . وبعد البكالوريا الثانية لى ١٩١٩ قدمنى لواحد من أصدقائه ، وهو حاصل على جائزة روما القديمة ويدرس بمدرسة الفنون الجميلة . فى هذا العصر كان عليك أن تلتحق بآتيليه مهندس ما ، والذي يصبح أستاذاً لك خلال هذه الفترة من دراستك . وانتبهت إلى أنني يجب أن أتدبر أمري ولكن ليس أكثر من ذلك . ولقد وصلت بدون مشقة كبيرة إلى نهاية دراستي بعد أن أمضيت ستة أعوام ختمتها بنظرية عن تشييد مركز طبى ، واخترت هذا الموضوع؛ لأنه فى هذا العصر كان أخى الأصغر الذى أحببته جدا يتردد على مصحة للعلاج من داء السل، وكنت أزوره، وكانت حالة المكان مزرية .

ولم يخف والدي ، وهو الرزين ، حماسه لهذا الأمر . ولكن والدي كانت ترى الأمر بشكل مختلف نوعاً ما ، كانت قلقة من فكرة رحيلى لمدة طويلة فى بلد تبدو بالنسبة لها متوحشة . كانت والدي قوية البنیان ذات شخصية قاسية أحياناً ، وكانت ابنة صاحب مصنع للسكر من منطقة سان - لو - دى أسرون فى إلواز . تزوج والداي فى عام ١٩٠١

وولدت فى عام ١٩٠٢ ولا احترام تقليد آخر عزيز على والدى عمدنى باسم "جون فيليب". وولد أخى فى عام ١٩٠٢ ثم أختاى بعد ذلك بفترة، الأولى فى ١٩١١ والأخرى فى ١٩٢٠، وكان على والدتى مسئولية البيت والأطفال؛ نظراً لانشغال والدى المستمر فى حياته العملية معظم الوقت فى المكتبة الوطنية، أو بالمنزل كذلك مشغولاً بالعمل فى مكتبه . ومن ناحية أخرى فإن شققتنا الواقعة فى بولفارد جول ساندو ، حيث كنا نسكن منذ عام ١٩١١، تحولت إلى معمل أبحاث، وعلى الرغم من أنها كانت كبيرة فإن حجراتها كانت معتمة، والكتب التى تكسدت فى كل مكان كانت تمتص طاقتنا ، ومكتب والدى، والذى كنا نادراً ما نتسلل إليه لأن والدى لم يكن يحب أن يزعجه أحد ، كانت له رائحة شمع العسل التى أتذكرها جيداً ، وأحتفظ دوماً بحب عظيم - طيلة عمرى - للكتب والمكتبات .

وكنت سعيداً جداً بحماس والدى، ومنذ ذلك اليوم لم أعد أحيا إلا مع مصر فى رأسى . ولقد أرسلت فى الغد خطاباً إلى بيير لأكو لأرشح نفسى، ثم كتبت بعد ذلك إلى جاك هاردى لأشكره، ولم يتبق أمامى سوى انتظار مجيء بيير لأكو مع بداية الصيف .

الانتظار

بدأ شهر يوليو، سماء زرقاء ملبدة بالفيوم، سوف تهطل الأمطار فوق باريس ، وكان يوماً مناسباً للقيام بزيارة مهمة . وأفضل المشى على الأقدام، فشوارع باريس في عام ١٩٢٦ كانت لا تزال هادئة والخيول تعبرها مما يعطيها سحراً خاصاً . وعند وصولي أمام المبنى حيث يسكن بيير لأكو أخذ قلبي ينبض بشدة. والذى الذى كان يعرفه قال لى إن هذا الرجل يفرض احترامه ، ولذلك ضغطت على جرس الباب بتأثر ، وجاءت سيدة لتفتح لى الباب وتقودنى إلى مكتب الأستاذ ، وتلعثمت عند تحيته عندما نهض ليصافحنى بحيوية . رأيت أمامى رجلاً قويا ذا قوام متناسق، وذا بنيان غير عادى . ذلك الذى كان يكسو حفا جمال هذا الوجه الكهنوتى الجذاب ذى اللحية البيضاء الطويلة المهذبة بعناية، والتي يداعبها بيد ناعمة، وتأثرت بهدوئه . بيير لأكو ، كان على دراية بأنه يحظى باحترام كونه على قمة علم المصريات عالميا . وكنت أعلم من والدى أن خلف هذا الهدوء عزيمة عالم كبير وروحاً متفتحة .

أجبت عن أسئلته بصراحة معترفاً أنني معى بكالوريوس فى اللاتينى واليونانى، لكننى لم أدرس إطلاقاً اللغات القديمة ولا أى لغة من

لغات الشرق الأوسط كالعربية أو العبرية ، أما الهيروغليفية فكانت بالنسبة لى واحدة من أكثر اللغات جاذبية وغموضاً فى تاريخ البشرية . لم أستعد لمواجهة عالم العلماء، ولكن لآكو استوقفنى : ليس الأمر أن تصبح عالم مصريات فكل ما تحتاجه مصلحة الآثار مهندس معمارى لا أكثر . وأوضح لى لآكو أن سيسيل فيرث هو الذى يعمل منذ عام ١٩٢٤ فى سقارة على مبعدة حوالى ٣٠ كيلو متر جنوب القاهرة ، أزاح لتوه الرمال من حول بقايا الآثار التى تحيط بالهرم المدرج ، هذا الهرم هو الأول فى مصر، وهو مشيد كما لو كان سلماً يصعد نحو السماء، والذى حدث بعد ذلك أنهم أخذوا يكسون الجوانب، وأخذوا يطورون ويتقنون فى بنائه، حتى وصل للشكل الهرمى الكامل مع هرم خوفو فى الجيزة . ولأن فيرث لم يكن يفهم وظيفة هذه الآثار التى اكتشف بقاياها فقد طلب الاستعانة بمهندس من مصلحة الآثار عندما أخذ يبير لآكو فى وصف الموقع ، الصحراء الهائلة المحيطة والمناخ المحيط بمواقع الحفائر وشخصيات علماء المصريات الذين يعملون . تركت نفسى أتخيل هذا العالم الساحر الذى سألتحق به ؛ فلقد كنت كطفل يقلبون أمامه صفحات كتاب عجائب مبهـر ، فلم أكن أعلم عن مصر سوى صور الأهرام ولم أتخيل ما هى الصحراء ، وليس لدى أى فكرة عن موقع حفائر . ثم انتقل لآكو إلى شروط هذا العمل فاقترح على عقداً بثمانية أشهر مهندساً مساعداً لسيسيل فيرث مدير الحفائر فى سقارة بمرتبة خمسة وسبعين جنيهًا مصرياً شهرياً ، فسأصبح موظفًا مصرياً. ولأن هذه النقود كانت تعادل بالجنيه الإسترلينى فإن المبلغ فاق تطلعاتى كلها عند العمل فى فرنسا ،

ومع ذلك فإن لآكو سرعان ما تنبه إلى أنه بهذه المعاملة ساوى بينى وبين علماء المصريين المثبتين ، ومن ثم خفض مرتبى الشهرى إلى خمسين جنيهاً ، ومع ذلك ظل هذا المرتب مناسباً تماماً وقبلت بسعادة .

لم يتبق أمامى الآن سوى انتظار العقد ، ومنذ عودته لمصر فى نهاية الصيف وعدنى لآكو بأن يرسل العقد لتوقيعه ، بعد توقيعه من السلطات المصرية . هذه القطعة من الورق كانت بالنسبة لى فاكهة ، واستثمرت هذا الشهر من الانتظار فى الغوص فى تاريخ الحضارة المصرية ، فسوف أرتحل إلى مصر لأرى بنفسى ما اكتشفته مع والدى فى طفولتى .

وجاء سبتمبر ، ولم يجرى العقد وبدأت أحس بأن الوقت يمر طويلاً ثقيلأ . ولقد كنت سعيدأ جداً فى وسط عائلتى وإن كنا قد تلقينا تربية قاسية فى ذلك السكن فى الحى البرجوازى فى الضاحية السادسة عشرة ، ولم أتمرد أبداً على التقاليد المحافظة لعائلتى ، وكنت أشاركهم الإيمان المسيحى بحرارة . ومع ذلك وعند بلوغى الرابعة والعشرين من عمرى كانت عندى رغبة ملحة للتخليق وحدى بحرية . وكانت مصر هى المكان الذى يلبى أملى فى المغامرة .

وصلنى العقد أول نوفمبر ، ولم أدر كثيراً سبب ذلك ولم أبحث عنه . وغمرتنى السعادة فأنخيراً أستطيع السفر ، وليس أمامى إلا إعداد حقائبي ، ومنها بالتأكيد ملابس تلائم الجو الصحراوى وغطاء رأس كولونىال ، كما يقتضى التقليد ، واستعرت أحذية ضابط التى تناسب تماماً السير

فى الرمال . وكانت تلزمنى أدوات الرسم وكمية من الكتب ، كتاب ماسبيرو "تاريخ مصر" ، وكتاب جيكيه وموريه ، وكانت والدتى مشغولة بى وقلقة من أجلي . أما والدى فقد استدعانى ذات مساء لمكتبه ليقدم لى بأديكار ، إنجيل السانحين فى هذا العصر . وتأثرت جدا بهذا واحتفظت بهذا الكتاب لأعوام عديدة .

ورغم السعادة التى كانت تملؤنى ، فإننى لم أستطع أن أمنع قلبى من التأثر لحظة الرحيل لفراق أحبابى وشقيقتى ، وخاصة أخى الذى كان معتل الصحة ويخضع للملاحظة الطبية ، لكنه كان متماسكاً شجاعاً وكان ينتوى متابعة دراساته بعد الخروج من المصحة ، ومن ثم فقد كنت فى خدمته وقمت بالتسجيل له فى الجامعة وجمعت المحاضرات التى لم يستمع إليها وقمت بالاطلاع على الكتب التى قد يحتاج إليها والوثائق فى المكتبات ، ومن ثم استطاع أن ينجح فى العلوم (بو Po) وهذا جعلنى أشعر بالفخر . وبنهاية نوفمبر اصطحبتنى كل عائلتى إلى محطة ليون ، التى منها أخذت القطار إلى مرسيليا . ولست فى حاجة إلى القول بأن عيني لم تر النوم طيلة ليلة الأمس ، وكان الوداع على رصيف المحطة عاطفياً ومؤثراً جداً .

وكنث محظوظاً للسفر فى مقصورة فى الدرجة الأولى ، وأخذت مكانى استعداداً لرحلة تستغرق ليس أقل من اثنتى عشرة ساعة ، النظر الحالم للمناظر التى تمر بى ، واكتشاف فرنسا التى لم أكن أعرفها إلا قليلاً فى الإجازات الصيفية عندما كان الوالدان يصطحباننا إلى

بريطانيا على البحر أو إلى فيفى أو سويسرا أو إلى برا لوبين على مقربة من شاموني . ولم تكن نترحلق على الجليد بل نتسلق "جبال الألب" أو نتجول على الأقدام، وبقي معى من هذه النزاهات هواية المشى . والدى - وفى شهر إجازة - أخذنا ونزلنا فى فندق ، ولأنه يعشق فن العصور الوسطى فقد كان يصطحبنا لزيارته بشكل منتظم على الدراجة ، فكنا نرى آثار الإقليم الذى نسكن به هذه الفترة من الإجازات ؛ ومن ثم تشبعنا بحب الأحجار القديمة .

وعلى النقيض لم أكن أحب الرياضيات ، فالجبر وحساب المثلثات بالنسبة لى كانا كاللغة الصينية ، وعندما يتحدثون عن البرهان فى الرياضيات كنت أجهل عم يتحدث هؤلاء ؛ ولحسن الحظ كنت متمكناً من باقى المواد ، فالكهنة الذين كانوا يقومون بالتدريس فى مدرسة جرسون فى حى راق فى باريس كانوا يتمتعون بأفق أكثر رحابة من اليسوعيين . وكنا نحس بذلك ويتحدث بذلك التلامذة ؛ فقد كانوا يعرفون كيف يبصروننا بصورة مبسطة بطبيعة الإله . وساعدونا لكى نتعامل مع النصوص المقدسة . وبفضل التعليم الدينى القوى الذى تلقينته فى هذه المدرسة بقيت ممارساً طيلة مدة دراستى ، مع أن الأمر لم يدم تماماً على هذا الحال فيما بعد ، فلم يكن سهلاً الذهاب للقداس يوم الأحد فى سقارة لأننا نعمل فى هذا اليوم ، واحتفظت لنفسى فى حياتى اليومية بأوقات للصلاة ، وفى كهولتى عدت من جديد مخلصاً للكنيسة، فالإيمان يعطى يوماً معنى لأعمالى .

خلال ثلاثة أعوام وبعد إعلان الحرب فى صيف ١٩١٤ لم نعد نرى عمليا والدنا، والموقف مع الوالدة كان مؤلماً ، وشتاء أعوام ١٩١٦ - ١٩١٧ كان مرعباً والبرد القارس ضاعف آلام الناس . ولكن ذلك لم يمنعنى أنا وأخى من الذهاب كل أحد إلى القناة الكبيرة فى فرساي للترحلق ، وفى عام ١٩١٨ كان ضرب "جروس برنا" بالمدفعية . انتهت لتوى من البكالوريا الأولى ، وواحد من أعمامى وهو داود سانت كليز جاء يبيح عنا لكى يؤينا فى قصره فى توران ، وكان على الانتظار للعام القادم لإنجاز البكالوريا الثانية ، ورغم تدمير الحرب سرعان ما عادت الحياة لطبيعتها .

كانت هذه الذكريات تتداعى إلى مخيلتى أثناء هذه الرحلة التى لا تنسى ، ولأننى لم أسافر أبداً خارج فرنسا فإن فضولى كان بلا حدود ، وعند نزولى من قطار مارسيليا أسرعت لمكتب الشركة البحرية للحصول على تذكرتى ، وتبعنى حمال الحقائب تحت أشعة شمس حارقة فى نوفمبر وكنت فى ملابس سائح. ولسوء الحظ كانت السنيا Sinaia على الرصيف لدى إقلاع السفينة بالركاب قد بدأت ، وكانت توجد أربع درجات على متنها وكنت فى الثانية ، ومن ثم أخذت مكانى مستريحاً لمواجهة خمسة أيام فى البحر .

ورفعت الأشرعة فى النهاية بعد الظهر ، والمدينة القديمة اختفت تحت أشعة الغروب ، ومن أعلى نقطة فى المركب استطلعت رؤية الهضاب السبعة التى تقوم عليها المدينة تحت رعاية نوتردام دو لا جارد . وأول يوم على

متن السفينة كنت قلقاً ، فعلى الرغم من هدوء البحر فإن اضطراب السفينة البسيط بدلاً من أن يهددنى دفعنى لتذكر أشياء ، وأورد الكثير من الأفكار على رأسى ، فكانت أول مرة أسافر على متن سفينة . وكان هذا أمراً مثيراً جداً بالنسبة لى ، وكان قدرى أن أبدأ مغامرة سوف تأخذنى إلى أمام تفوق الخيال . أثناء العشاء وجدت نفسى وحدى على المائدة وعلى مقربة من فرنسى آخر ، والذى سرعان ما دخل فى حديث بعد وصوله مباشرة ، وكان هذا رفيق الرحلة الوحيد لأننى كنت خجولاً بطبيعتى .

منذ الفجر قمت وقفزت على أعلى نقطة فى المركب لملاحظة شروق الشمس الرائع على صفحة الماء الصافى . وبالقرب من نابولى ، غرقتى روائح مختلفة ، فلقد كنا نمر بعالم آخر مختلف ، أكثر حرارة ، ومتنوع فى ألوانه ، ومتلألئ فى أضواءه والرياح كانت لطيفة ، فكانت الأيام الخمسة فترة جميلة عشتها .

جروپى Groppi

لدينا ميل فى ذكرياتنا لتأمل ما كان وما لم يكن وهكذا بقيت أحب القاهرة. هذه المدينة موئل كل ذكرياتى المهمة . أثناء تنزهاتى التى أضحت مع مرور الوقت قليلة جداً خاصة فى هذه الأعوام الأخيرة . فى الواقع ، المدينة مصممة بطريقة متميزة فالأزيكية ، على سبيل المثال ، حديقة بها أشجار استوائية وكانت مفضلة خاصة لدى الأوروبيين وأضحت رماداً واختفت أشجار الجميز والأشجار الأخرى العملاقة. ومع ذلك تبيقت أماكن مازالت تشهد بعض المنتزهين. الطوانى جروپى كان هناك ، وشكل جزءاً مهماً من ذكرياتى ؛ فلقد ذهبت إليه مرات فى عام ١٩٢٨ مع مارجيت جوجى ، الشابة التى سوف تصبح زوجى ، لأنه فى مصر كان قدرى أن أتقابل مع الإنسانية التى سوف تشاركنى حياتى ، لكننى كنت أجهل ما إذا كانت تشاركنى مشاعرى كذلك ، ففى تلك الفترة كان من الأفضل أن تصطبغ فتاة فى هذا المبنى العريق الذى ترتاده الطبقة البرجوازية فى القاهرة ، لتتناول قديحاً من الشاي أو لتلتهم بعضاً من قطع الطوى التى لا يوجد لها مثيل فى أماكن أخرى ، سوى أن تذهب لتحسسى كأساً فى شرفة فندق شبرد .

ولقد كتب الصحفي فى جريدة لوموند - وهو جون بيير بيرونسل هوجوز - بلا مبالغة ويكثير من الجدية أن جروبى "برصيفه المزدوج مملكة غذائية ترتادها الطبقة البرجوازية" ، فى الجهة المقابلة لميدان طلعت حرب . يقع على زاوية شارعين بنوافذه الزجاجية الضخمة ويحتفظ بزخارف داخلية نادرة جدا . ومن حول موائد متناثرة يتدافع أناس كثيرون فى الساعة المعتادة لتناول الشاي .

وأذكر أننى ذهبت إليه بعد الحرب فى ظروف خاصة ، فلقد كنت قد التحقت بسقارة فى عام ١٩٤٥ تاركاً زوجتى وأطفالى فى باريس فى انتظار المركب التى تنقلهم إلى مصر، وعندما وصلوا أخيراً إلى القاهرة، حماتى التى لم تكن قد رأتهم منذ ست سنوات أخذت - وبسبب من الحالة التى كانوا عليها - فى الاكتئاب تقريباً ، فزوجتى والتى كل أفراد عائلتها يتلقبون بلقب ميمى "اسم الدلع" أصبحت نحيفة جداً والأطفال كذلك . واصطحبتهم حماتى فى جولة شرائية ثم بخلفنا جروبى وحيرتنا أنا وزوجتى نظرات الأطفال المعلقة بجبال الجاتوه التى أصبحت تراها العيون الآن ، فلقد عجزوا عن الاختيار من بين هذه الأنواع الكثيرة ، وألحت عليهم جدتهم أن يأخذ كل واحد منهم عدة قطع ، لكن بالكاد استطاع كل واحد منهم أن يتناول قطعة ، لأنهم منذ وقت طويل لم يعتادوا تناول غذاء دسم هكذا . وبعد المحال الخالية والشوارع الحزينة لعدم وجود البشر بها فى باريس ، هاهى القاهرة بشوارعها البهيجة

وضوضائها الكثيرة ، والكريمة ، بدت بالنسبة لهم كما لو كانت عالم آليس فى بلاد العجائب " يبدو أننا أبحرنا فى أسطورة من الأساطير " هكذا حكّت لى ابنتنا فلورنس ، "فنحن نجد الجنة على الأرض المدينة والمناظر الطبيعية ، والدفع والألوان والروائح وهذا الضياء الجميل جدا ، كل هذا بدا لنا خيالاً " .

كان عندى كذلك الحظ أن أعرف مكاناً من أكثر الأماكن سحراً بالقاهرة ، قهوة الفيشاوى الشهيرة ، القهوة التى كانت فى عام ١٩٢٦ تبلغ من العمر أكثر من مائة عام ، ولم أعد إلى هناك منذ وقت طويل لأن السائحين ملأوا حى خان الخليلى الذى تقع فى قلبه قهوة الفيشاوى ، وأن تصل إليها بالسيارة فهذا هو الجحيم بعينه . وهناك أعمال ضخمة لهيئة الشارع الذى يؤدى إلى الجامع الأزهر الكائن فى مواجهة السوق . فالمصريون كانوا يصعد حفر نفق للسيارات ، فهم أخيراً فهموا أنه من الأفضل أن تسير العربات تحت الأرض أفضل من الكبارى العلوية التى تشوه المدينة ، فى هذه الفترة تعرفت على قهوة الفيشاوى، والتى أطلقوا عليها كذلك مقهى المرايا لاحتوائه على ١٩٠٠ مرآة فى كل جوانبه، فيغزونا الإحساس أننا نتسلل إلى عالم آخر مختلف تماماً ، فالمكان هادئ ، أما الزبائن فهم من شباب الحى أو من طلاب الأزهر ، ويقدمون يوماً الشاي بالنعناع وهو المشروب الرئيسى مع شيشة التفاح ، بأوراق ملونة جميلة ، واحد من الزبائن الدائمين فى الثلاثينيات كان اسمه نجيب محفوظ ، كاتب شاب من الحى نفسه ، اعتاد المجيء إلى المقهى

ليكتب رواياته فى هذا الجو الهادئ العالم ، لكنه ومنذ إحرازه لجائزة نوبل فى الأدب ، لم يعد يأتى للفيشاوى ، ولكن المقهى وبفضله أصبح مكاناً تاريخياً ، ومالكها الحاج فهمى الفيشاوى مات كمدأ فى عام ١٩٦٩ ، عشية اليوم الذى بدأوا فيه أعمال الهدم ، فلم يتبق إلا جزء صغير من المقهى الأصنى ، ولكنه كاف لتخيل مدى جمال وسحر المكان .

وهذه المشكلة متكررة بالقاهرة ، فهم يهدمون المباني الراقية الجميلة ليشيّدوا بدلاً منها أخرى قبيحة ، وكم من فيلات باهرة اختفت الآن وعددها بالمئات لتقوم مكانها عمارات أسمنتية ، قصر المنيرة أنقذه الفرنسيون الذين أعادوا شراؤه فى عام ١٩٠٧ ليكون المعهد الفرنسى للآثار الشرقية (IFAO) ، وبناء على طلب صهرى ، بيير جوجيه ، الذى شغل منصب مدير المعهد حتى عام ١٩٤٠ ، قام ابن عمى جاك هاردى بتغيير واجهته ، وشيد واجهة أخرى من الطراز الكلاسيكى الحديث . هذا المقر الرائع شيد عام ١٨٦٠ على إقطاعات إبراهيم باشا ، وأعطوه تبركاً اسم المنيرة ، وهو اسم زوجة هذا الباشا ، والتي تزوجت به ولها من العمر ثمانية أعوام ، ومع الأسف عانى القصر من التلف ولم يتبق منه إلا بقايا من ذلك القصر الذى عاش به صهرى عام ١٩٢٨ ، الحديقة الرائعة تحولت لجراج لسيارات الموظفين بالمعهد ، والمدخل تغيرت ملامحه وكذلك الصالونات التى لم تعد تستخدم بشكل عملى ، وعندما أضعف السلم الأثرى الذى يؤدى لغرف الباحثين والدارسين المقيمين ، لا أستطيع أن أمنع نفسى من رؤية أبنائى وهم يلعبون فى كل مكان .

فالصالون الصغير الذى قابلت فيه مارجرىت لأول مرة ، هذه الحجرة التى شهدت فى ٢٥ ديسمبر ١٩٢٥ ميلاد ابنتنا فلورنس ، هذه الحجرة لم تعد موجودة وشغل مكانها توسعة المكتبة . المنيرة ومنذ وقت طويل تعطيك انطباعاً ببرودة الأماكن المنعزلة وعندما عرفت هذا المكان ، كان يشع بالسعادة على عائلة سعيدة وهى عائلتى ، وعند عودتى للقاهرة الخميس مساء لقضاء نهاية الأسبوع ، نمت فى المنيرة مثل علماء المصريين الفرنسيين كلهم ، الذين يعملون فى سقارة ، ولو كان يوم جمعة وأنا غير مدعو عند أصدقاء لى أسرع إلى شارع هدى شعراوى باحثاً عن مطعمى المفضل ، فلفلة وتكعيبية العنب البلاستيكية وأرضيته المرمرية ، وأضواؤه وكثتها من ألف ليلة وليلة وموائده من الخشب المقوى ، ونوافذه الزجاجية الملونة التى يتفد منها ضوء خافت جميل ، ونافوراته المليئة بالنواقع ، ويبقى هذا المطعم بالنسبة لى الأكثر جاذبية بالقاهرة . وهو مكان تناول الطعام المفضل لى بالقاهرة من عدة أعوام .

فى اتجاه الشرق

بدت لى الإسكندرية بيضاء عندما انقشعت السحب، واستطعت رؤية السماء التى تكاد تلامس الأعمدة المرتفعة والمنارات وكذلك المداخل، وتسمرت عينائى على هذا المنظر الطبيعى الذى لم أكن أحلم به ، هذا النخيل الباسق على خلفية من لون برتقالى هو لون الصحراء ، فهذا المنظر الطبيعى الذى أتأمله كما لو كان قصيدة رائعة . وسافرنا ، ولا يمكن أن أنسى انطباعاتى الأولى فالصخب والزحام، حتى الروائح بقيت برأسى ، ولعلنى أقول إنها أشياء فاتنة ، فهى تتخلل الجيوب الأنفية عندما تقوح بالعيق عند هبوب الرياح . واستطعت أن أشق لنفسى طريقاً وسط جلبة لا توصف ، يتبعنى رجلان عملاقان لحمل المتاع . وعندما وصلت إلى الرصيف هجم علىّ التجار المتجولون وسط حشود لا تصدق من كل لون . وارتديت جلباباً طويلاً من ذلك الذى يرتديه الرجال ، والعمامة الجميلة وهى الطربوش ، وهو نوع من لباس الرأس المميز للشرق والذى يرتديه كل المصريين . ثم تتبعت حاملى المتاع رغم الحر الشديد وأخذت تاكسياً وودعائنى بحرارة وأعطينى كلاً مكرمه . ولم أستطع أن أتأخر بالإسكندرية ! فلقد نصحنى ببير لاكم أن أخذ أول قطار للقاهرة

حيث سيكون فى انتظارى . ورؤيتى للمدينة كانت سريعة ، فكان لىء بالكاد الوقت لرؤية ما وراء أسوار منطقة المرور ومخازن الميناء التى تخفى وراءها المدينة الواقعة بعيداً ، وعبر التاكسى الشوارع المزدحمة والتى كانت بالنسبة لى عالماً جديداً لم أعهده . وكان هناك عتالون آخرون تابعوننى وسط الزحام الشديد حيث الحشود والزحام واختلاط البشر والألوان وأنواع التسريحات وألوان الملابس ، وكان القطار على الرصيف ، ووضع هؤلاء متاعى فى مقصورة درجة أولى فى عربة إنجليزية قديمة من القرن الماضى . وألقيت بنفسى على أريكة كبيرة من الجلد الأخضر ، وامتصت عرق جبهتى ، فلقد أغرقنى العرق فى هذا اليوم .

الخط الحديدى الذى يربط الإسكندرية بالقاهرة أنشئ عام ١٨٥٧ وهو بالضبط العام نفسه الذى أنشئ فيه الخط الواصل ما بين باريس ومارسيليا ، فقد كانت مصر تحنو حنو أوروبا . فى عام ١٩٢٦ لم يعد يعمل خط السكة الحديد عشر ساعات كما كان عليه عهد أوجست مارييت ، هذا العبقرى الذى ترأس مصلحة الآثار فى مصر ، ولكن فقط ثلاث ساعات . وبعد أن يعمل جرار القطار البخارى ، يسير القطار بطول الطريق الذى يمتد مع ترعة المصمودية ، التى حفرت فى بداية القرن التاسع عشر فى عهد محمد على وكرس لها ٤٠٠ ألف فلاح ، والذين عملوا فى ظروف غير آدمية ؛ لإرضاء أطماع هذا الوالى الذى يحكم البلد . أما الهدف من هذه الترعة التى بلغ طولها حوالى ٧٠ كيلو متراً ، فهو أن تصل الإسكندرية بنهر النيل ، مع أن الإسكندرية أنشأها

الإسكندر وراعى فى تصميمها أن تكون مدينة منعزلة بعيدة عن المصريين ، وأنجزت هذه التربة فى ١٨ شهراً ، أما الثمن المدفوع والدّم المسفوح فقد فاق الثلاثين ألف جثة لفلّاح مصرى .

ويخرج بعد ذلك الخط الحديدى من المدينة ، ليسير على شريط ضيق فى أرض رملية . يقسم هذا الشريط بحيرة مريوط إلى قسمين ، وفجأة يتحول المشهد من صحراوى أصفر إلى مشاهد خضراء يانعة وأسراب من الطيور المائية تشق المسطح المائى الكبير ، وهذا يدل على الثراء فى الخضرة والقنوات التى تقسم السهل إلى مربعات كأنه رقعة من لعبة الشطرنج ، هذه الأرض بدلاً من أن تكون قاحلة تحولت إلى أرض خصبة بفضل معجزة الماء ، فلقد ظالت متشككاً من صدق جملة قراءتها وهى : "مصر هبة النيل" الآن وأمام هذه الطبيعة أحس تماماً بصدق هذه العبارة ، وكان عندى الحظ فى أن أصل مع نهاية الفيضان ، حيث بدأ الماء المحمل بالقرين فى الانحسار تراكماً وراءه الطمى الفنى بالخصب للأرض ولقد شاهدت الفلاحين المنغمسين فى الطين حتى الركب وهم يبذرون الحب أو يحرقون الأرض . إنهم يتفانون فى عملهم هذا ، وأنا أشاهد هذا التناغم فيما بينهم وبين الأرض تحت الشمس ، ويمشاهدتى لذلك ، وأنا صاحب العقيدة الإيمانية ، رأيتى أضع أقدامى على أرض وطنها المسيح .

بعد عبور الكوبرى فوق بحيرة مريوط ، تبدى النيل الأسطورى والمقدس ، فالأنهار التى رأيت فى فرنسا مقارنة به كأنها جداول صغيرة ،

فالنيل قادم بتياره المتدفق من أعمال إفريقيا ، مياهه غنية ولون الأرض هو لون طميه الذي هو لون ضفافه بطولها ، وخمنت أنه على مدى البصر هناك قطعان من الجمال والأغنام . ومن خلف النخيل الباسق توجد قرى الفلاحين متجاورة وكأنها أكوام من الطين المجفف ، وعلى طول حافة النهر تبيت المراكب وسط عيدان البوص. وقبل ساعة من الوصول للقاهرة ، عبر القطار هليوبوليس مدينة الشمس القديم . لقد قرأت الوصف الذي خطه سترابون في مؤلفه "الجغرافية" ، وطبقاً لما أورده فإن رجال الدين المصريين القدماء زعموا أن هليوبوليس أبدعت الثامون ، مجموعة من ثمانية آلهة ، وهم أصل العالم عندما لم يكن يوجد إلا الماء الأزلى المظلم البارد .

على الرغم من أن هذا النص ظل غامضاً بالنسبة لى فقد هدمت عندما قرأت أن الشمس أتون أوجد العالم عن طريق الاستمنا قبل وجود المحركين الأوائل التسعة فى الأسطورة الأوزيرية ، هليوبوليس هى عين الشمس وهى مكان أسطورى ومهد العلوم ، هيرودوت ويلاتون جاءوا إلى هنا ليعرفوا الأسرار . لكن المدينة الزاهرة انتهت بالدمار على يد قمبيز فى عام ٥٢٥ ق . م هذا الملك الفارسى المختل الذى شحن إلى سوس وفارس عموماً الفنانين المصريين لكى يشيدوا له قصوره ، لكن كانت هليوبوليس قد تلقت زيارة مشهودة .

بالقرب من هذه الأطلال ، وفى قرية تسمى المطرية ، استراحت مريم ويوسف أثناء هرويهما إلى مصر ، وقد جعل السيد المسيح نافورة

تنضح بالماء فى هذا المكان ، حيث غسلت مريم ملابسها ، والصمغ الذى ينتجه هذا البلد كان نتاج العرق المتساقط من أعضاء المسيح ، هكذا قرأت فى الأناجيل المختلفة عن الطفولة ، ولقد جذبني هذا المكان ، وعندما سبحت الفرصة قمت بزيارته ، شجرة الجميز المقدسة شجرة العذراء التى تحل محلها زرعت فى عام ١٦٧٠ بالقرب من مصدر الماء المقدس ، وهو مصدر الماء العذب الوحيد الذى ينبع من الأرض المالحة بهذا البلد ، والشجرة المقدسة وطبقاً للنصوص الدينية ستموت من الشيخوخة فى القرن السابع عشر ، وعندما وصلت رأيت هذه الشجرة قد غطاها وأخفاها تماماً سور القديسين ومكان النذور والقرايين والمقاصير ، وقد جعل الأقباط منها مكاناً يحجون إليه ، ولكن لفرط حماسهم فإن الصبيح كانوا يقتطعون قطعة من القشرة الخارجية للشجرة أو جزءاً من الخشب من هذه الشجرة البائسة ، حتى أضحت ذات هيئة معتلة تزداد سوءاً مع مرور السنين .

عندما توغل القطار فى أحياء القاهرة ، وقد غمرها النهار وقت الظهيرة ، وانعكست الألوان على غابة من القباب والمآذن ، تفحصت المدينة ، وعندما وصل القطار إلى نقطة النهاية اكتشفت أن محطة القاهرة تفوص فى وسط ضجيج وزحام فاق ذلك الذى رأيته فى الإسكندرية ، وعندما رأيت الناس تتدافع ويلكم بعضهم الآخر والمعارك مع الحمالين الذين يتخاطفون الحقائق ويدوسون عليها بلا حياء انتابني بعض الرعب ، لكن سرعان ما عدت إلى هدوئى وعادت إلى الطمأنينة لوجود بعض

المصريين الذين أرسلهم لآكو من أجلي، استقبلنى هؤلاء استقبالاً حاراً، وحملوا حقائبى إلى حيث كانت تنتظر سيارة جاءت خصيصاً كيما تقلنى إلى حيث السكنى .

وعبرنا المدينة من المحطة إلى المتحف سريعاً، ومن الصعب أن نتصور اليوم كيف كان هذا الأمر بالأسى ، فلم يكن بالقاهرة سيارات ولكن حناطير تجرها الخيل ، هكذا كان الحال فى عام ١٩٢٦ ، دلك من المشاة وعربات النقل الصغيرة ذات المظلة والحمير ، فقد كانت الشوارع فسيحة ذات أرضية من البلاط، الأشجار تحفها من الجانبين وتنفس فى هدوء عفى عليه الزمن .

لا تأوى هذه المدينة سوى ثمانمائة ألف نسمة ، ولعل الانطباع الذى تعطيه العاصمة المصرية فى الحال هو أنها بابل مسلمة ، مزيج من الأصوات والألوان ، الطرابيش الحمراء والعمائم الزرقاء والقفاطين والكوفيات ذات الألوان العديدة تتداخل كالطيور داخل مطيرة ، وعندما وضعتنى السيارة أمام المتحف كنت واقعاً تحت تأثير السحر من هذا الذى أرى . خلف السور الذى يعزل المتحف عن المدينة فيللتان مشيدتان واحدة تأوى الإداريين المحليين والأخرى مخصصة لمدير مصلحة الآثار المصرية ، وكان لآكو هو السيد الحاكم هنا ، وتمتد سلطته على البلد بأسره . لا شىء يمس الآثار، المصرى بمنأى عن حكمه ، ويفرط حماسه أحياناً لا يأنه لآكو لأحد سوى الملك فؤاد الذى يضع فيه ثقة مطلقة .

ولقد وجدت لأكو في مكتب كبير في الدور الأول الذي يطل على
الحديقة ، وقد نهضت لحيتي وسألني ما إذا كنت قد حظيت برحلة طيبة
وتمنى لي إقامة طيبة في مصر . أخذنا الشاي في الشرفة ، وفطرط وده
معي اقترح على قضاء يومين بالقاهرة قبل أن أغادرها متوجهاً إلى
سقارة حيث ينتظرنى الجميع ، فيما يبدو ، بفارغ الصبر .

زوسر

بعد مرور سبعين عاماً أتذكر بتأثر مقابلتى مع الفرعون الذى بدل التقاليد فى مصر ، ذلك الرجل كان يسمى زوسر وحكم حوالى ٢٧٠٠ ق.م وعشت جزءاً كبيراً من حياتى فى ظلاله ولا أملك إلا أسفاً لعدم وجود أى نصوص عن تاريخه ، وتشير لأهمية هذا الفرعون فى عصر الدولة القديمة المتوهج تلك المجموعة الجنائزية التى شادها المهندس المعماري العبقري إيمحوتب ، ومع تلك المجموعة أمضيت معظم حياتى كذلك غمرنى شعور بالعظمة عند اقترابى من حدود هرمه بعد وقت قليل من وصولى للقاهرة ، فلقد جنبنى بقوة هذا الأثر ، فهو يفعل فعل السحر فى النفس ، ذلك الإحساس الذى نجده عند النظر إلى تاج محل فى أجرا ، أو ما كان يمكن أن يغزونا لرؤية برج بابل فى بلاد الرافدين .

يقول فوانى فى القرن الثامن عشر عنه إنه الشيء الذى يأسر قلبك وروحك فى آن معاً بالدهشة والرعب والإعجاب والاحترام ، ولقد عملت طيلة عمري فى الدولة القديمة التى تعتبر العصر الأكثر اكتمالاً فى الحضارة المصرية كلها ، تبدأ بالأسرة الثالثة باعتلاء زوسر للعرش فيما بين ٢٧٠٠ و ٢١٦٠ ق .م وفى نهاية الدولة الحديثة كان المصريون يحلمون

بالعصر الذهبي الذي كان متجسداً في عصر الملك زوسر . ولا نعرف الكثير عن التاريخ السياسي والإداري أو العسكري للدولة القديمة ، فيما عدا السمة الدينية للملكية التي تشهد بها الآثار القديمة والخصوصية التي ظلت حتى العصر اليوناني ، والتي تتبدى من خلال جباناتها بشكل أساسي . أما باقي الآثار فقد اختفت ، فالمقابر شيدت بعبقرية في الصحراء بعيداً عن الفيضانات وصممت للخلود ، ومن أجل هذا الهدف انتبه المصري منذ وقت مبكر إلى أن الحجر أكثر صلابة وتحملاً ، في البداية كانت هذه الآثار حكراً على الملوك ، ثم ما لبث كبار رجال الدولة ، ولا سيما رجال البلاط ، أن شادوا مقابر لهم على غرار مقابر ملوكهم لكنها في صورة مصغرة . ولسوء الحظ ، لا نعرف إلا الشيء القليل عن الموقع الأثري لمنطقة زوسر ، إذ لا يوجد أثر ولا نقش على الهرم ليمحو جهلنا ، ومع ذلك ويوصفه رمزاً للشعب أراد أن يمسك بالزمن فهو يجسد في ذاته فقط المحاولة الأكثر ضخامة للتغلب على الموت ، ولقد أخذت في اعتباري هذا الأمر ، وحكمت مسبقاً بأن هذه المقبرة وبشكل متناقض تواجه الموت وتبقى على الزمن منذ آلاف السنين في هدوء أبدي ومقدس .

لم يختر إيمحوتب هذا الموقع اعتباطاً فقد أعطت المجموعة الجنائزية انطباعاً بالجلال والمهابة لمن يرى منف من ذلك الزمان ، والتي كانت العاصمة التي يحكم منها زوسر ، ومثله مثل مايكل أنجلو وليوناردو دافنشي ، فإن إيمحوتب مبتكر عبقري أنهى عصر البناء بالطوب النيئ ، ومع ذلك لم يكن يعرف تصور الهرم وأوجده على طريقته بلا شك

بأسلوب تجريبي ، فقد وضع الواحدة فوق الأخرى من درجات الهرم حتى كوم أبحاراً شكلت أثراً مدهشاً مظهره الخارجى الفخم مكون من عناصر معدة مسبقاً ، فالهرم الحقيقى ، ذو الأربعة أضلاع ظهر فى عهد الملك سنفرى من الأسرة الرابعة ، وقد نشأت فكرة المقبرة الهرمية من الرغبة فى المشاركة فى العالم الساموى مع الآلهة والاتحاد الأبدى مع رع إله الشمس ، ويرى المصريون أن بقاء الـ "كا" (ka) هى الطاقة الحيوية فى الكائن الحى منذ ميلاده ، وأن بقاءها حية أمر أساسى ، واختفاءها يعنى الموت المؤكد دونما رجاء فى حياة فى العالم الآخر ، ومن ثم عملوا بالوسائل كلها من أجل بقاء الكا قريبة من جسد المتوفى ، ومن تلك الوسائل طقوس سحرية بالإضافة إلى التحنيط ، ويحفظ الجسد فى مكان آمن ، ويكون فى متناول الكا لكى تجد مأوى لها فتملأ الجسد بالطاقة الحية ، هكذا تحولت المقبرة "لبيت الأبدية" ، والميت المحنط يؤوى إلى الكا الخاصة به ليحيا من جديد شريطة أن يتلقى غذاءه عن طريق العبادة الجنائزية . وبما أن الأحياء كانوا ينسون غالباً أن يملأوا الغذاء ؛ فإن المصريين ابتكروا "السحر التقليدى" ورسوموا على الجدران فى المقابر كل ما يحتاجه المتوفى فى العالم الآخر من أغذية أبدية تكفل الراحة والهدوء للجميع . ومن ثم وُجِدَت النصوص الهيروغليفية فى المقابر والمناظر . أما اسم إيمحوتب فمعروف لنا بكل تأكيد ، ولكن لا أحد تكلم إن كان حقاً موجوداً ، وفى أى عصر بالضبط ، ويفضل الاكتشاف الذى قام به الرجل الذى التحقت به وهو سيسيل فيرث فى عام ١٩٢٤ ، والمتمثل فى قاعدة التمثال التى كانت مغطاة بالرمال عند مدخل بهو الأعمدة ،

والتي قرنت بين اسم إيمحوتب واسم الملك زوسر ، ونرى على هذه القاعدة أقدام الملك تطأ الأسرى وعلى واجهة الحجر ، اسم الملك مع اسم وزيره المهندس متبوعاً بكل ألقابه ، وأحد هذه الألقاب تشير إلى أنه كان له الإشراف العام على الأعمال الملكية المعمارية ، وأعمال النحت وكذلك تصنيع الأواني الحجرية ، التي هي مادة الصناعة الرئيسية في هذا العصر .

دخل إيمحوتب التاريخ بهذا الإهداء بعد أن ظل وجوده ولوقت طويل إلهاً أسطورياً ، والأمر غير المعتاد والمدمش في هذا النقش أن اسم المهندس المعماري يأخذ حيزاً كبيراً على القاعدة يفوق المساحة التي خصصت للملك ، وهو ما يعطى انطباعاً بأن إيمحوتب كان شخصاً غير عادي ومبتكراً عظيماً ، وهذا يفسر ذكره التي ظلت محفوظة وباقية لدى الأجيال التالية ، ومع أننا نادرًا ما نجد اسمه مكتوباً في الوثائق فإن سمعته ظلت عبر القرون ، وخلال عصر الأسرة السادسة والعشرين اعتُبرَ إلهاً ، ومن أجله نحتوا العديد من تماثيل البرونز التي تمتلئ جالساً ورأسه حليلة ، يرتدى رداءً طويلاً وممسكاً بلفة بردى على ركبته ، وبالنسبة للبطالة فإنهم رأوا فيه أصلاً مقدساً فجعلوا منه ابناً للإله بتاح ، والمؤرخ الشهير مانيتون ، الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد كرس له إهداء هو : " بسبب من علمه الطبى فإنه اعتُبر في مصر مثل إسكليبيوس ، وهو الذي شيد من الحجر المقطوع أثراً ورعى فن الكتابة . وأؤكد على أنه يعنى بالحجر المقطوع الأحجار المستخرجة من المحاجر ، والموضوعة في "مداميك" منتظمة كأنها طوب مصنوع ، وليس أحجاراً

خشنة من تلك التي نجدها منذ الأسرة الأولى . فمن أعمال إيمحوتب
العبقرية إخال الحجر في العمارة الجنائزية .

ولعل واحدة من المكتشفات الأساسية التي سوف أقوم بها على مر
السنين في ترميم آثار الملك زوسر هي أن هذه المجموعة الضخمة لم تكن
مكرسة للملك ، ولكن لـ "كا" الخاصة به ، فالمباني كانت مخصصة ببساطة
لـ "الحب سد" للملك ، أي لعبد اليوبيل الذي كانوا يحتفلون به هنا بشكل
رمزي ، لتجديد السلطة الملكية "لملايين المرات" وفي العالم الآخر .

ويجري الاحتفال بهذا العيد الذي يعود إلى عصور قديمة جدا وسط
جو خيالي ، ويسير وفق طقوس تنصيب الملك ، وقد كنا نعتقد ولوقت
طويل أن السلطة الملكية لا تمتد لأكثر من فترة واحدة مدتها ثلاثون
عاماً ، ثم يغادر الملك كرسى العرش أو يموت . وعن طريق خليط من
العادات البربرية المحتفظة ببقائها ، وتصور أكثر بشرية أضيف في
عصر لاحق ، استطاع الملك بدلاً من أن يترك العرش أن يجدد ظهوره
ملكاً لمصر العليا والسفلى بشكل ما كطقس فتوة ؛ الأمر الذي يعطيه
طاقة جديدة حتى يتابع حكمه .

شيد إيمحوتب إذاً مبنى ضخماً يتكون بصفة عامة من مبان رمزية
داخلها ملء بكتل حجرية ، وواجهاتها الخارجية تكفي لتذكر الكا
ومرافقيها من العالم الآخر ، ليستمروا في جولاتهم عبر طرق الأرواح .
وبعد مراسم الجنازة توضع القرايين ، ولا تتم أي مراسم أخرى في
المجموعة الأثرية التي أصبحت بذلك منطقة مثالية تماماً .

ومع استقرارى فى سقارة عام ١٩٢٦ لم تكن لدى فكرة محددة عن الموقع الذى طلبت للعمل به ، ولطمانتى فإن جوستاف جيكييه - وهو واحد من علماء المصريات البارزين فى هذا العصر - اصطحبنى فى عريته القديمة لعمل جولة فى هذه الجبانة الضخمة ، ومركزها سقارة ، وهو اسم قرية تقع على مقربة منها وتمتد مسافة خمسين كيلو متراً على حدود وادى النيل من أبو رواش شمال أهرام الجيزة وحتى اللشت جنوباً على طريق مصر العليا . وسقارة التى سوف تترك أثراً على حياتى ، تخذ اسم سوكار ، إله الموتى فى العاصمة الأولى لمصر الموحدة "منف" . وعن طريق هذه الوحدة، وفى ظل حاكم واحد وهو الملك مينا ، عندما اتحدت مملكتا مصر العليا والسفلى ظهرت البلاد فى التاريخ ، وفى عام ٣٠٠٠ ق.م. لم تكن تلك البلاد قد بزغت بعد . والآثار واللغة والفنون تبرهن على مدى تقدم هذه الحضارة ، ولكن لا توجد أى وثيقة للأسف لتكون شاهد عيان . ولكن ويفضل مانيتون الذى كتب باليونانية تاريخ البلد ، نملك معلومات دقيقة عن العصور المختلفة ، ومؤلفه "المصريون" ظل واحداً من مصادرنا الرئيسية التى منها نستمد معارفنا عن التاريخ وتتابع الملوك المصريين ، وعمل مانيتون الأصيلى فقدها فى حريق مكتبة الإسكندرية ، عندما استولى يوليوس قيصر على المدينة عام ٤٧ ق.م . أو وتبعاً لمؤرخين آخرين عند غزو عمرو بن العاص لمصر بعد ستة قرون لاحقة . وبمحض الصدفة وجدنا منها أجزاء عند المؤرخين اليهود والعرب ، خاصة المؤرخ اليهودى يوسف ، الذى استخدمه

للوصول لتبريرات دينية ، كما ترك اليونان و الرومان المغرمون بالعلوم والديانة والعادات المصرية شواهد تشكل ثروة ، ونعتمد عليها في فهم تاريخ مصر القديمة .

فمن كان زوسر ؟ إنه بلا شك ابن خع - سخموى ، آخر ملوك الأسرة الثانية ، ومن المفترض أنه حكم حوالى ثلاثين عاماً فى النصف الأول من الألف الثالثة قبل الميلاد كملكية مطلقة ، وقد أحرزت مصر فى عهده تقدماً على الأصعدة جميعها ، فبدأت مصر تنتقل لمرحلة جديدة فى تاريخها وتمثال زوسر الذى اكتشفه فيرث قبل وصولى يقول الكثير عن هذه الشخصية القوية الفخورة، فالوجه بشفتيه الفليفلتين وملامحه يشير لشخصية قوية ، وقد ترك الفرعون الشاب على آثاره اسمه الحورى "نثرى خت" أكثر قداسة من الآلهة أو مقدس الجسد" ، وحل محله فيما بعد اسم زوسر "المبجل" أو المقدس" . وبقي الاسمان ربحاً من الزمن دونما فهم للصلة بينهما .

ومعذ قرن من الزمان ، ومع الكشف الذى تم فى جزيرة سهيل تم العثور على لوحة تسمى "لوحة أعوام المجاعة السبعة" ، وهى تؤرخ بالعصر البطلمى وتحكى قصة أعوام سبعة لم يفض فيها نهر النيل . عصر أليم عانت فيه البلاد كلها من مجاعة رهيبة ، أمر زوسر عن طريق وزيره إيمحوتب بتقديم قرابين للإله خنوم ، إله الفنتين وسيد الفيضان . ورويداً بدأ النهر يفيض ، وفى إشارة لامتنانه أمر الملك بعباء لكل آلهة الإقليم النوبى

الممتد بين أسوان وتاكمبسو ، وهو إقليم تابع للتاج المصرى ، واسم نترى خت وألقابه كاملة مطبوعة باسم زوسر ، وهى تظهر منقوشة فى خرطوش على هذه اللوحة المهمة .

وفى هذه الحلقة يورد يوسف فى تاريخه عند الحديث عن سفر التكوين قصة إخوة يوسف وبيعهم له ، والعتور عليه فى مصر ، ووضعه فى السجن وتثويله أحلام السجناء ، قبل أن يستدعيه فرعون الذى كان يبحث عن نبوة تفسر واحداً من أحلامه . وهى الحكمة التى كان يمكننى أن أقولها لفرعون ، سبعة أعوام من الخير العميم سوف تعم أرجاء البلاد كلها ، ثم تدهم البلاد سبع سنوات من المجاعة . يفسر يوسف للملك الذى يجعله قائماً على أمر المؤن المخزنة لتجنب الهلاك خلال السنين السبع للبقرات العجاف ، ولقد تساطت لوقت طويل هل يوجد خلط فى العصر البطلمى بين التاريخين ؟

لقد استوعب زوسر الأهمية السياسية لمنف ، فجاء واستقر فى هذا المكان الاستراتيجى ، الذى يقع عند نقطة التقاء مصر العليا والسفلى . وتحسباً للوفاة فقد باشر فوراً العمل فى تشييد مقبرته فى جبانة سقارة ، وكلما كان عهده مديداً مجيداً أفاد أثره من ذلك ليصبح أول مبنى كبير شُيِّد فى البلد فوق رمال سقارة ، والحجارة الجيرية بهذه المجموعة بمنظرها الناعم الأملس ، والبناء المدهش بواسطة مونة لا ترى من الخارج ، تدعونا إلى التفكير فى أصل هذا الفن الأساسى ، وهو العمارة

فى هذا العصر الضارب فى عمق التاريخ. إن الملك هنا هو قلب الملكية، وينظر إليه دائماً على أنه إله ، وهو وريث حكمة آلاف السنين ، وهو الذى نجح بعد القلاقل والصراعات فى نهاية الأسرة الثانية فى أن يعيد الوحدة مرة أخرى ، وهو "الإله الطيب" الذى يعيش فى "البيت الكبير" (برعا) بالمصرية ، والتى منها جاءت كلمة "فرعون" ، وهو الذى عين إيمحوتب العبقري رئيساً لوزرائه .

القاهرة . الانطباعات الأولى

بعد لقائي مع لاکو حان الوقت لرؤية عائلة جاك هاردى ، والتي استقبلتني بحماس ابنة عمتي جين - وهى سيدة ذات جمال أخاذ ، ولقد علمت فيما بعد أنهم اختاروها بين أجمل جميلات القاهرة - قد أعدت حجرة داخل شقة رحبة كبيرة لإقامتى حتى زواجى . أما جاك فكان سعيداً حقاً لحصولى على هذه الوظيفة فى سفارة . ورغم إقامته منذ زمن بالقاهرة فإنه لم يكن لديه الفضول لزيارة أو معرفة الموقع الذى جئت للعمل به ، وعلى العكس من ذلك ، فهو يعرف جيداً كل شيء عن الاستعمار الفرنسى للقاهرة . رجل وسيم ذو ذهن حاد وأحياناً مراوغ نوعاً ما . كانت لديه القدرة على المزاح اللاذع جداً ، ومشوار حياته حافل ، ولقد جرح فى معركة شارلروا فى الحرب العظمى ووقع فى الأسر فى معسكر قضى به أغلب فترات الحرب .

ولكنه فى محنته هذه كانت تنتظره مفاجأة لم تخطر له ببال . وهى أن يرى فى هذا المعسكر أسرى مثله ، ومن بينهم اثنان من زملاء الفنون الجميلة : قدرى . يهودى مصرى التحق طياراً فى الجيش الفرنسى ، وعظيمة الذى أحرز فيما بعد جائزة روما ، وكانا مثلهما مثل هاردى

أشخاصاً غير عاديين ، ثم انتهت الحرب وتوطدت صداقتهم وقرروا أن يفتحوا مكتباً للمعمار معاً ، فبدأوا يشتركون فى مسابقات ، وفازوا بالفعل بإسناد تشييد مستودع عظام دوامونت إليهم ، وكذلك مجمع المحاكم المختلطة بالقاهرة . وتقدموا من وقت لآخر لجائزة روما ، وبقي عزيمة فى إيطاليا ، وسافر قدرى للقاهرة حيث لحق به هاردى . جذبته العاصمة اللامعة العالمية التى كانت تحت الاحتلال البريطانى ، والتى استقر بها ، والتى يعتادها نخبة من صفوة المجتمعات من المثقفين الذين جاءوا من كل أنحاء أوروبا ، وهذا المجتمع الذى يولى أهمية دائمة للأعياد والبهجة - مارس قواعد التقشف الإسلامية قليلاً .

رغم صغر سننى النسبى - فقد كنت فى الرابعة والعشرين من عمرى - لم أشاركه اعتياد هذه السهرات البانخة حيث الأميرات الشابات ، وكن يخرجن من السراى كأنهن شهرزاد الرائعة مرتديات الذهب متشحات بالبياض ، ولم يتغيب هاردى عن هذه الاحتفاليات التى يرتادها الصفوة فى لهو ويذخ ، وحدثنى عن ابنة عمى محاولاً إثارة فضولى .

كانت مصر تسبق جيرانها من البلدان بحوالى قرن من الزمان ، وتزهو بوجود قناة السويس ، وأثناء هذه السهرات كنا نجلس بجوار شخصيات معروفة من رجال الاحتلال الفرنسى ، مثل جورج فوكار ، المدير القوى للمعهد الفرنسى للأثار الشرقية ، بعد الوزير المفوض ، لأنه فى هذا العصر لم تكن هناك سفارة ولا سفير ، وكان فوكار الرجل الثانى لفرنسا فى مصر ، لكن الرجل لم يفعل شيئاً ذا بال فى الوسط العلمى ،

كما يشرح لى هاردي ، منذ انغماسه في الوسط المترف ، فلم يعد يفرق بين العمل والطيش ، الأمر الذي بدأ يسبب مشاكل للحكومة الفرنسية . وعندما حانت إجازته في عام ١٩٢٧ طلب إمهاله عدة أشهر ليتمكن من تزويج ابنته في قصر المنيرة الباهر ، مقر المعهد الفرنسي للآثار الشرقية IFAO ومقر إدارته منذ بداية القرن .

عند استيقاظي في صباح اليوم التالي قبل الفجر بقليل ، فهمت أنه الإسلام . ففي القاهرة ، ترتفع الأصوات ، عندما تنادي ألف من مكبرات الصوت في الوقت نفسه على الصلاة. قفزت من سريري الناعم، ثم عدت للنوم لأستيقظ هذه المرة على أصوات الكمان ، تعرفت عليها ، إنها أصابع ابنة عمتي جين ، تقيّة ومحبة للموسيقى . تبدأ يومها بقداس اعتادته كل صباح ، ثم تهب نفسها جسداً وروحاً لهوايتها الثانية الكمان ، حتى أنها لا تضيع وقتها في ضبط القبعة فتسرع إلى الحجرة التي بها الكمان الأثير ثم تبدأ في العزف ، هذا الطقس الثابت شمل العائلة كلها ، ولقد انتهى بي الأمر باعتياد العزف .

من المفترض أن أمضى أول يوم لي بالقاهرة مع لاکو ، واقترح على زيارة إرشادية للمتحف ، الأمر الذي أسعدني وتعجلت في اكتشاف الكنوز المعروضة في هذا المبنى الكبير ذي الطابع اليوناني الروماني ، والذي شيده في عام ١٩٠٢ مهندس معماري فرنسي وهو مارسيل دورنيون ؛ لاستقبال مجموعات الآثار المصرية ، والتي أتى معظمها من حفائر أوجست مارييت . ومن ثم وجدت لاکو كما كان بالأمس في مكتبه .

ولقد أثر في هذا الرجل أيما تأثير ، حتى أن ابتسامته كانت خالية من الحرارة ، الأمر الذي تركنى على خجلي . لقد أسر لي هاردي بأن لصيته الطويلة البيضاء وسلطته المستبدة جعلت علماء المصريين وموظفي مصلحة الآثار يعطوه لقب "الإله الأب" ، وعند سن الحادية والخمسين استطاع أن يكون واحداً من أبرز علماء المصريين العالميين ، مع أنه في البداية أبدى تردداً واضحاً تجاه فكرة الانغماس في هذا العلم .

طالب قديم في دار المعلمين أضحى مفرماً بالفلسفة بالتدريج ثم بالحضارات الشرقية ، وتعلم العبرية قبل أن يصبح تلميذ جاستون ماسبيرو الذي أُلح في إحضاره إلى مصر في عام ١٨٩٩ ، ولكنه لم يتحمل البلد في البداية ، ونظراً لصحته المتهللة وأعصابه الحساسة فكر في استكمال حياته العملية في فرنسا ، وخلف ماسبيرو في إدارة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية IFAO ، وأبدى تردداً في إمكانية إحرازه لشيء مهم في هذا المجال ، لكن أستاذة استمر في دفعه وتحفيزه بكل قوة حتى قبل العمل وانتهى تردده ، وجاء لاستلام عمله عندما اشتعلت حرب ١٨١٤ وبرهن على شجاعته . عاد لمصر بعد نفاخته من التهاب رئوي وخلف ماسبيرو في مصلحة الآثار مديراً لها ، ولكن وكما تنبأ فإن مهمته كانت ثقيلة وصعبة ، كان عليه أن يواجه المشكلة الشائكة - مع مشاكل أخرى - وهي مشكلة مقبرة توت عنخ آمون التي تحولت بالنسبة له إلى كابوس - أراد أن يطبق التوجهات الإدارية التي فرضها مارييت عندما أنشأ مصلحة الآثار في عام ١٨٥٧ ، والذي كان يمنع خروج آثار من

مصر . وأشعل لاکو حريقاً ، اختلف تماماً مع الأمريکان الذين ساعدوا كثيراً فى إزالة الرديم عن المقبرة ، وعادى الكثير من الإنجليز وعلى رأسهم هوارد کارتر الذى اكتشف لتوه المقبرة . أبدى لاکو تصلباً ، كان مصرياً أكثر من المصريين . رفض أن يرى الكنز الرائع بيدد وهو ملك هذا البلد ، ومنذ تلك اللحظة قضى ثلاثة عشر عاماً لم يعرف فيها طعماً للراحة . شهوراً وشهوراً يأتى رجال الصحافة من العالم كله يلاحقونه بالأسئلة ، ويحاولون اقتحام مكتبه لمعرفة تفاصيل ، ليس فقط عن المجموعة نفسها ، ولكن كذلك عن الأسلوب الذى اتبعه اللورد کارنارفون ، الثرى السخى الذى أفنى ثروته على مدار عشر سنوات فى البحث عن المقبرة . أما کارتر فقد كان شخصية شرسة . كان مهياً للتعامل مع النصوص المصرية القديمة ، فضلاً عن نصوص القانون . وقد قضى لاکو أياماً يعد وثائق قانونية وسياسية فيما يخص دعاوى رفعها المكتشفون ضد الحكومة المصرية ، ويوم إحالته للتقاعد فى عام ١٩٣٦ اعترف لاکو : "أجهز على توت عنخ أمون" وترك مصر بلا ندم .

وتحت قيادته خطوت أولى خطواتى فى قدس أقداس الحضارة الفرعونية ، على الرغم من أن المتحف كان ككهف على بابا مليئاً بالغبار ويتقصه الإضاءة الكافية والعرض غير منظم فإن هذه الكنوز أدهشتنى . وعلمت لماذا كرس لاکو جل جهده لكى يعرضها كما يجب . وتركت صالة المومياءات ولدى ذكرى مزعجة ، كانت برأسى القصة التى حكاها مالرو عن هذا الموضوع ، عند افتتاح المتحف فى عام ١٩٠٢

لاذ الموظفون الحكوميون الذين يرتدون الطرابيش والسترات الطويلة بالهروب ، وهم يصرخون فى هذا الجو الغريب بعض الشيء من مومياى رمسيس الثانى ، الذى بدا وكأنه يرفع ذراعه نحوهم ، والأمر هنا يتعلق بظاهرة بسيطة لكن مؤثرة ، التيبس فى مكان أو جو ليس به رطوية .

أما ما كان يوماً محل فخر لآكو فهو الصالات الجديدة المضافة لتضم مجموعة كنوز توت عنخ آمون : "قال لى بعض من سبقنى إنه كان سيزيل بعض الأعمدة أو التماثيل الضخمة ، أو ينشر بردى ، أو يشيد فسيفساء ، أو يضع فى المخازن لوحات ونقوشاً ، لكن ما كان يشغلنى هو ألعاب الطفل الفرعون وأسرته وملابسه الداخلية، وستائره ومقاهيره المذهبة التى تضم تابوته وعصيه وجواهره ، وعرباته المستخدمة فى التزهات أو العربات الحربية أو صور الآلهة الحارسة له عند نومه ، وأصبحت مؤتمناً على مئات الكيلو جرامات من الذهب وكهوف التوابيت الخشبية ، كنز أدهش المصريين كلهم ، ابتداء من الملك وحتى أبسط الفلاحين" .

بالخارج وفى حديقة المتحف ، توقفت برهة أمام مقبرة مارييت ، الأب المؤسس للمتحف ، مثله مثل لآكو سار ضد التيار، وقضى حياته من أجل أن تحتفظ مصر بتراثها ، ومن أجل هذا الرجل الشجاع قدمت الحكومة المصرية التحية فى عام ١٨٨١ ، جنازة مهيبه كأنها جنازة ملكية، واحتراماً لرغبته فى أن يتركوه مدفوناً بالقرب من المتحف ، والذى يعد إنجاز حياته الأبرز . يتمدد مارييت فى تابوت فخم من المرمر الأبيض يعلوه تمثال من البرونز، "أقدمت مصر منذ زمن على تدمير آثارها والآن

تحترمها ولعلها غداً تحبها" ، هكذا خطى مارييت فى كلمته فى افتتاح كاتالوج أو متحف افتتح فى بولاق فى عام ١٨٥٨ .

بعد قرن ونصف من الزمان أتسامل إذا ما كان المصريون توصلوا إلى أن يحبوا آثارهم ؟ عندما أفكر فى الصعاب التى واجهتى على مدى هذه السبعين سنة التى مرت بى فى سقارة أشك فى هذا أحياناً . إن المشكلة تكمن فى ترتيب السلالات وفى الحقيقة إن العرب لم يستقروا فى مصر سوى فى القرن السابع ، ديانتهم وثقافتهم مختلفة تماماً ! فلم يشعروا إطلاقاً بأى صلة تربطهم بالحضارة الفرعونية التى اعتبروها نتاج شعوب حقيرة من عبدة الأوثان ، وبعد أن حطموا أعداداً كبيرة من الآثار، فهموا اليوم أن المنفعة المباشرة التى يمكنهم أن يربحوها من هذا التراث تترجم فى أرقام بملايين الدولارات ، ومن ثم يهيئون لهذا الأمر المواقع الأثرية ، فهناك طريق سريع يؤدى إلى وادى الملوك اليوم يسمح بمرور مئات الأتوبيسات ، وكذلك أصبحت هناك سلام لتيسير صعود وهبوط السياح الزائرين وهبوطهم للمقابر . أما إعادة افتتاح مقبرة نفرتارى زوجة رمسيس الثانى للجمهور فهو خطأ ، فكان يجب أن يترك الفنانون الإيطاليون يعملون فى هذه المقبرة عشر سنوات لترميمها فيجب حماية الألوان التى تتأثر بثانى أكسيد الكربون الناتج من تنفس مئات الزائرين يومياً . ومن ثم واحد من أجمل أعمال فن الرسم الملون مهدد بين عشية وضحاها بالاختفاء ، وكما رأيت أمثلة مشابهة لمقابر بها رسومات ملونة بسقارة اختفت وضاعت الآن .

ألف ليلة وليلة

تجسد لى القاهرة الإسلامية القديمة الصورة التى يمكن تلمسها للشرق الذى طالما حلمت به ، فلقد اكتشفتها قبل الآثار الفرعونية ، لأننى كرسيت أول يوم بعد زيارة المتحف للتجول فى الحى الفاطمى ، وقد نصحنى هاردي بالتجول أولاً حتى ساحة القلعة ، حيث ترى المدينة كلها من عل فى مشهد لا نهائى ، يمتد فيما بين الصحراء وشطآن النيل المكسوة بالخرصة ، والهواء كان نقياً كالهواء عند الأهرام الثلاثة ، وهى أهرام خوفو وخفرع ومنقرع ، ويحيط بهم هالة من الغبار الذهبى الشكل المرسوم بدقة ، يا له من مشهد عظيم ، مع الوقت اختفت الهالة كلية من الأفق ، وغطت عليها العمائر الفوضوية التى تزحف أكثر فأكثر فى الصحراء . من هذه الساحة حيث المشهد البانورامى الرائع ، كنت أرى المدينة القديمة كلها من أمامى ، المنازل بسقوفها ذات الشرف ، والقباب الكثيرة ، ومآذن المساجد التى ترتفع فى الفضاء كأشعة مراكب ، لم أفحص عددها ، لكنهم يزعمون أن عددها يفوق الثلاثة آلاف . كل يحكى تاريخ مصر الإسلامية ، وفى مقابل هذه البانوراما التى كأنها السراب ، وقعت فى غرام هذا البلد .

خلال هذه العقود لم يتغير شيء من المشاهد التي تنور في الشوارع العربية، ولم تبح بأسرارها كلها، مناظر تصيبك للوهلة الأولى بالصدمة، إنهم يذبحون يوماً الخروف أمام بوابة الحجيج الذين يعودون من مكة ، هنا بوتقة بداخلها خليط من المعتقدات والخرافات ، هذه المدينة القديمة أعطتني إحساساً بعالم ثابت لا يتغير مغلق في عصر وسيط أبدي ، حملة المباخر يمرون كل صباح يطلقون البخور لاصطياد الأرواح الشريرة وللإتصال بعالم الموتى ، نترك الشمع الأسود يحترق طيلة اليوم أمام بوابة الموتى .

وأجد سعادة كبيرة في التسكع عبر الشوارع الضيقة ، حيث أترك نفسي أتمشى بشكل عفوي تقودني الروائح ، ويا لها من روائح تبدأ من روائح منتنة لا تطاق ، من شارع المدابغ وحتى روائح العطار ، ثم من وقت لآخر أتقابل مع التاجر المتجول الذي يحمل قدراً تفوح منها رائحة أشياء مقلية أو لحم مسلوق ، والتي تختلط برائحة القانورات المتعفنة في مجارى الماء في الهواء الطلق . أحب أن أترك نفسي أتوه وسط هذه الشرايين التي تعج بكل شيء ، متاهة حقيقة بالنسبة لعضو جديد مثلى ، حيث تتداخل العربات ذات الأذرع وعربات النقل المغطاة والحمير والجمال ، أو تحت أسقف وقتية لحال صغيرة خربة متلاصقة الواحد بجوار الآخر .

اقتنع المصريون فقط منذ عدة أعوام بجمال مدينتهم وانطلقوا بمساعدة اليونسكو في أعمال ترميم معتبرة ، فبعد أن تركوا المئات من

القصور والمنازل ذات المشربيات تتهدم ، يحاولون الآن إنقاذها كلما أمكن ذلك وتحويلها لمتاحف . كان للفرنسيين دور الريادة فى إنقاذ التراث المصرى ، وذلك منذ حملة نابليون بونابرت على مصر فى عام ١٧٩٩ ، فبعد العمل الكبير لعلماء الحملة المصرية "وصف مصر" ، وصل شامبليون - الذى فك رموز الهيروغليفية - بمصر لإقناع الباشا محمد على بالإقلاع عن تدمير الآثار المصرية . وأخذ الراية من سابقه العبقري مارييت الذى أنشأ متحفاً يضم الآثار التى تخرج نتيجة للحفائر . كان يلزم هؤلاء الرواد سنون وسنون ؛ من أجل إقناع مصر بأن تحتفظ بتراثها .

لقد درست قليلاً العمارة الإسلامية ، لكنها كانت المرة الأولى التى أواجه فيها هذه الآثار . حتى وإن بدا لى أني المعمارين المسلمين لم يأتوا بالجديد إلا أننى كنت منبهراً . هل تحولت المعابد القديمة لمساجد وأبراج الكنائس لمآذن ؟ لكن عبقريتهم جاءت قبل كل شيء من استلهم هذا . نحس بحيوية الإسلام ؛ هذه الديانة التى تسيطر هنا على الأرواح ، ويلخص هذا المسجد وبخاصة مسجد السلطان حسن أسفل القلعة ولو أن مظهره الخارجى يبدو كحصن مرصع بالمرمر متعدد الألوان . وفى الداخل يتميز ببساطة فى الفن وأضواء الفضاءات الداخلية التى تقود لقدس الأقداس خافتة . أسلوب بارع لكى يشعر المؤمنون بالمسافة الفاصلة بين الإنسان والإله .

المئذنة الأقدم والأكثر كمالاً من الناحية المعمارية من وجهة نظري هي مئذنة مسجد ابن طولون ، وهي عمل رائع من القرن التاسع ، والتي قاومت بمعجزة أعمال التخريب الكبيرة التي جرت في عهد محمد علي ، الذي حول المسجد لمستشفى ، وكذلك تغلبت على الزلازل ، وبقي المسجد من أفضل المساجد ذات البوائك المشيدة في مصر ، ويحتفظ بتأثير بيزنطى ، وقد رُمِّمَ بشكل جيد ، وعلى الرغم من كثرة الخرسانات بمدينة القاهرة ، فإنه المسجد الوحيد - وهذا غريب - الذي يمكن أن نميزه تماماً عندما ننظر إلى المدينة من أعلى القلعة ، فهو هنا قابع في بهاء يغالب عواذى الدهر .

بعد عبور خان الخليلي ، هذا الخان غير العادى بمحاله ، سوق يروق للسائحين ارتدائه ، ويغزونا سريعاً انطباعاً بأننا ندلف إلى عالم آخر ، الأزقة التي تصل حتى الأزيكية والتي أضحت منذ زمن طويل المكان الأثير لدى الأوروبيين ، هذه البحيرة القديمة التي نضب ماؤها بنهاية القرن التاسع عشر ، تحولت طبقاً لأحلام بوناپرت على يد مهندسين فرنسيين إلى جنة خضراء ، مستلهمين حدائق بت شومون في باريس ولكي يحولوا بين المصريين وهذا المسطح الأخضر والمتنزه الجميل شيّدوا أسواراً عالية ، تلك التي هدمتها الثورة عام ١٩٥٢ بعد سقوط الملكية . وتجنّ الطبقة الراقية من المجتمع لتلعب هنا التنس أو لتذهب إلى السينما . والشرفات بالميدان المجاور تكتظ بشباب من عليا القوم ، وعرفت سريعاً أن نعومة الحياة كانت قاصرة على الأوروبيين ،

ولا يحق إطلاقاً أن يرتاد المصريون هذه الأماكن ، وهم الذين يطالبون منذ سنوات بالاستقلال ، والفجوة بين العالمين تتسع بشكل جلى ، بحيث نستطيع التنبؤ برياح ثورة على وشك الهبوب ، وعلى الرغم من انسحابى من العالم إلى سقارة، فإننى سرعان ما فهمت أن تطور هذا البلد لا مفر منه ، على الرغم من أن الطبقات المالكة لا ترغب فى تصديق ذلك .

الأهرام

حتى هذه اللحظة لم أشاهد من الأهرام سوى ذلك الذى رأيت من أعلى القلعة ، تبدو من بعيد فى صورة أشكالٍ مثلثة مرتفعة فى الفضاء كأنها ألغاز عتيقة ، واستطعنا بدقة تمييزها ، تلك التى تقف منذ ما يربو على الخمسة آلاف عام راسخة على الأرض ، مهيمنة على المكان الذى يتفرع عنده النيل مكوناً دلتا .

منذ اليوم التالى لوصولى للقاهرة ، وتحت تشجيع لأكو ، الذى جعل فى خدمتى سيارته وسائقه الخاص ، وصلت الجيزة لكى أتأمل بإعجاب من قريب هذه الآثار التى تدل على جرأة معمارية وتمكن فى الوقت نفسه . لقد استيقظت مبكراً لاكتشافها عند شروق الشمس ، وعند مغادرة المدينة كنت مندهشاً من الضباب البسيط الأبيض الذى غشى وادى النيل .

الطريق الواصل حتى الأهرام قد أنشئ فى عهد إسماعيل باشا قبل افتتاح قناة السويس فى عام ١٨٩٦ بقليل ، وكان جزءاً من أعمال عظيمة بدأها كيما يقدم صورة معاصرة لبلده أمام المدعوين ، وهم بالآلاف جاءوا من كل مكان من العالم بهذه المناسبة ، تحت قبة تكونت من

أشجار الأركالبتوس والأكاسيا كان يمتد هذا الطريق بمحاذاة النهر ، وكانت الخضرة تحيط به من جانبيه . بدا لى أن الرومانسية سيطرت على مشيديه . لقد وقع إسماعيل فى غرام الإمبراطورة أوجينى أثناء زيارته لفرنسا . ولأنه كان مقرراً أن تزور الإمبراطورة مصر بدون الإمبراطور ، فكان على إسماعيل باشا أن يصطحبها لزيارة الأهرام ، وطلب الباشا أثناء التشييد أن يكتموا السر ، وأثناء المسير ستقع الإمبراطورة بين ذراعيه ، لا يروى التاريخ هذه الرغبة المحمومة ... وما يمكن تأكيده اليوم أنه لا يمكننا أن نتخيل ، ونحن نرى هذا الشارع الذى يعج بالزحام والسيارات والتلوث والشاحنات ، ما كان عليه يوماً ما من سحر ورومانسية .

وكان لدى الحظ كذلك أن أرى الأهرام وهى تتبثق من وسط الضباب الذى ينقشع رويداً رويداً مع أشعة الصباح الباكر ، ثم وهى تأخذ اللون الوردى لانعكاس الأشعة الأولى للشمس عليها صباحاً ، ويمكن أن نضيف إلى هذا المشهد السحري فيضان النيل الذى يغمر المكان . كل هذه البانوراما اختفت للأبد عندما بدأوا فى عام ١٩٣٦ فى تشييد تعلية جديدة فى أول سد بأسوان .

كثيراً ما تأخذنى الدهشة وأنا أقف بجوار قاعدة هذه الأهرام ، وهى كجبال عملاقة من الأحجار ، أى عقيدة خلود ، أو أى إرادة بقاء ورغبة فى الانتصار على الموت تلك التى سيطرت على هؤلاء ؟! أفكر فى هذا وأتذكر كلمات شاتوبريان : "ليس اللحد ذلك النصب الذى يعلن نهاية

المطاف ولكنه الحد الذى يبدأ عنده الدخول إلى حياة بلا نهاية ، فهو بوابة للأبدية ، مشيد على حدود الخلود . أمام خوفو ومليونين وخمسمائة ألف كتلة حجرية والتي ترتفع نحو مائة وستة وأربعين متراً ، ونقول فى أنفسنا إننا لم نشيد على مدار خمسة وأربعين قرناً من الزمان مباني شاهقة هكذا ، وضخمة هكذا : وعلى مدار قرن فقط ، تجمعت أهرام احتوت ثلاثين مليون كتلة حجرية ، كيف شيدها؟! لازمنى هذا السؤال طيلة حياتى .

الاهتمام بالأهرام ، بالطبع ، خطوة تفرض نفسها بالنسبة لمهندس معمارى ، وما يدهشنى خاصة ، هو كيف تأتى لأناس مثل هؤلاء حديثى عهد بالبناء ولأول مرة يشيدون فى تاريخ البشرية ، أن يشيدوا مبان صعبة ودقيقة وضخمة ، لدرجة نعجز معها نحن فى العصر الحديث بكل وسائل التكنولوجيا التى لدينا . جوستاف جيكييه ، أستاذى فى الآثار المصرية كان أول من لفت نظرى وحفزنى لمواجهة هذه المشكلة الشهيرة للأهرام . أحذرك من كل المجهودات التى ذهبت أدراج الرياح ، قائلاً عن سر الأهرام الغامض : "شكل الأمر بالنسبة لمعظمهم لعبة أرواح وخيال ، وألح أن هذا لا يستحق الدوى الذى أحدثوه بعملهم هذا ، ولكن أحذرك من أسلوب كهنوت تدعمه تبريرات ذات شكل علمى " .

درس بقى معى طويلاً وبخاصة بعد دراسة أول الأهرام إطلاقاً وهو الهرم المدرج ، ثم بعد ذلك بدأت أطنأ باقى المواقع الأثرية فى سقارة حيث الأهرام الأخرى ، هرم وسركاف ، وهرم ونيس ، وهرم تتي ، وببى الثانى ...

من عصور مختلفة . ثم استقر بى المطاف فى الجيزة ، فى محاولة لإيجاد إجابات شافية للقضايا التى تطرحها هذه المباني العملاقة من الحجر . وكنت الأول الذى يتصدى لهذه الدراسة ، فى عام ١٩٤٨ نشرت "مشاكل أهرام مصر" ، كنا نعرف أن الأهرام هى مقابر ، الأمر الذى جعل المصريين يكرسون هذا المجهود الضخم لتشييدها ، والاعتقاد الراسخ أن بقاء الجثة سليمة يعتمد على أمرين أساسيين : حفظ الجسد سليماً من أى تلف ، وإمداده بما يحتاجه من مواد . وظل هذا الاعتقاد ولم يتغير رغم مرور ثلاثة آلاف عام من التاريخ المصرى .

وحاولت أن أقف على النظريات كلها التى تناولت هذا الموضوع ، سواء أكانت رياضية أو فلكية أو إنجيلية فيما يتعلق ببنائها وبنائها ، وبدأت أوجه النظريات المجردة الموجودة من قبل "قلمى بيدي" ووضعت نفسى ببساطة مكان المهندس المعماري المصرى القديم الذى صمم هذه الأهرام ، فالمعماري ليس رجل رياضيات يتسلى على الورق برسومات متنوعة ولكنه يدرس النسب ثم يحاول إحكامها وضبطها على أفضل وجه ، فلا يحاول حل مشاكل هندسية ، ولكن أن يجعل تخطيطاته تقف على الأرض والعمال الذين سينفذونها يفهمونها ، وهكذا عند دراسة هرم خوفو بهرت ، فلقد فكر هؤلاء فى أدق التفاصيل ، سُمك المواد اللاصقة على سبيل المثال دقيق جداً ، لدرجة لا يمكن تلمسها ، ومن الصعب تخيل كيف وضعوا كتلاً تزن عدة أطنان فى أماكنها من البناء بكل دقة ، وعند كسوته أصبح الهرم فى هيئته الكاملة ، وكان عليهم أن يقدروا حجم البناء حتى يستطيعوا

تمثل " أشعة الشمس التي يصعد الملك عليها ليدلف إلى عالم السعداء ،
"فيتحول لطريق صاعد من الضوء ، ومن ثم يغدو هو نجم فرعون" .

ويبقى السؤال ، ماذا فعلوا ليضعوا هذه الملايين من الكتل التي تزيد
عدة أطنان في أماكنها وعلى هذا القدر من الارتفاع ؟ إنه لشيء يصيب
بالدوار . ومع ذلك فليست الأهرام من إنجاز العبيد المسخرين في أعمال
البناء ، ولكن كما عندنا في كاتدرائياتنا من العصور الوسطى ، هو عمل
من شعب بأسره ، من أجل رضى إلهه وهو الفرعون ، لقد ترسخ لدى
هؤلاء الناس اعتقاد عميق بأنهم سوف يلتحقون بالأبدية مع فرعونهم ،
وسوف يساعدهم ويمددهم بما يحتاجون في العالم الآخر . وبالنسبة للأسلوب
الدقيق الذى اتبعوه ، رغم كل الافتراضات والاحتمالات ، يبقى الغموض
مسيطرًا تمامًا . عالم الآثار أودران لايروس ، والذي يعمل منذ سنوات
في هرم ببي بسقارة قال ذات يوم كلاماً وأظنه محقاً : "إذا ما عثرنا غداً
على وسيلة تمكننا من بناء الأهرام ، فلا يجب أن نعتقد أن المصريين
القديما قد اتبعوا الطريقة نفسها ، لأننا لا نملك أى دليل على ذلك .

بعد زوسر ، رغب كل فرعون من فراعين الدولة القديمة في أن
يكون له مقبرته في شكل هرمى . لكن لم يجرؤ أى منهم على تشييد
مجموعة جنازية كمثيلتها لدى زوسر ، والتي أبدعها العبقري إيمحوتب .
لا شك لم يجد البعض الوقت والمكان لكى ينجز ما كان يأمل فيما يتعلق
"بالقر الأبدى" . لقد حدثت فجوة في تشييد الأهرام خلال عصر الانتقال
الأول ، ثم عادت على استحياء في عصر الدولة الوسطى ، ثم تكون شيئاً

من التراث العتيق، لكن لم تعد فخامة المعمار ولا رمزية الهرم الدينية كما كان عليه الأمر فى النوبة القديمة ، وذات يوم اختفت تماماً من مصر . وهكذا ، وبعد أن كانت الرغبة معانقة الشمس ، فإن الفراغة رضوا بأن يدفنوا فى مقابر فى باطن الأرض . نعرف الآن أربعة وثمانين هرمًا معظمها أطلال الآن .

ذات صباح عندما اكتشفت واحداً من أجمل المواقع الأثرية فى البلد الذى ساقضى به حياتى ، لم أستطع مقاومة الرغبة فى التسلق حتى قمة الهرم ، ومنذ اختفاء الكساء الخارجى للهرم أضحت الكتل عارية وشكلت سلماً ضخماً يقود إلى القمة فى خمس عشرة دقيقة ، وكان هذا التسلق ممنوعاً منذ عدة سنوات وذلك مخافة السقوط - وكذلك حفاظاً على الأحجار ، وهذا المتظر الفريد يجعلك تطل من هذا الارتفاع على المشهد الرائع ، فالنيل شريط يجرى ملتوياً وسط مسطح أخضر ، وعلى مبعده ، القاهرة يغمرها الضياء . بعد الحرب تسلقت الهرم مع ولدى من الناحية الشرقية منه ، وفى لحظة قلت فى نفسى "مع كثرة الحفائر لم يعثر أحد على معبد الهرم" وفجأة ، تفحصت الأرضية ، مدهش ! نعم ! إنه تخطيط معبد ذلك الذى يتبدى من تحت الرمال : نزلت مسرعاً لأننى لم أصدق عينى ، على الأرض تبقت آثار معبد ، وبنينا انتظار أسرع لمقابلة دريوتون الذى حل محل لأكو منذ وقت قصير على قمة مصلحة الآثار المصرية لكى أحيطه علماً بهذا الاكتشاف ، وقد أجابنى "حسن ! ارجع وارفعه أنت بنفسك !".

أراد ولداى بيير ودانييل أن يصطحباني ويتسليا بمساعدتى . ومن الغريب أنه لم يعر أحد اهتماماً للجانب الشرقى من هرم خوفو . نعلم أن أغلب المعابد قد تهدمت ولم يتبق منها شيء فوق سطح الأرض ، ويفضل الأثريون العمل فى المقابر ، حيث توجد النقوش والمناظر ، أما أنا فعلى العكس من ذلك فلم أهتم سوى بالآثار وعمارتها .

الخطوات الأولى نحو الأبدية

من نافذة القطار السريع الذى نقلنى فيما بعد إلى سقارة ، كنت أنظر الضوء الشاحب، ويتكشف المنظر بالتدرج عن جمال أصيل ، وكنت حقاً سعيداً . وأثارنى كثيراً أن أجدنى فى الموقع الذى طالما حدثوننى عنه . فى الصباح حزمت حقائبي وودعت أقاربي لأذهب لمحطة القاهرة ، حيث قطار الصعيد الذى سوف يصل بى إلى قرية البدرشين ، على مبعده ثمانية كيلو مترات من سقارة ، النيل يجف عند إغلاق أبواب سد أسوان ، وقد شيد هذا السد عام ١٩٠٢ ؛ لينظم الفيضانات التى تكون عنيفة عادة ، وعلى الرغم من انخفاض منسوب النهر ، كنت أرى مجموعات من الأشجار يغمرها الماء ، والنهر يطرح غرينه المغذى للنباتات والذى يغطى البراعم ، وكان يدهشنى سرعة نمو النباتات بعد موسم الجفاف ، فالمزارعون يسرعون ببذر الحب فى الأرض الطينية قبل أن تجف . فيضعون هذه الحبوب فى حفر ناتجة عن أثر سيرهم فى الطين ، والذى فيه تغوص أرجلهم حتى أعلى الفخذين ، وبعد أسبوع تخضر الأرض ، وتنشئ الحياة المتجددة نشيدها على ضفاف النيل ، فمصر بلا فيضان النيل فقدت كثيراً من سحرها .

كنت أشاهد القرى المبنية فوق تلال بسيطة ، والنيل يتلوى فى جريانه كأنه شريط من الفضة بين أشجار الأكاسيا والجميز وأشجار الأثل . وتلهو بين الفصون هنا وهناك الأطيّار والعصافير . هذا المشهد هو نفسه ما رأيته فى الكتب التى تذكر عبر لوحات فنية ما كان موجوداً فى مصر الفرعونية . وبعد نصف ساعة وبالقطار البخارى المزعج وصلنا محطة البدرشين ، وأخرجت رأسى من النافذة لأتأمل المشهد ، زحام شديد وفلاحون بجلابيبهم الزرقاء يتدافعون ، جموع تحاول الصعود وأخرى تحاول الهبوط وسط صخب وودود . كل محمل بأشياء مثل أكياس أو أقفاص دجاج ، وبعض السيدات المحجبات يجرين بطول القطار يبعن البرتقال والخبز. جلت بنظري أبحت عن سكرتير سيسيل فيرث ، لم أكن أعرفه لكننى رأيت مصرياً يتجه نحوى، تعلق وجهه ابتسامة ويغطفى رأسه طربوش ، ألقى التحية بانحناء شديد ، وبعث اثنين من الحمالين لينقلوا الحقائق ، ووضعوها فى عربة كانت تنتظر بعيداً عن الزحام ، قبل أن أبعى للصعود لأجلس بجوار الحوذى فى هذه العربة الصغيرة الإسبرطية ذات العجلتين ، ولم يكن العجل سوى إطارين من المعدن ويجر هذه العربة حصان نحيل ضعيف ، وتحرك أخيراً وغادر المحطة ودلف إلى القرية ، والبدرشين بلدة كبيرة تختبئ تحت أشجار نخيل كثيفة ، والشارع الرئيسى الذى عبرناه وسط ركام من الحمير والأطفال كان حيوياً جداً ، الفلاحون منتشرون أمام منضدة بضائع مبرقشة ، وتجار يتجادلون على عتبة حوانيت متواضعة ، ونكاد نجد أنفسنا على الأرض بين الحين والآخر لوعورة أرض الطريق غير الممهّد ، منذ عدة أعوام أراد مخرج إنجليزى

جاء يصور فيلماً عن قصة حياتي ، أن يستعيد لحظة وصولي للبرشين في هذه العربة ذات الحصان ، وعندما رأنا رئيس المحطة نبداً في استعادة لحظة وصولي للمحطة ثار قائلاً إن محطته ليست معمولة من أجل تصوير أفلام .

على مشارف القرية أشجار النخيل التي تحيط بالبحيرة ، تلك التي جفت بعد الحرب بسبب وباء الملاريا ، وفي الماء الذي يميل للسمره جاموس بعيونه البارزة المستديرة ، ولا نرى منها إلا خطمها وجزءاً من سلسلة ظهرها ، وإسذاجتي ، اعتقدت أن ما أرى هو تماسيح ، وبدا لي أنها جاءت من المياه الأفريقية .

تابعت هذه العربة طريقها عبر الريف الغني بالأكاسيا والخروع والسنت وعيدان اللوتس ، وعند الاقتراب من نخيل منف يسير الطريق متعرجاً ، بين تلال من الركام المتبقى من العاصمة القديمة حتى آخر ما كان يصله الفيضان . أشار سكرتير فيرث إلى تمثالين ضخمين تحت النخيل معبدتين في الرمال . لرمسيس الثاني الذي حكم ستين سنة في مجد وعظمة ، ولم يتبق هنا إلا هذان التمثالان لملك أراد أن يقهر الزمن ، وبعد ذلك بعدة سنين شاركت في نقل أحدهما (الجرانيتي)، واحتاج هذا المشروع إلى مئات من الرجال واستخدام رافعات لتحريك هذا التمثال الضخم الذي حمل إلى القاهرة ، ويقف الآن في الميدان أمام محطة السكك الحديدية، حيث يعاني من التلوث والشهرة كذلك ، بدلاً من خيئته تحت الرمال . ورأينا وجه التمثال الآخر من الألباستر ، وكذلك جذع التمثال ، ولاستكمال الكشف عن التمثال المختبئ تماماً ، كان يجب أن

نعتلى فوق صدره ، الأمر الذى لم يحدث منذ أن وضعه المصريون فى مخبئه لحمايته من عوادم الزمن .

شيد زوسر قصوراً من الطوب النيى والخشب وأعواد الغاب فى العاصمة منف ، ولم يتبق من ذلك شىء إطلاقاً لأنها كانت مبنية من مواد ضعيفة لا تقوى على المقاومة مع مرور الزمن ، ومن جهة أخرى لم يهتم المصريون برؤية منازلهم تبقى طويلاً ، فقط مقار الأبدية الخاصة بهم التى ستحمى الجسد وتضمن له حياة مستمرة فى العالم الآخر ، ومن ثم ليس لدينا أى نموذج لبنى من مبانى المدينة ، ومنف العاصمة نفسها ، عاصمة المملكة المهمة لمدة قرون ، ومن أهم مدن البلد ، لم يتبق منها شىء كذلك ، وكل معلوماتنا عن هذا الأمر جاءتنا من المؤرخين والرحالة . كان شامبليون سعيداً بما رآه من بقايا عند زيارته فى القرن التاسع عشر "كتل الجرانيت على الأرض ، والتى تزحف عليها الرمال رويداً رويداً ، تظل شاهداً على ما كان لهذه العاصمة من بهاء فى مبانيها ، وكان هنا المعبد الشهير للآلهة بتاح ، مركز المدينة المدهشة وروحها ، والتى ظلت حتى فى أواخر أيامها وفى لحظات تدهورها بنهاية القرن الثانى عشر الميلادى محط إعجاب "عبداللطيف" ، هذا المؤرخ الذى كتب فيما يتعلق بمدينة منف : "بقاياها تقدم لمن يتأمل ضميمة من العجائب تربك العقل" .

الجزء الأجل والأهم من العاصمة الكبيرة كان يمتد فيما مضى ، حيث توجد اليوم البدرشين وقرى ميت رهينة وقصر النفرنج ، وفيما يتعلق برحلته فى الصعيد ، قال أوجست مارييت عن البقايا التى رآها

فى عصره ، لا توجد مدينة كان قدرها كقدر هذه المدينة ، فلقد كانت فيما مضى المدينة الباهرة ، مصدر فخر مصر، تبهر العالم بعدد مبانيها وفخامتها ، ولم يتبق منها اليوم حتى بقايا ، وهكذا يتحقق قول إرميا النبى "آيتها الابنة التى تسكنين مصر استعدى لمن سوف تخدمينه أثناء أسرك ، لأن منف ستتحول لصحراء" (إرميا - ٤٦ - ١٩) .

سنترك الأرض الخضراء لنقتحم الصحراء ، وفى لحظة يستدير فريقنا نحو الشمال ، وعلى بعد كيلو متر هناك سد صغير يفصل سقارة عن أبى صير، وبعد هنية تطلعت فوجدت على مد البصر الهرم المدرج ، وفى عمق المشهد نجد عمل المهندس العبقري إيمحوتب ، وهو المجموعة الجنائزية المبنية كلها من الحجر عند مدخل الصحراء ، وبرؤية هذا الأثر لم أستطع له مقاومة ولا لجاذبيته دفعاً ؛ فاعتزنتى فنة وملأنى فضول بلا حدود . لا أستطيع الحديث عنه اليوم من جديد دونما تأثر شديد . فقد كان عنيقاً ما أستشعره فى داخلى بلا شك ، إن يوم ٢ ديسمبر من عام ١٩٢٦ سيغير مجرى حياتى . وقد كنت مؤمناً جداً لكى أتخيل أن الصدفة وحدها هى التى قادت خطاى وسط أطلال آلاف السنين هذه . وفى غضون ساعات وجدت نفسى أغوص فى عالم آخر وحياة أخرى .

ملكة ببي

لم يكن بيور بخلدى فى عام ١٩٢٦ ، عندما عملت مع جوستاف جيكييه بموقع الملك ببي ، أننى وبعد مرور أربع وسبعين سنة سوف أشارك فى اكتشاف غير عادى بذات الموقع ، فى الثانى من أبريل من عام ٢٠٠٠ استخرج أودران لابروس تحت أعيننا الجاحظة من الدهشة تابوت الملكة عنخ سن ببي الثانية ، شخصية أسطورية من الدولة القديمة .

وكانت هذه مكافأة سخية مع قضاء أكثر من ثلاثين عاماً من العمل فى الموقع ، وكانت من نصيب فريق جون لوكلان ، وهو حالياً السكرتير الدائم لأكاديمية النقوش والفنون الجميلة . فى الفترة الممتدة من يناير وحتى مايو من كل عام يعمل أودران بالحفائر ، ومع الباحثة اللامعة فى اللغويات كاترين برجيه فى موقع الأسرة السادسة ، على مدار عشرة أعوام وهم دائمو البحث عن هرم زوجة الملك ببي الأول ، وأخيراً فى عام ١٩٩٧ اكتشفوه بجوار قاعدة الهرم الملكى ، مدفوناً على عمق خمسة أمتار تحت الرمال ، كتلة من الجرانيت ١٧ طناً ، وكنت حاضراً ذاك اليوم وسعيداً مثلهم تماماً .

وكان اكتشاف المقبرة مهماً ، ولكن الأكثر أهمية كانت النصوص ، والأهمية الخاصة لمحتواها أن أعمال مارييت فى ١٨٨١ وأعمال جيكييه فى ١٩٢٦ عثرت على نصوص فى هذه الجبانة الشاسعة ، لكننا لم نعث من قبل على نصوص فى مقبرة زوجة ملكية من عصر الدولة القديمة . أن تتمتع الملكات بطقوس ، كانت منذ قليل حكراً على الفراعنة ، يبرهن على مرحلة مهمة من "حالة الديموقراطية" التى سادت هذا العصر فى ممانسة طقوس الأبدية ، وهذه سوف تجد طريقها لمعظم المصريين فيما بعد ، وسوف يعجل هذا سقوط الدولة القديمة ، والنقوش داخل هذا الهرم محفوظة بشكل تام تقريباً وذات جودة نادرة ، فهى محتفظة بألوانها ، وخاصة الأخضر رمز البعث .

تغيرت الحياة فى بر مصر بعد الحرب العالمية الثانية ، زوجتى وجدت نفسها وحدها فى سقارة ، وابناى واصلا دراستيهما فى مدرسة بالقاهرة ، وعندما قررت زوجتى مغادرة مصر نهائياً فى عام ١٩٤٧ مع أبنائنا الثلاثة ، بقيت وحدى لسنتين طويلة فى هذا الفضاء والوحدة ، وبقيت وحدى حتى الستينيات ، عندما أصبح عندى القليل من الأصدقاء من جديد، ثم جاء عالم المصريات جون لوكلان ليستقر معى ليكمل عمل أستاذه جون سانت فرجارنو بعد الأعمال المهمة لجيكييه ولاكو حول نصوص أهرام ببي الثانى ، والتى تساعد كثيراً فى دراسة الكتابة واللغة المصرية القديمة ، ويبدو ضرورياً مباشرة دراسات مشابهة فى ثلاثة أهرام أخرى من الأسرة السابعة ، وهى أهرام كل من تتى وببي الأول ومرينر ،

لكن صالاتها الداخلية كانت مهدمة بسبب أعمال التحجير التي كانت تتم في العصور الوسطى ، حيث يأخذون الأحجار من هنا لاستخدامها في البناء والتشييد بالقاهرة ، واللافت للنظر أنه عندما تزور الآثار المشيدة في هذا العصر ، مثل بقايا المدينة القديمة ، تظهر نقوش فرعونية على الجدران ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

كان علينا أن ننتظر عام ١٩٥١ ، ووصول جون سان فارجانو إلى الموقع لبدأ العمل في الحفائر بالأهرام الثلاثة ، وكنت شخصياً مكلفاً بإزالة الرديم وتقوية الآثار من الداخل ليصبح الدخول إليها ميسراً ، وهذا عمل محفوف بالمخاطر فيمكن أن يتهدم الممر فوق من بالداخل إذا حدث أقل خطأ ، فكان على أن أباشر أعمال بناء بالطوب لزيادة صلابة الجدران قبل أن نضع مكانها الكتل التي تحتوي على النقوش .

ولم نستطع أن نعمل كثيراً في هذا الاتجاه ؛ لمشاكل عرضت فجأة بين مصر وفرنسا ، أمر ناصر بعد لحظات من استيلائه على السلطة في ١٩٥٤ - المقابل بإرسال البعثات الأثرية المصرية لتقوم بأعمال حفائر في الأرض الفرنسية؛ طلب أذهل الحكومة الفرنسية وبالتالي رفضته ، وبين عشية وضحاها أغلقت كل مواقع الحفائر ، ولم تكن لدى الرغبة في انتظار اقتراض انفراج الأزمة بين البلدين فقامت بزيارة جاري الجديد في سفارة ، رئيس مجلس الدولة السنهوري باشا ، الذي شيد منزلاً صغيراً بالقرب من منزلي يأتي إليه لقضاء عطلات نهاية الأسبوع ، وبيننا علاقات ممتازة فهو مهتم بأعمالي ، وبدأت أعالج المشكلة

بدبلوماسية ، فقد أوضحت أنني أعمل فى بعثة فرنسية مصرية وأمثل فيها الجانب المصرى ، وأوضحت له أن فرنسا لا تنتظر أى شىء من هذا العمل سوى النتائج العلمية ، فلم يكن ذا معنى أن تأخذ نصوص الأهرام ، فالهدف هو وضعها فى مكانها فى الهرم . وبعد عدة أيام أبلغونى بالموافقة بإمكان العودة للعمل .

كان الرحيل المبكر للسيد سان فارجارنو هو الحدث المفجع فى عام ١٩٦٣ فقد أحدث لى هذا الرحيل ألماً كبيراً ، فكنت أحس بكثير من المحبة لهذا الرجل المفيد والطيب جداً ، فقد وصل للمعهد الفرنسى للأثار الشرقية IFAO بدلاً من شارل كوينتز ، شخصية غير محبوبة ، والذى استبعد كل معاونيه ، حتى عام ١٩٥٩ ، عندما ترك وظيفته ، وكان على فارجارنو أن يواجه صعوبات جمة وقفت أمام المعهد المهدد بالاختفاء على يد السلطة المصرية ، ويفضل مثابرتة وذكائه فى مفاوضات الجانب المصرى استطاع أن ينقذ المعهد الفرنسى للآثار الشرقية IFAO الذى استطاع معاودة أنشطته .

أثناء هذه السنين من الإضرابات السياسية توقفت الأعمال فى أهرام الأسرة السادسة ، ثم كان جون لوكلان الذى أخذ على عاتقه مسئولية استئناف هذا العمل الضخم ، وبعثت له برسالة على الكرنك حيث كان يعمل منذ سنوات ، أشرح له مرة أخرى أنني أجد نفسى وحيداً فى سقارة ، وأنتى فى حاجة إلى متخصص فى اللغة لنسخ النصوص ، وكانت هذه مشكلة كذلك ، وكنت على يقين أنه إن لم يسرع

فرنسى ليلتحق بى فى هذا الموقع الكبير ، وهو الجبانة المنفية ؛ فسينقض الإنجليز عليها من جديد ، وترك لوكلان الكرنك الذى كان محط اهتمامه لياتى ليتعامل مع نصوص الأهرام ، وكنت سعيداً أن أجد فى هذا الرجل ، الذى كنت أعرفه آنذاك قليلاً وكان أصغر سنًا منى ، أقول كنت سعيداً أن أجد فيه رفيقاً مدهشاً ، مرحاً دائماً ، ومتعاوناً ولطيفاً ومستعداً للتكيف مع ظروف معيشة صعبة .

بعد أن استقر سافرنا لزيارة الفيوم ، على بعد حوالى ساعة إلى الجنوب من سقارة ، إقليم جميل وظل لوقت طويل حديقة مصر الغناء . بدأنا فى إزالة الرمال عن فوهة هرم بيبى الأول ، وهنا بدأ الأمر مشروعاً صعباً ، فقد تطلب الأمر بالفعل عدة سنوات لتقوية ما بداخل الأثر ، ثم نعود للجبانة لوكلان ، وأنا كل يوم بعد الظهر حول أطلال هرم بيبى الأول ، وذات يوم دفعنا فضولنا للنزول حتى الحجرة الجنائزية عبر دهليز منحدر وضيق ، وزحفنا تحت سقف من كتل الجرانيت التى كان يمكن أن تتهدل فى أى وقت ، ووصلنا بهذه الحالة إلى أعتاب الحجرة الأمامية ، وبددنا الظلام بلمبات الزيت وهالنا ما وقعت عليه أعيننا ، كتل جيرية ضخمة متهدمة وأجزاء من جدران وكتل أخرى خلقت جواً كأننا فى عشرين ألف مكان تحت البحار . فلقد كنا فى كهف على بابا الملىء بالكنوز . أغلب المستويات من النصوص تكسرت ووقعت على الأرض وكنا نعلم أن أقل حركة قد تعرضنا لانهار مروع للأثر - وكان يلزمنا رفعات لوضع كل شئ فى مكانه لتستعيد الحجرة سماءها ذات النجوم وسحرها .

موقع عمل جديد بدأ ونحتاج فيه لعمال كثيرين ، يقسمون إلى مجموعات ، يمررون فيما بينهم هذه الأجزاء الكبيرة من الحجر ، والتي تصنف بالتوالي وترسم وتصور ولا نستطيع وحدنا أن ننجز هذا العمل الشاق . لوكلان وابتداءً من السبعينيات ، شرع في تكوين فريق عمل من حوله يضم أودران لابروس وكاترين برجيه وإيزابل بيير . ثلاثة من علماء المصريات الكبار الذين ساعدوه في وضع كل الأجزاء في مكانها من الجدران بالتدرج ، وأمضوا سنوات مضية في هذا العمل ، وبإعادة هذه النصوص لمكانها الأصلي ، لم يكف لوكلان ولا فريقه عن ترديد اسم بيبي الأول وإحياء اسمه بالتالي ، وهو الأمر الذي لطالما تمناه الملك كما هو مكتوب في نصوص هرمه .

أودران مثله مثل مورجان وجيكيه عمل في إيران ، وشارك في العمل في قصر فارس في موقع في سوس ، أثناء إعداده لكتوراه الدولة عن عمارة الأهرام ذات النصوص (الأهرام التي على جدرانها الداخلية نصوص منقوشة) في الدولة القديمة ، ومن ثم كان مطلوباً للعمل في أبحاث لوكلان ، وبالنسبة لكاترين وإيزابل فكانتا متخصصتين في اللغويات ، ويمرور الوقت أصبحنا أسرة واحدة نجتمع كل شتاء تحت سقف منزلي ، بينما يسكن أودران الأتلييه الذي كانت تشغله زوجته ، وكانت سيدة المكان ، تسهر على إدارة المنزل وكنت سعيداً لوجودهم ، وكنت متعلقاً بهم جداً وهم كذلك كانوا يحسون الشيء نفسه تجاهي ، وكانت كاترين تلاحظني عن قرب ، وتصدت للمشاكل التقليدية كحجز تذاكر

الطيران أو اختيار السائق ليقودنى للقاهرة ، وكان هذا يروق لى وكان أن تعايشنا باحترام كبير ، احتفظت بحجرتى التى كنت أسكن فيها مع زوجتى ميمى والتى تطلع على النخيل ، وحتى وإن تغير الديكور فإن الذكريات لا تمحى ، وفى آخر الصالون مكتبى الأخضر الصغير وهو أثرى حقاً فهو هنا منذ عام ١٩٢٧ .

ومع أن أشياء كثيرة قد تغيرت منذ ذاك العام فإن ظروف العمل لم تتغير كثيراً ، فالذين يقومون بالحفر ينهضون مع الفجر ، والمنزل قارس البرودة شتاء لعدم وجود مدفئة إلا تلك التى دشنها أودران فى الصالون ، وهذا أفضل قليلاً من تلك الأيام التى قضيناها أنا وزوجتى ميمى حيث كان الموقد ، وكان هذا لتدفئة أغطية الفراش بعض الشيء ، وكان هذا مهماً للقدرة على مواصلة الحياة بروح معنوية مرتفعة وكان الإفطار فى صالة الطعام ، ويقوم بالخدمة شابان من السفرجية (خدم المنزل) الأوفياء ، ثم سائق البعثة الأثرية الفرنسية فى سقارة يأتى ينتظر هذه الأسرة بسيارة المصلحة ؛ ليقودهم إلى موقع العمل فى هرم ببي .

بعد دراسة استغرقت حوالى عشرين عاماً لمبانى الفراعنة ببي الأول ومرينرغ ، بدأ لوكلان وفريقه بحث آثار زوجات هؤلاء الملوك على أمل اكتشاف نصوص أخرى ، فالموقع مازال به الكثير ، مئات العمال يعملون به ، نشاط لم أعده منذ أيام فيرث وعملنا حول الهرم المدرج . يرتدى هؤلاء العمال الجلابيب المعتادة والعمائم ويعملون تحت رياسة حسين ، رئيس العمال الذى بدأ عمله تحت إدارتى ، أى منذ حوالى خمسين عاماً ،

والرجل أسطورة حية محبوب جدا من العمال ، ويشكلون معاً عائلة كبيرة ، وهذا يفسر فى جانب منه لماذا يسير العمل فى الموقع بشكل جيد ، وكذلك بفضل أودران الذى يعلم كيف يدير الحفائر إدارة الأستاذ ، وهو موهوب ، ولعلى أقول إنه كان مثل أوجست مارييت فى زمانه ، لديه معول حفر مثنى ليسهل نقل الرمال ، وصنع مثمما صنعوا فيما مضى مسارات تسير عليها العربات التى يدفعها العمال لينقلوا الرديم والرمال . وكان العمال يتعرفون على بطاقيّة الصيادين ، أما أودران فهو معروف بقبحة ذات تصميم يرجع للشرق الأقصى ونظارته السوداء ، أما ما تغير حقاً فهو أساليب الجس الأثرى ؛ عن طريق أجهزة تخبر إذا ما كان تحت الرمال آثار أم لا . وفى عام ١٩٨٨ تمت اكتشافات مهمة بفضل أجهزة EDF ، فالفيزيون الذين أرسلتهم فرنسا إلى الموقع استخدموا أساليب اصطناعية حديثة ، منها عدة أساليب جيوفيزيكية للسطح وكهرومغناطيسية وتحليلات مغناطيسية وقياس كهربائى واستخدام التردد الإشعاعى ، وهكذا ظهر مبنى مكون من ثلاثة مداميك موجود فى الزاوية الجنوبية الشرقية من هرم ببي الأول وهو من الحجر الجيري ، ولوكلان رأى فى هذه النتائج أهرام ملكات أحدها إلى الغرب والآخر فى الوسط والثالث فى الشرق ، وهذه الاكتشافات تمت فى الواقع بعد ذلك ، لأن لوكلان كان يعلم بوجود أهرام ملكات من حول هرم ببي ، ولكن بفضل هذه التقنية وفر سنوات من البحث ، وبمنتهى الإثارة بدأ فى فحص الهرم الأول الذى ظهر ، وهو هرم ملكة الغرب الذى مازال اسمها غامضاً .

وبعد الأعمال الطويلة ، كنا محظوظين عندما عثرنا في الحجرة الجنائزية على الفائض من القماش ، وأدوات صغيرة من الخشب ، وبقايا فازات من الألباستر منقوش عليها هيروغليفي بخط جميل ملون ، أما الشيء الأكثر تأثيراً فكان صندوقاً من الخشب المذهب كانت ترتديه الملكة . فإذا كنا مازلنا نجهل اسمها فنحن نعرف مقاس حذاءها ، قدم صغيرة ، لعلها كانت فاتنة .

عند جوستاف جيكييه

على حدود الصحراء ، نزل الحوذى على الأرض ، وغاصت العجلات فى الرمال ، والحيوان المسكين لا حول له ولا قوة ، ومن ثم نزلت وأكملت الطريق على قدميْ رغم اعتراضات سكرتير فيرث . أخيراً وعند قمة الهضبة ، لحت بيت جوستاف جيكييه ، وتراه من بعيد يقف فى الفراندة حيث كان يجلس مع زوجته ، وجاء لمقابلتنا . والبيت مبنى من الطوب النئى ، متواضع جداً فى قلب الصحراء ، ومن الشرفة نستمتع بمنظر رائع ، وحتى وإن لم تعد معظم الأهرام سوى أطلال . وأخذتني هذه الرحابة وتلك الضخامة .

بدأت لى عائلة جيكييه سعيدة لاستقبالى ، فقد حملت معي بعض التغيير على وجودهم الحاد الصارم . حمل جيكييه حقائبى ووضعها فى حجرة صغيرة عتيقة لكنها تفتح مباشرة على الصحراء . وهنا سأمضى شهراً حتى ينتهى مقررى المصيرى فى سقارة . بلحيتة البيضاء وعيونه المرحية ، بدأ جيكييه شخصية حاضرة الذهن وكريماً ، وإذا صوت خفيض وهذا كله لم يترك شكاً فى الدلالة على أصوله ، فهو سويسرى من نيوشاتل ، ينحدر من عائلة كبيرة برجوازية ، وهو يبلغ من العمر ثمانية

وخمسين عاماً وما يزال يباشر الحفائر بشكل يبعث على الإعجاب . ولقد بدأ مسيرته كأثرى فى إيران مع جاك دو مورجان ، وكان منه مقرباً وله صديقاً ، ثم جذبته مصر فبدأ فى الحفائر فى سقارة لحساب المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، وكان مهتماً بالعمارة المصرية فى الدولة القديمة ، وعلمنى الكثير ، وكان ودوداً معطاء مما ساعدنى على استكناه علم المصريين الذى أراه أمامى . كان عام ١٩٢٤ عام رحيل دو مورجان ، وكان قد عهد إلى جيكييه بجبانة سقارة الجنوبية ، واستطاع أن يصل إلى حجرة معينة الشكل ، ولأنه لم يكن لديه المعدات للوصول إلى الحجرة العليا ، فقد نقل العمل إلى مصطبة فرعون ، وهو أثر فريد أسماه بهذا الاسم سكان القرى المجاورة ، والاسم يعنى "مقعد فرعون" ، هذه المصطبة الضخمة على شكل تابوت ترجع للأسرة الرابعة ، ونسبها جيكييه إلى الملك شبسيسكاف . ابن منكاورع وأول عمله هو إزالة الرمال من المدخل ، تلك التى كانت قد أخفته بعد أعمال مارييت الذى استخدم الديناميت لعمل طريق إلى المدخل . ثم قام جيكييه بعمل التقويات اللازمة للمنحدر الهابط بطول بهو المدخل ؛ لجعل الدخول لهذه المقبرة ممكناً . وقد أرانى كل ما يحيط بالأثر من بقايا ، أسوار من الطوب النيبى ، ومعبد الجنائزى ، وطريق أبى الهول الذى يصل إليه ، والكسر المنقوشة التى جعلته ينسب هذا الأثر للملك شبسيسكاف .

وأفهمنى الاختلاف الجوهرى بين أن تطلب إلى "الريس" ، أى رئيس العمال فى الموقع ، أن يحفر فى هذا المكان أو ذاك فقط ، وبين أن بنفسه

الأعمال حتى فى أدق التفاصيل ، ويرفع التخطيطات مع توالى الاكتشافات ويعمل عليها فى الوقت نفسه على أرض الواقع ، وهذا عمل لم يكن معروفاً فيما مضى . هكذا علمه جاك دو مورجان . واصطحبني جيكييه على مبعدة مائتى متر من هنا إلى موقع هرم بى الثانى ، الذى بدأ لتوه فى عملية التنظيف وإزالة ما حوله ، ولم أكن أتخيل فى تلك اللحظة أنني - وبعد مرور أربعة وسبعين عاماً - سأشارك فى افتتاح مقبرة والدة هذا الملك الذى حكم قرابة مائة عام . الملكة غنخ إس إن بى الثانى . والشئ الذى لم يدرك لنا بخلد هو ما احتواه هذا الهرم .

عاش مارييت يعتقد أن الأهرام كتلة "صامتة" كان أول من دخل هرمًا بسقارة يحتوى على ما أسميناه فيما بعد بنصوص الأهرام ، وكان ذلك عشية وفاته ، ولسوء الحظ لا ندرى شيئاً عن عصر كتابة هذه النصوص ، فلعلها كانت أقدم نصوص عرفتھا البشرية ، فهذه صيغ سحرية وترانيم وطقوس أو قوائم قرابين ، هدفها الوحيد تأمين حياة أبدية للمتوفى .

فى عام ١٩٢٦ كان أول عمل عهد به إلى جيكييه أن أنفذ الرفع الأثرى من حول مجموعة بى الثانى الجنائزية ، فلقد اعتبرني هكذا وفوراً مساعداً له . ولم أكن أقل فخراً بهذا ، فلقد خلفت فى هذه الوظيفة عالم المصریات البارز الأمريكانى داوس نونهام ، وقد علمنى هذا العمل أن أكون قوى الملاحظة ، حيث يجب تحديد مكان كل حجر بدقة وأفحص

بعينى أدق التفاصيل وأتفهم أهمية أقل علامة ، ويجب أن أعترف أنني في البداية شعرت بالإشفاق على نفسي مما ينتظرني أمام هذا الأثر الضخم ، وأدهشنى صلابة البناء ، ترتيب العمل يومياً كان متغيراً ، أذهب للموقع بعد تناول إفطارى مع جيكييه ، وأتسلل إلى داخل الأبهاء السفلية لأصل إلى الحجرات الداخلية بأحجارها الكبيرة ، ودرست الصلات المقبية ذات الكتل الجرانيتية الضخمة ، وكنت أفحص كلاً على حدة بالنقوش التي تظهر، وكنت أشعر بسعادة حتى أنني كنت لا أحس بالمجهود البدنى الشاق . وفترة وجودى فى الصحراء فى ديسمبر ، الجوايلأ شديد البرودة ، ونهاراً شديد الحرارة خاصةً عندما تكون الشمس فى كبد السماء ، لكننى تعودت على ذلك سريعاً .

جوستاف جيكييه لم يأخذ إلا يوماً واحداً إجازة أسبوعياً ، ومعظم الوقت هو حبيس منزله جالساً على مكتبه يحرر التقارير الخاصة بالحفائر ، أحياناً ما يقبل أن يصطحب زوجه إلى القاهرة وكنت أفيد من هذه الفترة من النهار لأزور المواقع الأثرية فى ما حول سقارة ، والباديكار (المرشد السياحى) الذى قدمه لى أبى كان مفيداً لى ، هذا المرشد المعتد والذى حرره عالم المصريات الألمانى شتايندورف ، فهو يحتوى وصفاً دقيقاً للمواقع الأثرية ، ومثل كل المواقع فإن الحفائر توقفت أثناء الحرب العالمية الأولى ، وطبعتى لعام ١٩١٢ كانت سارية ومعاصرة ، فلم يحدث أى اكتشاف ذى بال فى أى موقع منذ ذاك التاريخ (١٩١٢) ، فيما عدا بالطبع اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون فى

عام ١٩٢٢ ، وبعد ذلك بخمس سنوات استمر هوارد كارتر فى العمل بها ، ولاكو أخبرنى أنه انتهى بتفريغ الحجرة الجانبية من المقبرة ، وكان متذمراً من تدفق السياح الذين جعلوه يفقد الكثير من الوقت .

صعب الآن تخيل ما لا يقل عن ثلاثة عشر ألفاً من الزوار أسرعوا فى عام ١٩٢٦ إلى وادى الملوك على أمل زيادة المقبرة الخاصة بهذا الفرعون الصغير ، لم يتحمل كارتر هؤلاء ، وكاميراتهم وآلات تصويرهم لكن كان عليه أن يكون ذا قلب كبير ، خدمة لهذه الكنوز لأن غضبه كلفه عاماً قضاء فى إنجلترا ، وكان عليه أن يحصل على تصريح من لاكو للعودة للعمل . وكان يلزمنى بعض الوقت لزيارة الصعيد ، وواتتنى الفرصة سريعاً فى عام ١٩٢٧ عندما دعانى هنرى شيفرييه ، الذى كان يعمل منذ عام بالكرك لزيارته .

لكننى كان لى الكثير لاكتشفه ، هنا حيث أعمل . ذهبت ذات يوم لرؤية هرم ميدوم . فقد شرح لى جيكييه أن الأثرى الألمانى لوفيج بورخارت اكتشف لتوه بقايا منحدرات ، ربما كانت تستخدم أثناء عملية البناء ، وهذا الافتراض دافعت عنه فيما بعد ، مفضلاً المنحدر الوحيد المتعامد على إحدى واجهات الهرم والتي تمكن من الاتصال بكل الأجزاء بسهولة ، لكن إذا ما كان هذا الأسلوب سهل الاستخدام فى تشييد الأهرام الأقل حجماً ، فإنه يصبح غير عملى فى حالة أهرام عملاقة كهرم خوفو .

هرم ميدوم أثر غريب الشكل ، شيده سنفرو ، الأب المؤسس للأسرة الرابعة ، له شكل خاص جداً ، يبدو كهرم مدرج ولكنه مكسو من الخارج ، وسقطت كسوته الخارجية على الأرض . وطبقاً لبعض الباحثين كان هذا نتيجة لكثرة معمارية فى كل العصور تلك التى جعلت الهرم يعرى تماماً من كسائه الخارجى . أثناء فعاليات مؤتمر علم المصريات الثامن ، الذى شاركت فيه بالقاهرة فى نهاية مارس عام ٢٠٠٠ ، أعلن باحثان هاويان اكتشاف حجرتين ويهوين وكلها سليمة لم تمس داخل هذا الهرم فى ميدوم . ولسوء الحظ كانت هذه الصالات فارغة ولا تحتوى نقوشاً . ولم يأت هذا الاكتشاف بجديد بالنسبة لنا . لكن الأمر المثير هو أن تدخل أماكن لم يدخلها أحد منذ ٤٧٠٠ عام . وسنحت هذه الفرصة عندما تسللنا أنا وفيرث إلى داخل المقبرة الجنوبية بالهرم المدرج .

كان لى من العمر أربعة وعشرون عاماً وكنت جاهلاً أنظر بإعجاب لهرم ميدوم ، منذ تشييده اعتبره العالم الإغريقى من بين عجائب الدنيا السبع ، وهو رمز مصر ؛ أرض الأسرار بين البلاد كلها ، حيث العديد من الآثار لحضارة ذات صيت ، وهى الأكثر قدماً ، وتربطنا بالأصول الأولى البشرية ، ولكى تشعر بهذا يجب أن تقف بجوار الأهرام وياحبذا فى ليلة مقمرة وسماء مزدانة بنجومها ، فهذه الأهرام بأحجامها الضخمة تبدو لا نهائية وواجهاتها وأضلاعها تتلاشى وتختفى فى اللانهاى .

ميمى

ميمى هى زوجتى منذ إحدى وسبعين سنة ، فلقد تزوجنا فى الأول من أكتوبر ١٩٢٩ فى باريس ، اتحاد طويل جدا يصعب تصويره اليوم وسط عالم سرعان ما ينهار ، فلم يعوبوا يتزوجون ، هم يتحدثون اتحاداً ما ، وعندما لا يرغبان فى رؤية بعضهما يترك أحدهما الآخر ، فلم تعد توجد تلك الإرادة التى كنا نتمتع بها والتى تجعل المشاعر والأحاسيس تستمر حية دافئة ، وأرى هذا شيئاً محزناً جداً .

والذى أعطى زواجنا قوة هو الاحترام العميق الذى يكنه كل واحد لحرية الآخر ، فلم تعترض ميمى إطلاقاً على اختيارى البقاء فى سقارة ، ولكن فضلت العودة لفرنسا ، ومنذ تلك اللحظة لا نقضى سوى أربعة أشهر معاً كل عام ؛ لأننى أعمل باقى الأشهر فى سقارة ، ولم يباعد بيتنا هذا الفراق الجسدى . فى مثل عمرنا يجب الاعتراف أنه تسلية كبيرة أن نكون قريبيين ، وأتمنى أن تنتهى أيامى بجوارها .

لسوء الحظ ميمى فقدت بصرها تدريجياً فى السنوات الأخيرة وعانت من ذلك كثيراً لكنها أبدت شجاعة مدهشة ، شجاعة لمالما تحلت بها تحت أى ظرف أثناء حياتها . فقد البصر ابتلاء شديد أليم لم نعتده

خلال ثلاثين عاماً ، كانت قرية من عالم المكفوفين ، فلقد كانت مسئولة عن مؤسسة فالتين - هوى ، ولم تتخيل أنها ستعيش ذات يوم هذه المحنة . بعودتها للاستقرار فى فرنسا بعد الحرب قررت بحسم أن تركز وقتها لمصلحة المعوقين ، وتحدثت عنهم إلى مدام لاكو مساعد عمدة الدائرة السادسة عشرة، التى كانت مسئولة عن الشؤون الاجتماعية، وبناء على نصائحها ذهبت ميمى إلى جمعية فالتين - هوى لكى تقرأ للمكفوفين ، وسرعان ما لاحظت أن هؤلاء الذين لا يمكنهم الرؤية لهم احتياجات أخرى وتعايشت مع مشاكلهم ، وأصبحت على رأس مصلحة المساعدة ، وقررت أن تساعد المستبعدين على العودة لأحضان الحياة . ويشكل متطوع تماماً حاولت أن تجعل من حياة أولئك الذين يعيشون فى ليل دائم حياة بشرية طبيعية . وأنجزت عملاً جليلاً .

كان لها من العمر عشرين عاماً عندما قابلتها عام ١٩٢٧ ، وكنت ولداً خجولاً ، وجذبني إليها خفة دمها وروحها المرحية وبشاشتها الدائمة مما جعلها جذابة . ولها نظرة للحياة والناس مليئة بالسخرية والتهكم مما شدنى كذلك إليها . ومسار حياة كل منا لم يكن ليلتقى بمسار الآخر ، فلم يكن مقدراً لى أن أتى للعمل فى سقارة ، وهى كذلك لم يكن مقدراً أن تأتى مارجريت الصغيرة إلى مصر . والاهما ببيير جوجيه ، عالم دراسات هليلستية وأستاذ فى السوربون ، لم يكن هناك ما يدعو لأن يصبح مديراً للمعهد الفرنسى للأثار الشرقية بالقاهرة . الذى أنشئ مثله مثل مصلحة الآثار بمبادرة من أوجست مارييت . هاتان المؤسستان كان يديرهما فرنسى ، وتهتم كل منهما بعلم المصريات ، ولكن شيئاً فشيئاً تنافستا

بعد اختفاء مارييت ، وخشية أن نرى إدارة مصلحة الآثار تتقلت من بين أيدي الفرنسيين ؛ أنعش ماسبيرو تطور المعهد الذى كان يسمى المدرسة الفرنسية بالقاهرة ، كأخت صفرى لمدارس أثينا وروما ، لتصبح فى عام ١٨٩٨ المعهد الفرنسى للآثار الشرقية IFAO وأخذ ماسبيرو بزمامه .

وقد استطاع المعهد أن يتغلب على أزمة كبيرة أثرت على صورته ، وذلك كان فى عام ١٩٢٧ عندما اندلع التنافس بين علماء المصريين ، ورأت الحكومة المصرية أنه من الأفضل أن تستبدل بالمدير الحالى آخر من غير علماء المصريين ، ووقع الاختيار على جوجيه ، رجل بنبل شخصيته استطاع أن يقضى مؤقتاً على الاختلافات الداخلية .

ويوصفى موظفاً فى مصلحة الآثار كان من اللائق أن أذهب لأقدم التهانى للمدير الجديد للمعهد الفرنسى للآثار الشرقية IFAO ، الذى فى عام ١٩٢٨ جاء ليستقر مع زوجته وأبنتيه ، وانتهدت فرصة وجودى فى أحد الأيام بالقاهرة وذهبت لقصر المنيرة حيث استقبلنى جوجيه استقبالاً حاراً ، واندعشت عندما رأيته ، فهو رجل قصير القامة ، وفى عينيه يلمع الذكاء الوقاد ، وكل هذا مع طيبة تشع من شخصيته ، فى مكتبه بقيت تحت تأثير سحر هذا العالم الكبير . وخلال عهده انتعشت الحفائر الفرنسية فى مصر كما لم يحدث من قبل ، وكان يعشق استضافة الصفوة من العالم كله وأضحى قصر المنيرة بفضلها مكان لقاءات دولية .

وبعد أن ترك مكانه لشارل كوينتز فى عام ١٩٤٠ استمر فى مصر ، فقد اقترح عليه المصريون شغل وظيفة أستاذ كرسى التاريخ بالجامعة فى الجيزة ، حيث استمر يدرس حتى عشية يوم وفاته . وعندما أصبح ديجول رئيساً مؤقتاً لحكومة الجمهورية الفرنسية فى عام ١٩٤٥ كان جوجيه أول من ساندته بالقاهرة ، وطالب بأن يجعله مستشاراً ثقافياً فى بيروت وأثينا والقاهرة .

أتذكر ذات اليوم ١٨ ديسمبر ١٩٤٨ عندما كتب إلى والدى : "هنا حماك تسلم لتوه ميدالية المقاومة ، وكان هذا غريباً لأن هذه الجائزة لا يحرزها إلا المحاربون وليس أشخاصاً مثله ، لكنه كرس كل جهده ووقته لقضية تحرير فرنسا ومن ثم استحق هذا الشرف ، وهذا هو رأينا ورأى من حوله كلهم".

عند خروجنا من حجرة وفاة بيير جوجيه الذى توفى منذ لحظات بعد إصابته بسرطان عن عمر يناهز الثمانين عاماً ، وصديقه جاستون ويت تغم قائلأ : "كان أكثر من طيب وكان لامعاً" ، وهذه كلمات لا ننساها أبداً ، وكان ذلك فى عام ١٩٤٩ . ميمى تأثرت جداً بوفاة والدها وبالرسائل التى وصلتتها من العالم أجمع تنمى "الرجل ذا الروح العظيم ، الطبيب والمضاييف ، الذى يتسامح يوماً أمام ضعف الآخرين ، ولا يتهاون مع نفسه إذا ما أخطأ ، خدم بشكل رائع قضية الإنسانية والعلم" . لقد جاء المئات لكى يودعوا جثمانه المسجى ، جثمان عالم الهلينيستيات الكبير ، عضو أكاديمية النقوش والفنون الجميلة ، لم يتردد فى المطالبة مثل

جاكسين نو روميلي اليوم سيستأخر العالم وسيفقد ذاته إذا ما أدار ظهره لليونان .

أحب حمای مصر حقًا ، حتى وإن اعترف أحيانًا أن هذا البلد سياي علينا ، فقد كان على قناعة بأنه يجب أن يُدرس ويُحصى في ضوء الإنسانية ، وهو في ذلك يسير على درب جاستون ماسبيرو في التكريم الذي قدم لعالم المصريين ألكسندر موريه ، كتب : لقد أحب موريه حقًا هذا البلد العتيق ، وواصل بشكل عجيب معاركه البطولية ليستنقذ من بين طيات الرمال العادات الأولى والتقاليد وأسس أخلاقًا إنسانية حقًا ، والتي أصبحت أخلاقًا عالمية ، ولم يكن مستبعدًا الاعتقاد بأن أرض أوزيريس هي أصل كل الشرق ، ولم يكن مخطئًا في الاعتقاد بأنه لا يوجد شعب أثر على أفكارنا الدينية والأخلاقية بشكل باق حتى أيامنا هذه مثل هذا الشعب .

وعلى العكس من والدها ، عندما قابلتها ، لم تكن تحب مصر ، وكانت تنتظر لحظة عودتها لفرنسا ، ولكنها أخذت في هذا الجو وأصبحت فتاة انطوائية ومتوحشة وتكره الاجتماعيات . ويوم زيارتي الأولى للمنيرة ، أخذني جوجيه وهي بعد مقابلتنا في أحد الصالونات ليقدمني لزوجته ، بلانش سيدة وقورة للغاية ، ويقدمني لابنتيه كذلك ، مارجریت وإليزابث التي كانت في الثانية عشر من عمرها ، واستقبلوني برقة ولطف كبيرين . وكنت أحس بالخجل من نظراتهم ، ومن بعدها عائلة جوجيه ، وقد دعيت بانتظام لزيارتهم في المنيرة . ومن وقت لآخر كنت أصطحب ميمي لنلعب

التنس معاً ، رياضة كنت متفوقاً فيها ، وجذبتني هذه الفتاة بسحرها
وذكائها الحاد ، تعرف كيف تكون طريفة بلا حدود ، ولها روح حية
متدفقة رغم سنّها ، ذلك كله قهرنى ولم أستطع المقاومة . خلال صيف
عام ١٩٢٨ ، عدنا جميعاً إلى فرنسا ، ولم أرها إلا فى الخريف بمناسبة
زيارة قامت بها مع والدها لموقع زوسر وكانت هذه أول مرة تخرج من
القاهرة وكانت صدمة لها أن ترى الصحراء ، والمفاجأة أن تقع فى غرام
هذه الصحراء . حتى عندما قبلت أن تتزوجنى ، لم أكن أدري أن ذلك
راجع لحبها لى أم لغرامها بسقارة ، وعلى كل حال فقد أحببت أن
تشاركنى عالمًا من التجرد والعزلة . وشعرت أنها أمام طبيعة باهرة
كانها طبيعة إنجيلية ، وتسبح فى مناخ من السلام الداخلى ، وهذه
أشياء تجد لديها صدى كبيراً .

كانت ناعمة وإمبراطورة فى الوقت نفسه ، ميمى بالنسبة لى مصدر
للطاقة ، لم تشعر بالضيق إطلاقاً من عملى ، حتى عندما افترقنا كانت
تبعث لى بطاقة من بعيد تحب الآخر للبهجة التى نحسها عندما نعطى .
قالت هذا عندما سألتها كيف تحملت هذه الحياة . وعندما استقرت فى
سقارة غيرت فى البيت الذى وجدته قبيحاً جداً من الخارج ، دهنت
النوافذ لتصبح أكثر بهجة ، وابتاعت نحاساً وأشياء جميلة أخرى ،
واقترنت قطع موبيليا من بعثة شيكاغو الموجودة فى منف ، ولكنها رغم
ذلك ، شعرت بالملل بعد عدة أشهر فلم تملأ القراءة أوقات فراغها ،
فأخذت تنزّه فى الصحراء بعد الظهر من كل يوم رغم الحر والشمس ،

أجد سعادة لا محدودة فى التنزه فى هذه المساحة الشاسعة ، هنا حيث لا حركة ولا صوت ، أتوغل فى الصحراء إلى حيث ينقطع الأثر على الأرض ، وهذا رائع جداً أن تكون بين السماء والرمال ، حيث لا شيء آخر ، لا شجر ولا نبات ولا طائر ، لا شيء ولا إنسان ، أن تكون وحدك مع الله . وتحت إلحاح الرغبة فى قتل الوقت ، كانت لديها قناعة أن تعمل شيئاً ما ليعيد التوازن المفقود . وجاءها الحل من صديق كنا معه نأخذ الشاي يوماً ما عند جروبي "لماذا لا تبتدئين فى التجليد ؟" هكذا اقترح عليها ، وأمضت عدة أعوام فى باريس تتابع محاضرات فى هذا المجال بكل الحب .

وقررت بحزم أن تتابع هذا النشاط فى سقارة واشترت قبل الرحيل لمصر المواد اللازمة كلها ، وعندما وصلت استقرت فى الأتيليه الذى شيدته من أجلها قبل زواجنا بفترة قصيرة . وبدأت فى تجليد أكوام الكتب المقدسة فى المنزل ، أنقذها هذا العمل من وجود - مع طول الوقت - لن تستطيع تحمله . وعندما أصبح عندنا ثلاثة أطفال استطعنا رغم عدم وجود المال الكثير أن يكون لدينا عدة خدم ومرضعة للأطفال ، الأمر الذى وفر الوقت لزوجتى لتتابع عملها فى الكتب . ثم كانت الحرب التى وضعت نهاية لهذا النشاط الذى استغرقها . بعد العودة لمصر بعد ستة أعوام من الغياب ، لم تعد ميمى نفس السيدة ، فقد قتلتها الحرب وكانت كأم قلقة جداً على أطفالها ، واضطربت بخصوص المصير الذى ينتظر اليهود ، وكم من صديق لم تستطع مساعدته رغم الظروف البائسة

التي يواجهونها ، أعوام من اليأس القاتل حلت بنا أثناء سنوات الحرب ، فكانت فترة درامية بالنسبة لى ، فقد وضعت نهاية أبدية لحقبة من حياتى التى لم تعد بعدها كما كانت قبلها ، وهكذا اقتنعت .

ومع ذلك لم يتغير شيء فى سقارة ، وجدت الهدوء وهذا الضوء المشرق الذى يتسلل ليوقظها مع إشراقة الصباح ، لكنها هى التى تغيرت ، آمالها لم تعد كما كانت ، وتأمل الصحراء لم يعد كافياً بالنسبة لها ، وهى التى طالما عشقت سقارة ، لكنها لم تستطع استعادة مشاعرها السابقة . من جانبى ، كنت منهمكاً فى إعادة تشييد آثار زوسر ، فكنت أعمل بلا توقف ، خلال ستة أعوام عشت وأنا أفكر أنتى قد لا أستطيع العودة . صيف عام ١٩٤٦ كان الصيف الأول والوحيد الذى قضيناه فى مصر فالسفر لفرنسا ذهاباً وإياباً يكلفنا الكثير جداً . ذهبنا إلى الإسكندرية فى إجازة جميلة جداً بوصفها أجمل إجازة قضيناها معاً ، ترك لنا أصدقاء منزلهم على شاطئ البحر فى أمينوولو وبدون هذه المنحة لم نكن لنستطيع أن نقضى هذا الوقت فى هذا المكان الجميل . لأن كل شيء أصبح مرتفع التكاليف فى مصر . وكان الصيف التالى عندما اتخذت ميمى قرارها بالعودة نهائياً إلى فرنسا ، هذا الرحيل الذى تركنى فى اضطراب شديد ، وفى خريف ١٩٤٧ وجدت نفسى وحيداً فى سقارة ، وحيداً تماماً . وكان مؤلماً جداً هذا الفراق ، لكن وجودها كان ضرورياً بالنسبة للأطفال حيث أصبحت دراستهم فى القاهرة مستحيلة لاضطراب كل شيء . وأخذت زوجتى على عاتقها مهمة

تربية الأولاد بمفردها . ومن جانبى بقيت أعيش فى عزلة تزداد وحشتها
يوماً بعد يوم ، مقطوع الصلة بأصولى العائلية فى مواجهة العمل
الضخم الذى كان على أن أنجزه .

ورببت ميمى إقامتها فى فرنسا بدون شكوى ، بعد الحياة الجميلة
التي قضتها فى الصحراء ، وكما تقول هى نفسها ؛ لم تعد ترغب
فى رؤية سقارة مرة أخرى .

سيسيل فيرث

بدأت معرفتي أخيراً بسيسيل فيرث فى ديسمبر ١٩٦٦ ، عندما جاء لبحيتى فور وصولى إلى هذه الصحراء التى سوف تغادرها زوجى بعد عشرين عاماً من الآن . فى باريس لم أعتد إلا سكناً برجوازيّاً مريحاً ، وكنت أجهل أن الإنسان يمكن أن يشعر بالسعادة فى حجرة صغيرة ذات سرير مفرد وقاعدة تُستخدم حماماً ومنضدة متواضعة للعمل . منذ عدة سنوات أبدى جون لوكلان الذى استقر معى فى سقارة عام ١٩٦٢ هذا الانطباع : "لقد عشت متقشفاً ، ولكن أن أعيش متقشفاً على طريقة لوير هذا لم يحدث لى أبداً" . كنا نموت من البرد شتاءً ، فقد كنا مجبرين على العمل مساء ملتفين فى معاطفنا ، وفى الصيف ، كنا نموت من العطش لأنه لم يكون يوجد أى ماء بارد مثلج نشربه .

ودعيت لقضاء نويل عند هذا الإنجليزى الطريف للغاية ، شدتنى منه الشخصية غير العادية منذ مقابلتنا الأولى ، قوى الصوت ، كريم كرمًا بلا حدود ، ولحسن حظى أنه كان يتحدث الفرنسية بإتقان ، وكان ذلك فى الوقت نفسه حفظاً سيئاً لى ، لأننى بهذا لن أحرز تقدماً فى لغتى الإنجليزية ، وكان هذا أول عيد رأس السنة أحتفل به بعيداً عن أسرتى . وقضيته فى مناخ بهيج جداً . فلقد أعدت مدام فيرث عشاء على الطريقة

الإنجليزية ، وأن تتزود بالطعام والشراب بهذا الشكل في الصحراء لم يكن بالشئ الهين ، الحصول على أشياء طازجة عليك الانتظار ليوم السوق الذي يكون في الأسبوع مرة واحدة في القرية ، أول شئ رأيته وسط المائدة هو حلوى نويل « وانفجر فيرث في الضحك وهو يخبطني على ظهري خبطة مداعبة وبودة ، وأسرع لطمانتي وهو يناولني طبقاً من ذلك الذي تبدى لعيني خليطاً لا معنى له ، وقال لي بلهجه الفرنسية إنه التقليد البريطاني الخالص ، وهو إعداد هذا الطعام الغالي عند الإنجليز ، مباشرة بعد نويل ترتدى قبعة عتيقة عالية وتصب خمراً معتقاً ثم مشروبات متنوعة ، ثم لا يعود لديك سوى إضافة كل ما يتبقى من طعامك حتى نويل التالي ، وهكذا يا عزيزي . عليك أن تتصرف لكي تحصل على حلوى لذيذة جداً ! نادراً جداً ما كنت أجد فيرث بعيداً عن مزاجه المرح هذا ، فبينونه كانت الحياة في سقارة لا تطاق . والإنجليزيان الآخران وهما جن وكوبيل ، كانا أقل دفئاً .

منذ الأيام الأولى في يناير ١٩٢٧ حُزمت حقائبى وغادرت سقارة الجنوبية لأستقر على بعد ثلاثة كيلو مترات إلى الشمال بجوار هذا العالم ، وهو الذي أحياه منذ تلك اللحظة وحتى يومنا هذا . عند وصولي بالعربة التى يجرها حصان والتى تحمل متاعى ، كان فيرث ينتظرني أعلى سلم من الحجر يؤدى إلى المدخل ، وكان فخوراً أن يذكر أنه هو الذى شيد مقر إقامة مهندس المعماري ، وكنت متائراً جداً أن أمتلك هذا المنزل ، والذى يشكل لى - على تواضعه - المكان الذى به أستطيع أن أحيا بشكل مستقل . أمام هذا العالم الذى وضعنى فيه قدرى بشكل

غريب لعدة أشهر ، وكان على ألا أنسى أن تعاقدى مع مصلحة الآثار عندما ينتهى فعلى أن أسافر لفرنسا وأواجه وجوداً مختلفاً . المنزل مبنى من الطوب المصنوع من الطين كمنازل الفلاحين المصريين في الصحراء ، ويمكننا رؤيته ونحن في الوادى لكن عندما تكون في أعلى الموقع فلا تراه أبداً . وقد اختار فيرث بنفسه هذا الموقع حتى لا أتعرض لما تعرض له هو من كثرة الزوار غير المرغوب فيهم . داخل المنزل يتكون من حجرتين من الطين المجفف ومطبخ صغير وحجرة للخادم . هذا الخادم أعطته إياى مصلحة الآثار المصرية ويطلق عليه وصف بربرى ، وهو وصف يلحق بالنوبيين الذين يعملون لدى الأوروبيين . محمد ، هذا اسمه الأول ، كان فخوراً أن يرى أنه يستطيع نطق بعض الكلمات بالفرنسية ، والتي كان قد تعلمها أثناء عمله عند فرنسى آخر بالقاهرة ، وتوطدت علاقتنا سريعاً . وتركت له أمر المطبخ كلية ، وهذا لاقى قبولاً لديه ، ولأننى وحدى فقد كان يفظاً ومخلصاً ومجتهداً .

الضوء يتسلل من نوافذ على ارتفاع منخفض حيث تدخل الشمس بصعوبة ، فالحجرتان كانتا غالباً مظلمتين وباردتين ، وهناك باب يفتح على الشرفة لنرى هذا المشهد الرائع اللانهائى على النيل والطبيعة ، ولكى أفيد من هذا الأفق الفريد أعددت فيراندا بالشرفة كي أتناول طعامى فى مأوى من الرياح والشمس ، ولم أكن أتخيل فى هذا الوقت أننى سأستقبل على الغداء الرئيس جاك شيراك . وأصبح لدينا - فيرث وأنا - عادة تبادل الزيارات مساءً لاحتساء كأس وللمناقشة . كان محامياً سافر إلى مصر يوماً دون أن يدري أن هذه الرحلة ستغير كل شيء فى مستقبله ،

فقد تقابل مع عالم الآثار الأمريكى جورج رايزنر وكانت مقابلة مصيرية. وتوطدت علاقة الرجلين ، وكان على رايزنر أن يرحل إلى النوبة فى رحلة أثرية لمدة عامين ، واقترح على فيرث أن يصطحبه ، وأخذته هذه المهنة (مهنة الحفائر) ، وظل فيرث بالتالى يعمل بوصفه رجلاً ثابتاً مع رايزنر أثناء عمله فى أهرام الجيزة ، وبعد حصوله على امتياز الحفر فى جزء كبير ومهم بهذه الجبانة فى عام ١٩٠٦ ، بدأ الأثرى الأمريكى فى إزالة الرمال عن المعبد العلوى لهرم منكاورج عند عودته من النوبة شتاء ٩٠٩ - ١٩١٠ ، وكشف عن بقايا المعبد السفلى لهرم منكاورج وطريقه الصاعد ومقصورة ملحقة بهرم صغير لإحدى الملكات .

قبل عودته ذات يوم للقاهرة ، عهد رايزنر بمسئولية هذا الموقع المهم فى هذه الجبانة الكبيرة لزميله الإنجليزى طالباً منه ألا يدع شخصاً يدخل إلى هذا الموقع . سرعان ما رجع نحو فيرث ، فقد وجد نفسه فجأة قد اقترح على الحلاق أن يأتى ليزور الموقع ، ومن الواجب استقباله ، ووافق فيرث ثم ذهب للعمل ، وبعد عدة ساعات أتت مجموعة صغيرة على حدود الموقع طالبين الدخول ، ومن بعيد صرخ فيرث أن هذا مرفوض ، ومع ذلك ، وبعد خمس دقائق تذكر كلام رايزنر فأسرع نحوهم وهو يصرخ : "الحلاق ! الحلاق ! تعالوا" ولكن هؤلاء رجعوا كلهم وهم غاضبون . غداة اليوم التالى وصل ممثل المفوضية الألمانية بالقاهرة إلى الموقع طالباً مقابلة رايزنر ، قائلاً : "لا أدرى من يكون هذا الشخص غير المهذب الذى يعمل معكم ، بالأمس ،

أمير منطقة إل "L" بصحبة الوزير المفوض ، جاء لزيارة موقعكم ، ولم يرد فقط منعهم من الدخول للموقع ، ولكن عاملهم بوصفهم حلاقين! واستدعى رايزنر فيرث للتو فأجاب "لقد سألت فقط إن كان هو الحلاق الذي كنتم تنتظرونه!" ، ممثل الجانب الألماني أجاب باحتقار : "بالطبع أنتم أيها الأمريكيان غير مؤهلين للتمييز بين شخصية من الطبقة الراقية وحلاق!" فانفجر فيرث فى الضحك ، "هذا غير مدهش ، لأنكم وأنتم الدبلوماسيون لا يمكنكم التمييز بين الإنجليزى والأمريكاني ! لكن هذا الأمر سبب حرجاً دبلوماسياً حقيقياً ، وكان على فيرث أن يذهب ليقدم اعتذاره لأمير إل L . لم يكن رايزنر عالم لغة ضليع ولكنه كان أثرياً من الطراز الأول وبفضله تعلم فيرث الكثير ، وكان عندي الحظ أن أتعرف عليه ، وكان دقيقاً جداً بمعنى الكلمة ، تعرفت على اللهجة الأمريكية فى الإنجليزية بالإضافة للإنجليزية التى يتحدثها فيرث ، بعد هذا التكوين القوى ، عين فيرث فى عام ١٩١٤ فى سفارة ليحل محل مواطنه كوييل . حيث تقابل مع من ستكون زوجته الأنسة هانسارد ، فتاة إنجليزية جاءت لنسخ النقوش الموجودة فى مقابر الدولة القديمة ، لقد تزوجا بعد ذلك بعدة أشهر وسرعان ما أنجبا ابنة ، كانت من أصول أرستقراطية وكانت تتمتع بتميز كبير وترسم بشكل متقن تماماً ، وكان لدينا نفس الغرام بالرسم بالألوان المائية، ولطالما رسمت خلال السنوات الأولى لى فى مصر ، وكنا نقارن رسوماتنا أنا ومدام فيرث . ويحكم بيتنا فيرث المتحمس الذى لم يبخل علينا بمجاملة أو تشجيع .

منزل السعادة

فى كل مرة أتى فيها لأسكن هذا المنزل البهيج بضلفته الكوبالتية الزرقاء ، أتذكر منذ سنوات عندما ارتحلنا جميعاً : الأسرة كلها ، معنا متاعنا وأطفالنا والمرضعة والخدم ووصلنا أعلى سلم منحدر من الحجر ، وكنا سعداء أن نجد أنفسنا فى هذا العالم الهادئ والعظيم الذى أحبيناه تماماً .

اتسع المنزل بالتدريج من حجرتين فقط ، إلى زيادة أتيليه ميمى ثم حجرات الأطفال وحجرة المرضعة . ذات يوم قال لى فيرث وهو يضحك : "لو استمر هذا التوسع ، ستصل قريباً عندي" ، فعنزله على بعد كيلو متر من منزلى . هذه التوسعات المتتالية لم تجعل المنزل أكثر راحة بدون ماء وبدون كهرباء . اعتمدت حياتنا اليومية على الاجتهاد والتليفون الذى أدخله عندنا والد زوجتى عام ١٩٢٦ عند ميلاد طفلنا الأول ، كان هذا التليفون هو إشارة الرفاهية الوحيدة لدينا ، وحصلنا على رقم (١) ، ولعمل مكالمة لابد أن نطلب سنترال البدرشين ، وتنشأ المشكلة بعد الثامنة مساءً ، إذ يعود موظف السنترال إلى بيته لنقطع عن العالم ، وعالجت ميمى هذا الأمر عندما طلبت من الموظف بالسنترال أن يوصل خطنا

مساء على خط إحدى صديقاتنا ، التى تسكن على بعد أربعة كيلو مترات أسفل الوادى بالحوامدية ، وفجأة أمضت سهرات كاملة تترثر فى التليفون وانقطع خطنا فترة الحرب ولم يعد إلينا ثانية . كانت هناك فترة قبل طوفان التليفون المحمول ، فكان من المستحيل أن نتصل بسقارة . فى نهاية القرن العشرين كنا منعزلين تماماً كما كان الأمر كذلك فى عام ١٩٢٦ ، وعندما كنت أود محادثة ميمى فى باريس كان على أن أرتحل للقاهرة ، وأشتري بطاقة تليفون ، والتى تقطع المحادثة بشكل منتظم عدة مرات لدرجة مزعجة . والآن بالتليفون المحمول تستطيع زوجتى أن تحادثنى متى شئت ، وفى أى وقت ، الأمر الذى طمأنها طمأننى وكذلك .

أمضى أطفالنا الثلاثة فترة من حياتهم فى مصر ، وظللت معهم فقد أمضوا طفولتهم فى الصحراء ، وسط الأطلال وفى مواجهة الأهرام ، وسكون الأماكن وغموض الآثار ، ونمط الحياة الغريب فى منزل تعوزه الضروريات ؛ جعل من حياتهم اليومية مسرحاً عظيماً ، ووجدوا صعوبة عندما حانت ساعة رحيلهم إلى باريس ، لظالمنا سمعت ابنتنا فلورنس تقول إن الهرم المدرج أختها الكبرى ، وأن منزل سقارة أجمل منزل فى الدنيا ، كان هذا واقع ما عشناه معاً هنا ، فلورنس هذه البنت الصغيرة الجميلة جداً أصبحت سيدة جميلة جداً وتوفت عام ١٩٩٦ ، ورحلت فجأة حتى يومنا أن نملك أن نقول لها كلمة وداع ... فلقد وصلت متأخراً جداً .

قبل ميلادهم ، كنا ، ميمى وأنا ، سعداء جداً فى هذا المكان الإسبرطى بمنزلنا هذا المبني من الحجر ، وبوجود الأطفال أضحى هذا السكن

البوهيمى غير ممكن ، وحتى هذا الوقت كان الماء يصلنا محمولاً على ظهر الجمال ويتعمده مراد المتعهد بنقله فى خزان به ما لا يقل عن ٢٨٠ لتراً من الماء ، وكنا نرشح الماء بجهاز ترشيح ماء باستير اشتريناه من فرنسا لهذا الغرض ، وكان علينا أن نصبر ! لأن ترشيح الماء بهذه الطريقة يستغرق وقتاً وتبدلت حياتنا عندما وصلنا الماء الجارى ، واستبدلوا بالخزان آخر أضخم سعة ٤٠٠ لتر ، وكان واصلأ إلى بئر ، ويقوم على ملئه اثنان من رجال المطافى ، وتستغرق عملية ملئه ساعات .

ولأننا لم تكن لدينا ثلاجة ، فقد كانت قضية حفظ الطعام تمثل لنا مشكلة حقيقية ، لحسن الحظ فى مصر توجد طريقة قديمة جداً وفعالة وهى الزير ، وهو أنية كبيرة من الفخار ، يوضع على حامل من ثلاثة أرجل من الحديد لتجعله بعيداً عن الأرض ، نملأه حتى منتصفه بالماء ، ثم نضع الطعام على سطح الماء فى شبكة ، ثم نغطى الجميع بغطاء من الخشب ، وبهذه الطريقة استطعنا الحفاظ على الطعام لأيام عديدة ونقطة أخرى طريفة ، فى هذا الصدد ، فبعد مرور الوقت يبدأ الماء فى المرور من الأنية الفخارية ببطء ، ويسقط فى أنية توضع فى أسفله ، ويجمعها محمد فى أبريق يضعه على حوامل من الفخار تتزن عن طريق الرياح التى تحفظ للماء برودته ، وهذه الطريقة الفنية معروفة منذ عصور مصر القديمة .

حذرُ والد زوجتى الذى ترعبه الثعابين الموجودة فى الأرض الطينية والعقارب المختبئة فى الجحور من أن البلاط يجعلها تظهر فى كل مكان. وانتهى كذلك عصر سُرُج البترول "الجاز" التى تشكل خطراً على الصغار ،

بإدخال الكهرباء التي تعمل حتى منتصف الليل ، وانتهى كذلك موقد الجمر الذي يدفئ المنزل شتاءً ، وبدأ عصر المدفأة التي تعمل بالبترول وهي أكثر أماناً . ومنذ ذلك الحين أصبح وجودنا اليومي أكثر تنظيماً ، وفي هذا العصر كنا نعطي العمال يوم الأربعاء إجازة ؛ لأن هذا اليوم كان يوم السوق في قرية البدرشين . يعد محمد حمارته في الصباح الباكر ويفرش على جانبيها قفتين كبيرتين قبل أن يمتطي ظهر الحيوان ، ثم يرحل ليعود بعد عدة ساعات والقفف مليئة بالمعاش من المؤن ، وتجبره هذه الأحمال على الاتزان على ظهر الحمارة التي تسير هذه المرة ببطء . واستفدنا منه ذاك اليوم في الذهاب للقاهرة ليعمل المشتريات للأسبوع كله ويملا الثلاجة الخاصة باللحوم التي نشتريها ليجلب السوق ، ونحن نأكل بعض هذه اللحوم ونرمي الباقي الذي سرعان ما يفسد ، ويبقى الأسبوع نأكل الدجاج والحمام المنزلي ، وكان لدينا الفاكهة والخضروات بكثرة ولبن الجاموس للأطفال ، أما الخبز فيذهب محمد ليأتي به من عند زوجة الرئيس في سقارة وهي تعد خبزاً لذيذاً ، لم أكل مثله إلا نادراً في حياتي ، ولأسباب دينية أصبح يوم الجمعة إجازة وكان علينا أن نختر يوماً آخر للذهاب للقاهرة لعمل مشترياتنا ، لأن الإدارات والمحال تغلق أبوابها في هذا اليوم .

نستقبل العائلة يوم الأحد ، والد الزوجة تغشاه السعادة عندما يرى الموقع ويرى الأشخاص قريبيين منه ، وذات يوم اصطحب إدوارد هريوت ، أصدقاء منذ زمن طويل ، فقد كانوا زملاء في المدرسة العادية العليا ،

وفى يوم حار جاء لزيارة سقارة ، هريوت يدون ملاحظاته بدقة ، أحب رؤية كل شيء ، لكنه كان بديناً جداً ؛ ولذلك سرعان ما اعتراه التعب ، وتوقفنا بجوار جدار لتتيح له الفرصة كي يلتقط أنفاسه ، ووجدناه متخففاً من ملابسه ، ويضع مذكراته على بطنه كي لا يشعر سريعاً بالتعب . وعندما يأتى ابنائى الصغيران الأشقران يثيران فضول الأطفال المصريين فى البداية ، لكن سرعان ما ينتهى الفضول ويبقى الجميع يلعبون معاً . بيير ودانييل يأتون غالباً لرؤيتى فى الموقع لكي يلعبوا بـ "حجارة بابا" ، وفيما بعد أصبح موقع العمال ساحة لعبهم! ومع أختهم يلعبون الاستغماية فى السرابيوم ، والقطة الشقية على قواعد الأعمدة المحطمة ، والجرى على الكنوز فى المقابر ، وعندما يأتى بنات بيير لاكم ، يلعبون مع أولادى جميعاً عند حافة المنحدر ، ويلهون بموميאות القبط التى يجدونها فى كهوف صغيرة مفتوحة ، وكنت أخاف كثيراً عند اختفائهم فتنادى عليهم كثيراً ، ولا يظهرون إلا عندما يعترينى الغضب . فى هذه الصحراء الموحشة لم يشعروا إلا بالحرية ، حرية أن يكونوا كما يريدون هنا .

كنا محظوظين هنا لاستقبال مربية جديدة واسمها فاليريا ، سيدة فى السادسة والثلاثين من العمر وجذابة جداً ، وأهم مهاراتها هى أنها تعرف كيف تسيطر على الأطفال ، وهى مؤهلة لتكون مربية بالمعهد السويسرى بالقاهرة ، بروتستانتية ، مؤمنة وممارسة لعقيدها ، وقامت بتدريس الدين لبيير ودانييل ، وفيما بعد لفلورنس ، وكانت بالنسبة ليمى

نعمة حقيقة من السماء ، مثل زوجتى لم تكن تحب إلا الهدوء والوحدة والأطفال ، فلقد جاءت لخدمتنا لأننا نسكن الصحراء وهو السبب نفسه الذى جعل الأخريات يلذن بالهروب "لا أجد فى الصحراء إلا الله" هكذا اعترفت ذات يوم ليمى . كانت المتعة الكبيرة التى يمكننا تقديمها لأطفالنا هى أن نبعث بهم إلى عائلة بروير فى دير المدينة على الضفة الغربية للنيل فى مواجهة الأقصر برنارد بروير عالم مصريات لامع ويعمل بلا كل ، اكتشف فى عام ١٩٢٤ فى موقع الدولة الحديثة الذى كان فى هذا الوقت أكبر مواقع المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، العديد من المقابر التى لم تمتد إليها يد ، إحداها كانت تحوى موميائتين سليمتين ، وأثنائاً جنازياً رائعاً ، كان بروير عزباً ومحنكاً ، تزوج فى سن متأخرة من فرانسواز دمارتر ابنة عم ألمانية ليمى ، عاش الاثنان فى مقاصير المقابر المدفونة فى الصخر وهيئوها لاحتياجات البعثة إلى أماكن للسكنى ، وجمعوا فيما بينها بشرفة طويلة ، كانت أرق حالاً من سكن سقارة . لكن من الشرفة تطل على منظر رائع فترى من بعيد معابد الرامسيوم ومدينة هابو ، ومن خلفهم النيل .

فى خريف ١٩٢٢ ، استقبل بروير هوارد كارتر ، جاره فى وادى الملوك ، وكان كارتر يائساً ، وراعيه مالياً كارنفارقون ، الذى أنفق على الحفائر التى استمرت لمدة عشر سنوات بحثاً عن مقبرة ملك صغير يعرف باسم توت عنخ آمون ، قرر أن يتوقف عن المتابعة ، نصحه بروير ألا ييأس وأن يستفيد من هذا الموسم الأخير لمتابعة أبحاثه فى وادٍ قطعه بحثاً منذ سنوات ، بروير الذى كان يزوره غالباً ، لاحظ أنه ترك

مكاناً فقط ، ذلك الذى تغطيه منازل فنّانى الجبائنة والمشيّدة من الدولة الحديثة . كارتز استسلم لفكرة عدم المساس بها خشية أن يسد مدخل مقبرة رمسيس السادس المجاورة تماماً ومع ذلك استمع لنصيحة زميله ، وقد كان، وظهر تحت أنقاض هذه المنازل بداية السلم الذى يؤدى لمدخل المقبرة . بالنسبة لأطفالنا ، كانت الإجازة عند عائلة بروبر تمثل لحظات رائعة فى حياتهم ، وقد اصطحبهم خالهم لرؤية الملك توت عنخ آمون كما نقتزّه نحن فى حدائق لوكسمبورج ، أن ينزلوا إلى داخل المقابر كان بالنسبة لهم شيئاً عادياً جداً ، فلورنس تحب خالتها جداً التى كانت تلبسها مثل المرأة المصرية وتغطى رأسها بالحجاب لكى تصبحها معها لزيارة السيدات التى تعتنى بهن ، أرادت فرانسواز بالاستقرار مع زوجها فى دير المدينة أن تكون مفيدة ، ولما شعرت أنها لا تستطيع أن تشارك فى الحفائر أعدت نفسها بوصفها ممرضة لعمال الموقع ، وجهرت مستوصفاً بسيطاً فى مقبرة ، وسرعان ما هرع إليها كل السكان فى الأماكن المجاورة لكى يتلقوا علاجاً لديها ، تقابل كل يوم مرضى لا يفهمون الفرنسية . تعلمت العربية التى سرعان ما تحدثتها بشكل متقن ، هذه السيدة التى لا تستطيع أن تعيش إلا فى طى النسيان حتى من نفسها ، قدمت مساعدة هائلة أثناء سنوات حياتها التى قضتها فى مصر العليا لكثير من السكان الفقراء تماماً .

لم يهتم أحد من أبنائى فيما بعد بمصر ، هذه البلد التى كانت لوقت طويل موضوعاً مقدساً ، لم يعد لها بيبير إلا مرتين ، الأخيرة جاء اسقارة على دراجة ، كان على رأس فريق يعمل جولة فى الواحات ،

وبعد أن تركنى رحل عبر الصحراء وتعرض لعاصفة رملية شديدة ،
ولحماية نفسه ظل لمدة يومين منزوياً خلف عربات سكك حديدية قديمة
لمدة يومين ، ولحسن الحظ كان لديه مؤن ، أما دانييل فلم يعد لمصر إلا
العام الأخير وكان سعيداً أن يجد صورة طفولته ، وكذلك الشمس وجمال
الأحجار ، واجه أبنائى صعباً فى إنهاء دراساتهم بعد أن أحدثت
الحرب لديهم خللاً كبيراً ، عانوا كثيراً من سوء التغذية ، الأمر الذى ترك
بعض العواقب لدى دانييل ، ولكنه شفى منها لحسن الحظ ، وكان لديهم
شخصيات صعبة . فى القاهرة ، ولما كان لا يوجد أحد لمتابعتهم كانوا
يتركون محاضرات مدرسة الآباء الدومينيكان ، لكى يذهبوا إلى حمام
سباحة نادى سبورتنج ، وأصبحوا أبطالاً فى السباحة ! ولم أكن أنا
كذلك أباً مثالياً ، فابنتى تلقبني بـ "الملك لوير" ، الإله الغائب وكانت
تعتقد فى طفولتها أننى أعيش فى هذه الدنيا لعمل فطائر من الرمل ،
وفيما بعد كانت تلومنى لعدم رؤيتى إلا من ظهرى عندما أذهب للموقع ،
كانوا يريدون منى أن أجعل "الهرم" يمر من أمامهم ، وبعد عودتهم
لفرنسا فى عام ١٩٤٧ لم أعد أراهم سوى أربعة أشهر فى العام ، ولم
تكن هذه مدة كافية لأبثهم عطفى وحنانى الذى حرّموا منهم باقى العام ،
وفى كل مرة أعود فيها لمصر أشعر أن كلاً منهم يعانى بشدة ، كنت
بالنسبة لفلورنس الرجل الذى يشكل عالماً سحرياً لا تستطيع إليه
سبيلاً ، فقد ظلت باقى عمرها تخلق جواً شرقياً من حولها ، زخرفة
المنزل والأرائك والمفارش المطرزة وأغطية تخفف من الضوء وأسرة ذات
ناموسية .

كنت تانتان في مصرَ بالنسبة لأطفالي الثلاثة ، شخصية الرسوم المتحركة التي كانت تحيرهم والآن يحترمونها ، أشعر بسعادة ، منذ بضع سنين ، في قضاء الشتاء في سقارة مع حفيدتي كولومب ، فارسة ممتازة ، تدرع الصحراء بسرعة ، وأنظر إليها من خلف الهضاب بإعجاب وتذكرني بأيام أن كنت أقوم بالشئ نفسه على ظهور خيل فيرث . وعلى الرغم من أن أطفالي كان عندهم حق في رغبتهم في رؤيتي بجوارهم ، ولكنني أعتقد أنهم فخورون بي ، فخورون بالإنجاز الكبير الذي تحقق في سقارة .

الحيرة الكبيرة

كان الثامن من يناير ١٩٢٧ أول يوم لى فى العمل فى المجموعة الجنائزية للملك زوسر فى سقارة ، أراد فيرث أن أخذ وقتى لكى أستقر قبل أن يصطحبنى لاستكشاف الموقع الذى يعمل به منذ عامين ، بعد أن عمل لسنوات عديدة فى المجموعة الجنائزية للملك تتي ، صرف اهتمامه إلى أثر آخر قريب ، وهو الهرم المدرج حيث يوجد تلان واقعمان إلى الشمال الشرقى من هذا الأثر ، أثارا فضوله منذ وقت طويل . وفى شتاء عام ١٩٢٤ طلب من مدير مصلحة الآثار بيير لاکو التصريح بعمل حفائر فى هذا المكان .

وفى نهاية القرن التاسع عشر كشف جاك دو مورجان عن وجود سور فاصل ما بين الجبانة والصحراء المحيطة ، سور مستطيل الشكل مدفون فى الرمال ولكن تتبدى أجزاء منه ، ويعد عدة أبحاث توصل إلى أن هذا السور مبنى فى الأسرة الثالثة وتسأل : "ماذا عساه يحتوى هذا المسطح المحاط بعناية بهذا السور؟ " ، ويتتبعه لخريطة الجبانة أشار لهنين التلين على أنهما بقايا أهرام ملكات ، وأعطت هذه المعطيات قوة لفيرث ، لكى يستطيع أن يستمر فلابد من إزالة الرمال من موقع

هذين التلين ، وما كان مدهشاً ، أنه مع استمرار إزاحة الرمال ظهر بدلاً من بقايا أهرام صغيرة ، مداميك سفلية من واجهة جميلة مزدانة بأعمدة مقناة ليس لها قاعدة ، ومقطوعة من الحجر الجيري المجلوب من طرة على الضفة الأخرى من نهر النيل .

وعندما وصلت الموقع ، أدهشنى المشهد؛ أولاً عمال ، رجال كثيرون وأطفال بجلايبب ينقلون أطناناً من الرمال بالقفف التى يضعونها على رؤوسهم ، والنشاط المحموم فى كل مكان ، وهذا الإيقاع هو ما أمر به فيرث رغم بدائته ، فقد كان يزن قريباً من مائة كيلو جرام . لكن هذا الرجل يشع طاقة وحيوية ، ثم قادنى إلى المقر الأبدى للملكات ، فقد كان يريد معرفة رأى فى هذه المباني وأعمدتها التى تذكرنا بالأعمدة الدورية اليونانية ، والتى ربما ترجع للعصر البطلمي ، ولكن الجرافيت الهيراطيقى الذى تركه الزائرون على بهو المدخل يرجع للدولة الحديثة ، الأمر الذى قلب تعاماً افتراضاتنا الأولية . وطلب إلى شريك باتيسكوب جن أن يترجمها . وفى هذه النصوص يظهر لأول مرة اسم زوسر ، ومما لا شك فيه أن هذه الأعمدة تعود لما قبل العصور اليونانية ، وكل شيء يشير إلى أنها من عصر الملك زوسر . أى نهاية القرن الثامن والعشرين قبل عصرنا الحاضر ، وشرح لى فيرث كم حيره هذا الكشف وذلك لسببين : الأول وجود أعمدة ذات سمات دورية قبل العصر اليونانى بأكثر من ألفين ، والثانى المباني نفسها المشيدة بأحجار ذات حجم صغير ، وأنذاك العمارة المصرية الحجرية كانت فى بداياتها ، وربما كان الأنسب البدء بأحجار ضخمة .

ويمواصلة الحفائر ، تنقل فييرث من دهشة لأخرى ، وقد حدث عند إزالة عماله للرمال من حول الهرم أن عثر على تمثال صغير من الحجر الجيري الملون للملك زوسر جالساً ، ويوجد الآن في حجرة صغيرة ، وهى التى نطلق عليها "السرداب" . واصطحبني إلى مكان وجود هذا السرداب ، ويقع بارزاً بجوار الهرم شمالاً إلى الشرق ، ويفطيه سقف من الخشب . وحكى لى فييرث قصة هذا الكشف : تعلم أن الأثريين سيأخذون الأمر سريعاً على محمل الجد بمجرد أن يكتشفوا كذا وكذا ، مع أن الأمر فى الأغلب يأتى هكذا مصادفة . يوماً ما كان على أن أذهب للقاهرة ، ولم أكن أعلم بماذا أشغل عمالى ، فأمرتهم أن يزيلوا تلاً من الرمال على حدود المعبد الشمالى حتى يظهر كساء الهرم ، وعندما عدت فى مساء اليوم نفسه سمعت من يصرخ من بعيد : "وجدنا الملك! لقد وجدنا الملك!" تخيل لو أنني كنت ماكراً!...

وعندما صعدنا على أكداس الرمال وقفت مندهشاً أمام هذا التمثال المدهش فى مكانه ، وأفرغت العينان من التطعيم ، وشوه الأنف ليعطى الوجه شكلاً أكثر هرامة ، يرتدى النمس موضوعاً فوق باروكة شائعة ، ويلبس زوسر رداء أبيض ، محبوباً يشبه ذلك الذى يرتديه الملك فى احتفالات عيد "السد" ، وهو عيد اليوبييل الكبير . منقوش على القاعدة نقشاً خفيفاً اسم الملك وألقابه واسمه الحورى نثرى خت . اسم حورس ، الإله الكبير الحامى للملكية الفرعونية ، كان دوماً فى هذا العصر يسبق اسم الملك ، وعلى بعد عدة أمتار من هنا تتبدى بقايا معبد ملتصق بشمال الهرم ،

وليس إلى الشرق مثل معابد الأهرام المعروفة كلها حتى الآن ، ولقد قمت بعمل نسخة من التمثال ، لكي يذهب الأصل ليستقر في أمان في المتحف المصري في القاهرة .

في حملة ١٩٢٥ للحفائر في سقارة أضحي فيرث أكثر هوساً وحماساً لما يستجد من اكتشافات أمام عيني ، فقد تم تحديد الغناء المستطيل الذي يمتد جنوب شرق الهرم ، وعلى جوانبه بطولها بقايا جدران منخفضة في ممر متعرج يحدد مدخل مقاصير صغيرة ، وكثير من العناصر المعمارية ، أعمدة وتيجان أعمدة وأعمدة مقناة وكورنيش متناثرة على الرمال . في موسم حفائر ١٩٢٦ اكتشفت صالة الأعمدة الرائعة التي تحدد المدخل للمجموعة الجنائزية ، وأراني المدخل الحقيقي ، وبعد الممر الضيق وجهني نحو بقايا عقب باب ذي ضلف مفتوح تماماً ، وكنت أجد صعوبة في تفهم لماذا شيد المهندس المصري أبواباً وهمية: وأخيراً وبعد ممر آخر محدد بعقب ومفتوح تماماً ولكنه بضلفة واحدة ، دلفنا إلى الدهليز الذي يحده صفان من الأعمدة ، كانا يحملان سقفاً ثقيلاً فيما مضى من الحجر ، ومن المدهش أن اكتشف هنا بقايا أربعين عموداً ، كل واحد منها يتصل عن طريق جدار بجدار الدهليز ، ولم يتبين من هذه الأعمدة إلا قواعدها التي ترتفع بالكاد حوالى المتر ، وكلها كانت كافية لتبرهن على فخامة هذا الدهليز الذي يؤدي إلى صالة ضيقة مستطيلة يحدها ثمانية أعمدة من الطراز نفسه ، وكانت تحمل سقفاً ثقيلاً من الحجر ، ويتصل كل اثنين منها ببعضهما عن طريق جدار يصل فيما بينهما .

فيرث والذي جعلته هذه الاكتشافات يعمل كالمجنون ، لم يحاول أن يتوقف للحظة ليتعامل مع أكدا س البقايا التي تخرج يوماً بعد يوم من الصفائر ، المهم بالنسبة لهذا الرجل هو إزالة أطنان من الرمال لإحراز مزيد من الاكتشافات الجديدة .

ووجد العمال الذين يعملون تحت هذا الحماس يوماً على حدود صالة الأعمدة ، أثراً فريداً فى هذه المجموعة الجنائزية ، وهو قاعدة تمثال آخر من الحجر الجيري لزوسر لم يتبق منه إلا قدمان بجوار اسمه حورس نثرى خت ، والهيوغليفى المنقوش يحتوى اسم الوزير الأشهر إيمحوتب ، ونستطيع أن نقرأ : "مستشار الملك لمصر السفلى ، مدير القصر العظيم ، الأمير الوراثى كبير كهنة هليوبوليس ، إيمحوتب ، البناء ، النحات ، مصمم الأوانى من الحجر" . هذا الكشف المهم يجعل من هذه الشخصية غير العادية ، المهندس الذى صمم وشيد أول هرم فى مصر ، والذي لم يوجد من قبل إلا فى عالم الأساطير ، اكتشاف دقيق ومهم ويبقى لليوم الاكتشاف الوحيد بسقارة الذى يحمل بصمة المهندس العبقري . وفى الأيام الأولى لم أكن أستطيع أن أقدر حجم العمل فى الموقع ، ولم يكن عندى بالتالى فكرة عما أستطيع أن أعمله بهذه الأحجار الكثيرة ، ومع مرور الوقت أخذت أفهم سريعاً .

هرم إيمحوتب

ذات يوم ، عهد إلى فيرث أخيراً بزيارة الهرم من الداخل ، وهى لحظة كنت أنتظرها بفارغ الصبر. أن تصل إلى البئر الرئيسى ليس بالعمل الهين وسط خطر التهدم ، ثم يجب عليك خاصة أن تدلف على أربع داخل دهاليز ضيقة ومنحدرة ؛ لتصل إلى عمق البئر على بعد ثلاثين متراً ، أخذنا الكشافات ويحرسنا العمال ، وأخذنا المنحدر الموجود فى الجانب الشمالى من الهرم ، وبعد متاهات وصلنا إلى الدهاليز الضيقة التى تقود للداخل ، هنا حيث توجد تحت هذا الكوم الهائل من الأحجار مقبرة الملك ، وكان مدهشاً أن أجد فى هذا العمق هذه العمارة الضخمة المعقدة الصاويين ، واسمهم هذا مشتق من اسم مدينة سايس [صا الحجر] ، حيث حكم الفرعون أحمس الأسرة السادسة والعشرين وشيد عاصمته ، وأفرغ البئر الرئيسى من الرديم وكان يحوى منه أطناناً ، ولتنفيذ هذا العمل المهلك ، شيد سقفاً من الخشب ووضع حاملين ضخمين يستقر عليهما الكمر واستعمل بكرة رافعاً للأثقال . وهوما لم يكن معروفاً أيام زوسر ، وأرانى فيرث الدعامة الوحيدة المكسورة والتى تبقت من زمانها ، وبعد أعوام عدة ولما كان سياح يتسللون للدخول إلى "بهو الصاويين" الذى يفتح على الواجهة الجنوبية للهرم ، تسبب هبوب الرياح فى سقوط

دعامة إلى داخل البئر ، وهدمت عند سقوطها السدادة الجرانيتية للمقبرة ، وبقي هذا البئر خطراً لأن أحجاره يمكن أن تتصدع وتسقط فى أى لحظة ، ولسوء الحظ من الصعب مباشرة أعمال ترميم ، ولگرامهم بالعمارة القديمة والهيروغليفية القديمة فقد ترك لنا الصاويون أول دلائل الأعمال الأثرية فى العالم . منذ أعوام لم أعد أدلف إلى داخل الهرم لأنه وببساطة لم تعد هناك أبحاث لنباشرها فى هذا المكان ، ولكن فى ذلك العصر عندما كنت أدرس الأثر كنت أقوم بعدة عمليات دخول وخروج ، وذات يوم وأنا فى الداخل زارنى هنرى بورديو ، كاتب مشهور من فترة ما قبل الحرب أخبرنى فقط بأمر مجيئه عشية يوم زيارته ، وأيضاً غداة اليوم التالى انتظرت وصول الرجل الأكاديمى ، ولكن لما لم يصل بعد مرور ساعة دخلت الهرم ، ولم أكد أبدأ فى العمل حتى جاءنى أحد العمال حاملاً بطاقة زيارة باسم هنرى بورديو ، وبعثت إليه أنتى سأخرج بعد قليل ، وبعد دقائق جاءنى عامل آخر مهزولاً يتصبب عرقاً وذيل جلبابه فى فمه ، وفى يده الكارت مخربشاً تماماً ، فوضعتة فى جيبى وخرجت من البئر ، واستغرق هذا بعض الوقت ، وعند خروجى هاجمنى شخص صغير غاضب وأخذ يصرخ : "أيها السيد ، كفى ، أنتظرك لزيارة الموقع ، وكنت مضطراً أن أقوم بالزيارة وحدى وأقول لك إننى لم أفهم شيئاً من حفائركم - نعم أيها السيد! لا تحمل هذه شيئاً مدهشاً" ، أجبتة ، تريد أن تقول بذلك إنه لا يوجد شيء غير طبيعى بموقع الحفائر ؟ لكن هنرى بورديو كان - من الواضح - حساساً للغاية ، أخذ هذه الملاحظة على أنها سبة فاستدار دونما كلمة تحية .

كنت معتاداً الذهاب بانتظام للعمل بالقاهرة بمكتبة المعهد الفرنسى للأثار الشرقية ، هذه المكتبة منجم ذهب للباحثين ، واستغرقت عدة أشهر أقرأ كل ما كتب عن الأهرام ، ماذا كتبوا عنها ، ما هى انطباعات الرحالة الأوائل وما الذى استوقفهم ، بيير لوتى كتب عند رؤية هذه الآثار الضخمة تخرج من الرمال : "المثلث هو الشكل الأكثر بساطة وغموضاً فى الهندسة ، والأكثر ثباتاً من الناحية المعمارية" ، وكان محقاً ، لقد شيد المصريون هذه المباني الفخمة بدقة لتكون من الداخل كأنها قواقع تحوى بداخلها نواة روح المتوفى ، وفهمنا أنها تحوى جسد المتوفى ، ومن هنا يأتى معناها ، وبمظهرها الخارجى الفخم وجدت أهرام مصر مملكة اللامرنى ، اسمه وحده يعنى أفق الرمال والضياء ، بلد العجائب والسحر ، اهتم ملوكها منذ الأصول الأولى بأن يخبئوا مقرهم الفخم للأبدية فى خزائن بلا أرقام .

أى . أى إس . إدواردز ، كان مثلى ، واحداً من أوائل من اهتموا بقضية الأهرام وأعطى تفسيره العلمى : "الذى حدا بالمصريين القدماء أن يكرسوا مجهودات ضخمة وأموالاً لتشييد مقبرة هو التغير الذى طرأ على الجسد لكى يستمر فى الحياة ، وهذا يعتمد على أمرين أساسيين " الحفاظ على الجسد من أى تلف ، وضمان الاحتياجات المادية كتلك الخاصة بالكا ، وهذا الاعتقاد استمر طيلة التاريخ المصرى " . قبل أن نكتب المجلدات عن أصل أهرام مصر ، جذب اهتمامى الهرم الأول ، والجد الأكبر المحير والرائع ، نو المظهر غير العادى فى سقارة ، مبنى

نود درجات ، ويسبب شكله الخاص هذا لقبوه "بالهرم المدرج" ، اعتقد مارييت أولاً أنه شيد للعجل أبيس ، واحتوى على نوع ما من السراييم في الدولة القديمة ، ودافع عن فرضه هذا بقوة، وحجته وجود أبهاء كثيرة وحجرات معقدة بها مومياوات لقطط ، وعدل عن رأيه بعد ذلك بعدة سنوات ، وقرر أن هذا الهرم من عمل الملك ونفّر من الأسرة الأولى من تاريخ مانييتون ، وربما كان الملك الذي يلقبه المصريون باسم دجر ، وكان ينقص الهرم بعض العناصر ليصل للاكتمال .

كان قد زار الهرم وتعرف عليه الجنرال البروسى فون مينوتولى بصحبة المهندس الإيطالى سيجاتو فى رحلة عام ١٨٢١ ، وكانا أول من دخل الهرم ، ورسم سيجاتو الممرات ثم نشرها ، ومهندس آخر هو فالريانى الذى أعاد الرسم بالألوان لواحدة من الحجرات المزدانة بالفيانس الأزرق الذى عثر عليه أثناء استكشافه ، ووصف من جهة أخرى أشياء كثيرة من الهرم ، وبخاصة بقايا مومياوات تركها اللصوص فى ركن من البهو . كرس فون مينوتولى عدة أسطر لهذا الكشف ، حيث سجل : "جمجمة مذهبية وصندلاً مذهبياً" بلا شك هذا ما تبقى من مومياء أمير دفن هنا . فى هذا الزمن لم يكن أحد يستطيع أن يقك الطلاسم الهيروغليفية المنقوشة على جدران الحجرات السفلية ، لأن شامبليون لم يعثر على مفتاح هذه اللغة إلا عام ١٨٢٢ . وكل ما جمعه فون مينوتولى وجد طريقه إلى بروسيا على متن مركب ، ولسوء الحظ غرقت هذه المركب قبل وصولها بما عليها .

بعد ذلك بأكثر من قرن بقليل ، وعند زيارتي للأجزاء الداخلية من الهرم ، قررت رغم المخاطر المحيطة كلها الدخول إلى حجرة الدفن . ويسد مدخلها قطعة جرانيت ضخمة تزن أربعة أطنان ، واللصوص الذين لم يستطيعوا إزالتها زحزحوها قليلاً لكسر جزء صغير ، ولما كنت نحيفاً جداً فقد استطعت الدخول عبر هذا الجزء الصغير ، ووصلت حتى داخل حجرة الدفن على بعد مترين وسبعين سنتيمتراً ، وبالعكس كان الخروج مستحيلاً ، ولو لم يكن معي اثنان من الرجال الأشداء اللذان جذباني بقوة لبقيت في الداخل . ورغم وجود الكشف معي فإنني لم أستطع رؤية الشيء الكثير وارتفع صوت نبضات قلبي لا من الخوف ولكن من الانفعال لما أرى هنا ، وأثناء تنظيف الأرض من التراب وغيره ، وقعت يدي على شيء غريب ، وبفحصه في ضوء الكشف وجدتته رجل مومياء في حالة حفظ تامة . وكان مدهشاً وغريباً هذا الاكتشاف في هذا المكان الذي زاره من قبل ولعدة مرات باتيسكومب جن والذي لملم من هنا العظام البشرية المتناثرة ، وبعثت بهذا الجزء من المومياء للدكتور دري ، أستاذ التشريح بجامعة القاهرة .

ملاحظاته على الأسلوب المستخدم ، وهو أنه قديم جداً قادنا للاعتقاد بأننا أمام أقدم قطعة تحنيط فيما يبدو ، في الواقع كانت هذه الرجل اليسرى الملفوفة في أقمشة بدقة تبرز التفاصيل كلها من تحتها وجففت الجلد وحفظت العظام ، وهذه الطريقة التي تعتمد على قطعة قماش مضمخة بالصمغ وغيره تعمل على حفظ أجزاء معروفة منذ أزمنة قديمة جداً ،

كل هذه العظام نتجت عن الجثة نفسها المؤرخة بعصر الدولة القديمة ويكل تأكيد هي جثة الملك زوسر ، ويمكننا استنتاج أن اللصوص في محاولتهم إخراجها من مخبئها كسروها ، ثم تركوها في أحد الأركان بعد أن عروها تماماً من الطلى والأشياء الثمينة ، ثم من المحتمل جداً أن ما تبقى هو ما وصفه فون مينوتولى وما غرق في البحر . وفي أثناء صيف ١٨٣٩ أعطى المهندس الإنجليزي ج . أتش بيرنج الاكتشاف الذى بدأه فون مينوتولى دفعة أكثر للأمام ، وذلك بالتعاون مع الكولونيل الثرى هوارد فيز ، الذى وضع مخططاً لاستكشاف الأهرام ، وكان هذا أول الأعمال المهمة لحفائر تمت فى الأهرام فى القرن التاسع عشر . فقد اكتشف هؤلاء ممرين يتفرعان من أعلى البئر ويتجهان للخارج أحدهما شمالاً ، تصله عن طريق بئر أقل عمقاً ، والآخر جنوباً نصله عن طريق منزل (مهبط) قصير ، وأهم هذه الممرات ، هو هذا الجنوبي المحفور فى العصر الصاوى ، ليسمح بتفريغ البئر الكبير والذى كان يحتوى على ثلاثين مومياء ، بدون توابيت ولا أثاث جنازى ، وعلم بيرنج من عماله أن فون يمنوتولى عندما فتح الهرم عثر على تابوت من البئر الكبير ، ولكنه كان مهتماً ، ولسبب غير مفهوم لم ينزل بيرنج بنفسه إلى البئر حيث يوجد التابوت الجرانيتى ، لكنه تسلل إلى الحجرة المزخرفة بالفيانس الأزرق ، والذى نشر عنها رسومات جميلة مشفوعة بشرح واف لها وكيفية تثبيتها فى الأحجار ، ونقل الهيروغليفى على أحد الجدران ، وتحقق فيرث من أن هذا يتعلق بالقباب ملك قديم جدا ، ولعدم رؤيته لخرطوش فقد افترض أنه كان ملكاً غير رسمى ، أو أنه يجهل أن

الخراطيش الملكية لم تظهر إلا فى الأسرة الرابعة فى عهد الملك سنفرى . وفى هذه النقوش كان اسم نثرى خت مكرراً كثيراً ، سواء فى النقوش التى تتبع المتوفى أو فى المستطيل الذى يلى اسم حورس . لقد عرف وتحديد هوية الهرم المدرج ، لكن لم يستطع أحد أن يحدد الصلة بين نثرى خت وزوسر . لوحة سهيل ثم القاعدة التى عثر عليها فيرث ثم نقوش الجرافيت التى عثرنا عليها لأهرام ملكة تحمل لنا بما لا يدع مجالاً للشك أدلة على ذلك .

بناء هرم زوسر ، كغيره من الأهرام فى مصر ، يرجع فى تقنيته إلى العصر النحاسى وهو الفترة الأخيرة من العصر الحجري الحديث ولم يعرفوا سوى الذهب والنحاس واستخدموها ، أما البرونز فلم يعرفوه إلا فى أواخر الدولة القديمة ، هذه الآثار المعجزة أنجزها المصريون بثروات أكثر بدائية من تلك التى استخدمها اليونان الأول ولكنهم أبدعوها بإتقان عظيم ومهارة كبيرة . أى الوسائل استخدم إيمحوتب لإنجاز هذا العمل الضخم؟ نستنتج عندما نرى هذا الأثر أنه لا أحد قبله استخدم الحجر . بالتأكيد لا أحد ، نجد استخدام الحجر فى تغطية الجدران وتبليط الأرضية وعضد الأبواب ، غلق الممرات الداخلية ، فلم يستخدموا الأحجار فيما يبدو إلا لكونها مادة صلبة ولقدرتها على المقاومة أو البقاء .

لدى المصريين تاريخ طويل من استخدام الأدوات والوسائل المتنوعة فى استخراج الأحجار وقطعها وصقلها بما فيها الأحجار الأكثر صلابة ، ودليل ذلك صناعة الأوانى الحجرية التى بلغت قمة النضج والمهارة

فى الفترة النقادية قبل الأسرة الأولى ، وكان ذلك سهلاً نسبياً . ومن جهة
 أخرى كان تقليل أحجام الحجر الجيرى لأحجام أصغر ؛ لكى تستخدم
 فى بناء ما كان يبنى بالطوب اللبن ، وطبق هذا بمهارة إيمحوتب ، وتغلب على
 كل الصعاب التى واجهته فى الانتقال من البناء باللبن إلى البناء كلية
 بالحجر . من المهم أن نفهم أن آثار سقارة ما هى إلا بناء من الحجر
 لعمارة كانت معروفة فى العصر الثانى وعصر ما قبل الأسرات .
 والمجموعة الجنائزية لزوسر علامة على أوج ازدهار هذا الفن ، وهى فى
 الوقت نفسه نقطة انطلاق من جديد إنه فن عصر الدولة القديمة .
 لاحظت أثناء فحص الأساسات وبناء الهرم المدرج أنه لم يكن مخططاً له
 أن يكون هرمًا ذا درجات لكنه شيد على ثلاث مراحل متميزة بوضوح ،
 ففي البداية ، بدأ إيمحوتب بتشييد مصطبة مربعة طول ضلعها ستون
 متراً ، ثم أضيف إليها فى ناحيتها الشرقية لتغطى سلسلة من الآبار
 تؤدى إلى مقابر الملكة والأطفال الملكيين ، هذه المصطبة ارتفاعها يبلغ
 حوالى عشرة أمتار ، وربما ارتلوا أنها متواضعة ولا ترتقى لأن تكون
 مقراً لفرعون ، وجعلوا منها نواة لهرم أول ذى درجات أربع ، أو كان
 سيتخطى فى ارتفاعه الأربعين متراً ، لاحظ إيمحوتب أن الاتزان الذى
 عليه البناء يسمح له بالزيادة فزاد فيه عن ستة درجات ، والدرج هنا
 يصور السلم الرمضى الذى يستخدمه الملك فى الصعود للسماء ، كما تذكر
 نصوص الأهرام ، وصعود روح الملك المتوفى نحو أبيها رع ، وقد جعل هذا
 التعديل الأخير من الهرم بناء ضخماً بلغ ارتفاعه حوالى الستين متراً ،
 وساءت نفسى عما إذا كانت المصطبة الأصلية ، والتى جاءت فى عدة

كتل حجرية جيرية من الذي احتوت عليه ، إذا ما كانت هذه مخصصة لحورس سانخت شقيق زوسر وسابقه، وعثر على طبقات أختام في مخزن للفخار إلى الشمال من المعبد الجنائزي باسم هذا الملك .

حتى وإن أبدت بعض النظريات عكس ذلك ، فإننى على يقين من أن مقبرة زوسر هي أول نموذج لهرم مدرج، فلو كانت هناك آثار ذات درج قبل ذلك لقلنا إن إيمحوتب شيد هرمًا مدرجًا على غرارها . تذكر اكتشافات حديثة في جنوب مصر أهرامًا مدرجة ارتفاعها حوالى خمسة وعشرين مترًا ، لكن تاريخها غير مؤكد ، هذه الأعمال لا علاقة لها بالمجموعة المتكاملة التى أبدعها إيمحوتب، الذى كان مهندساً معمارياً وكبير كهنة هليوبوليس، فكان كبير الرائين(*) والمهندس المبدع ، فقد نفذ أمنية الملك فى أن يكون قريباً من الآلهة .

لقد مكّنت إيمحوتب عبقريته من التغلب بالفعل على تقاليد راسخة جدا فى هذا العصر ، ومنح نفسه حرية الابتكار ، وكنت أول مفتون بكل الاكتشافات التى قمت بها على مر السنين ، وعندما كان فيرث هنا كنت أتحدث معه وأخبرته بافتراضاتى ، ومن هنا كانت بيننا سهرات ملؤها النقاش وتبادل الآراء ، ويبدو لى أحياناً أن أصواتاً تبعث بعد طول رقاد قوة لا تقاوم تقودنى ، ويأخذنى سحر هذا الفن المعماري العجيب .

(*) كبير الرائين: لقب كبير كهنة الشمس فى هليوبوليس، وهو بالمصرية القديمة Wrm 33 .
(المترجم)

عمل جبار

سرعان ما عرفت أنه لكى نفهم ذلك الذى فى عمومها ما هو إلا كومة من الأطلال ، هو مكان دفن الموتى ، كان من الضرورى أن نفهم مغزاها ، ونظرتهم ورد فعلهم ثم بعد ذلك نستكمل رسم صورة ذلك الذى اندثر ، إنه أشبه بأن تجد التوازن بين الأفقى والرأسى ، كما فى الموسيقى ، بين العازف الموسيقى والنغم .

تعلمت الكثير الشهر الماضى أثناء عملى مع جيكييه عن أسلوب العمل ، ومن جهة أخرى لم أكف عن التعاون معه ، وفى الفترة التى كان فيها فى سقارة ، أى حتى عام ١٩٣٦ ، كنت أزوره فى موقعه لأقوم بالرفع المعمارى للآثار التى يكتشفها ، وهكذا استطعت عمل تخطيط متكامل للمجموعة الجنائزية لهرم بيبى الثانى ، آخر كبار ملوك الأسرة السادسة ومعابده ، وأهرام الملكات ، وهرم عبا من الأسرة الثامنة . وأنجزت كذلك الرفع المعمارى للحجرات الداخلية لهرم خنجر من الأسرة الثانية عشرة ، وهرم آخر أكثر ولكنه غير مكتمل من العصر نفسه ، ولكن نظامه من حيث البناء وإحكام أجزائه رائع ، المشكلة الكبرى التى تشكلها المجموعة الجنائزية للملك زوسر هى ماذا عساه تقلد هذه المجموعة ؟ مع العلم أن

هذه المجموعة كانت أول مبان مشيدة من الحجر، فلا يوجد مثال سابق ، ولم يأت بعدها مثلها . وكان بالتالى لدى عمل فريد لا أملك منه إلا بقايا . فى عام ١٩٢٧ كانت معرفتى بالعمارة المصرية القديمة معرفة مجملة وعامة ، وهذا ربما يبدو معوقاً ، لكنه على العكس كان مصدر قوتى ، فلعدم معرفتى السابقة تكونت الصورة فى مخيلتى مع مرور الوقت ، وذلك من خلال العناصر المعمارية التى اكتشفتها كل يوم .

تتابعت أعمال إزالة الرمال من حول الهرم ، وفيرث التى تسيطر عليه فكرة اكتشافات جديدة مبهرة ، وضع لذلك إمكانيات كبيرة ، شيد نظام خطوط حديدية تفرغ أطناناً من الرمال فى عربات السكك الحديدية ، حتى إن عماله أزالوا الأنقاض فى أيام معدودة . يبدو أكثر فأكثر بعيداً عن زمن كان فيه شامبليون لا يرى إلا سهلاً معتداً تقطع رؤيته أمهرام ، وتتناثر به هضاب من الرمال يغطيها حطام الفخار القديم وأقمشة الموميאות ، والعظام المهشمة والجماجم المصرية بالصحراء من نتائج الحفائر والتنقيب ، " يبدو نادماً على أنه نصب خيمته هنا فى هذا المكان المنعزل لأنه كان يحلم باكتشاف جبانة كبيرة مليئة بكل عجيب . فلم يجد أمامه سوى أطلال الآثار التى تركها وراءهم لصوص المقابر ، آثار عانت على مدار آلاف السنين ، وما تبقى مدفوناً فى باطن جبال من الرمال .

وبالتالى ، تمت الحفائر فى الموقع بشكل جزئى بواسطة مارييت وماسبيرو ، لكن هذين العالمين الكبيرين لم يتخيلا وجود آثار حول الهرم المدرج ، وفى عام ١٩٢٧ كانت قاعدته لا تزال مدفونة فى الرمال .

فى البداية ، عهد إلى فيرث بفحص المبنيين الأولين اللذين ظهرا فى عام ١٩٢٤ ، ومهمتى كانت استخدام العناصر المعمارية بعد فحصها لإعادة البناء المعمارى للآثار التى شادها إيمحوتب ، ولأن هذه المباني لم تكن أهرام ملكات ؛ فكان عليه أولاً معرفة وظيفة هذه المباني ، ولأننا نجهل كل شئء عنهما فقد افترضنا أنها مقابر للآباء الملكيين اللذين تظهر أسماؤهم مع حورس نثرى - خت على بقايا لوحات ، فيما بعد ونظراً لنقص الدلائل الدقيقة ، لقبوها ، "بيت الشمال" ، و "بيت الجنوب" ، وعثرنا على قطع عديدة من أعمدتها الأربعة المحطمة والمقاة على الأرض ، ثم واجهت العمل الشاق .

لقد علمنى جيكييه أصول علم الآثار المصرية ، لكن أمام الأطلال تملكتنى الشكوك ، ما وظيفتها ؟ وسرعان ما تنبته إلى أن أهم سلاح أحمله معى فى مواجهة الزمن هو الصبر . وهذا أمر رئيسى ومهم لى أستطيع مواجهة العمل الذى سيستغرق حياتى كلها . وأخذت أفحص الناحيتين : المعمارية والفنية ، ولما كنت إنساناً عملياً ومدققاً فى التفاصيل ، فقد تقدمت فى العمل بنظام تخطيط على الأرض واضح نسبياً ، لكن الأجزاء العليا من المباني تهدمت واستخدمت فى عمليات التحجير فى العصور الوسطى ، وكان على دراسة كل الكسر الحجرية المتناثرة على الأرض ، فهذه الأحجار فقط تحمل لى الكثير فيما يتعلق بالبناء . ومكان كل حجر فيه ، وبدأت فى تجميع كل العناصر المعمارية المتناثرة على الأرض لتحليلها بتفصيلاتها كلها ، وأخذت مقاساتها وأعطيها

أرقاماً بالترتيب ، وعملت لها تصنيفاً حتى يأتى اليوم الذى أضع كل حجر منها فى مكانه ، وكان عملاً طويلاً ، طويلاً جداً .

الكتل المقوسة الشكل ، والتي كانت تزين الواجهات مباشرة فوق تيجان الأعمدة ساعدتنى على استعادة عناصرها الموجودة على الأرض ، وبعد عدة أسابيع من البحث والتردد توصلت لأن أضع لكل عمود جذعه الأسطوانى ، وتوصلت مع نهاية موسم الحفائر الأول بالنسبة لى ، والأمـر هنا لا يخلو من بعض الشعور بالفخر ، وعندما انتهيت من عمل إعادة تشييد الواجهة كاملة على الورق ، لم يكن محل نقاش أن الوقت لم يحن بعد لعمل إعادة بناء حقيقية ، ومع استمرار الحفائر لم أنس هذه الجملة الواضحة التى قالها جاك نو مورجان : السعادة عند العثور على شىء لا تكمن فقط فى امتلاكه ، ولكن تأمله والتفكير فيه يشكل جزءاً من الإحساس بالسعادة .

على أيام فيرث ، كانت الحفائر تتم فى مناخ عمل متواصل وحماسى ، ولم يعد الحال هكذا منذ وقت طويل لقلة الإمكانيات المادية ، مئات العمال بالموقع يعملون تحت قيادة الرئيس والعديد من مساعدى الرئيس . فى مصر يوجد العديد من أسر رؤساء العمل ، يربيهـم أبائهم على مدار أجيال ، يصبح هؤلاء مهرة فى هذه المهنة ، وحتى فى فترة الحرب كان لدينا رؤساء عمال ممتازون ، لكن لم نجد لهم خلفاً فى مستواهم ، فى الكرتك كان علماء الآثار لديهم الحظ لوجود حرفيين مهرة ؛ لأنهم كانوا يتقاضون أجوراً جيدة ، أما اليوم فى سقارة فالعمال المهرة مجرد موظفين يأتون للموقع ، عندما يكون الأمر على هواهم .

فى العشرينيات ، العمال المتخصصون الذين تدربوا على أيدي عالم المصريين الإنجليزي بترى ، كانوا يأتون من الصعيد ، وكان يعهد إليهم بالمبتدئين القادمين من القرى المجاورة ، يعمل أطفال كثيرون بمواقع العمل ، وهم أكثر مهارة ممن يكبرونهم ، وأقل تهاوناً لأنهم يأخذون العمل كئنه لعب ، يغنون ، ويجرون ويتسلون محدثين جواً من المرح فى الموقع . حالياً يذهب الأطفال للمدرسة ، عمل معى اثنان من "الكوفت" الذين يستعملون بمهارة "التورية" ، وهى أداة تستعمل لاستخراج الآثار من تحت الرمال ، ويعرفون أحكام الإمساك بالآثار المدفونة فى الأرض بحرص وحذر ، ويصعدون بها الواحدة وراء الأخرى . عملية إعادة البناء وتخطيطات المباني على الأرض كانت واضحة ، لأنها بقيت محفوظة على بعد متر أو مترين فى الرمال ، ثم بدأت أواجه هذا العمل الضخم المريك فى الوقت نفسه لدرجة أننى أصبحت خاضعاً له ، أصبحت الدنيا كلها ما هى إلا هذا الحقل من الأطلال التى تلاحق أيامى وليالى . وعندما يتبلور شكل أو تخطيط معمارى واضح ، أدخل فى عالم من البهجة التامة ، أستيقظ كل صباح فى الفجر وأعمل بلا كلل وحتى أثناء النهار تحت أشعة الشمس الحارقة ، لقد نسيت حتى العزلة ، هذه العزلة الخاصة فى الصحراء ، هذه التى تصبح فى يوم أو فى الآخر لا تطاق ، أما أنا فقد تحملتها . إننى حقاً أحب الصحراء .

بالتوصل لآثار الأشكال المعمارية وإعادة حساب النسب فى هذه المباني بأسلوب لا يزال غير معروف فى مصر ، اكتشفت شيئاً فشيئاً تجارب طريقة لنقل العمارة الطينية من العمارة الحجرية ، أو تلك الخشبية

وكذلك أعواد البوص ، فهي تمنح للبناء بالحجر محلية كنتك التي نعرفها عن بداية العمارة اليونانية في المعابد الدورية . هكذا توضح نسب الأعمدة التي تقلد في الحجر حوامل من الخشب أو جذوع النخل أو التقوسات الجميلة لأسقف تمثل تلك المقاصير الصغيرة التي كانت تبني باستخدام البوص وتحتوى على تماثيل المعبودات .

أبواب هذا "المقر الأبدى" كلها أبواب رمزية شكلاً فقط ، تنحت في الحجر ، بعضها ينحت على أنه مفتوح والآخر على أنه مغلق ، ويوماً ما فهمت أن هذه المجموعة لا تؤدي سوى نور رمزى ، لأنها ما شيدت إلا من أجل روح الفرعون ، وفهمت كذلك لماذا لم تحتو هذه الفتحات سوى أبواب وهمية ، فهذه تعمل وبشكل مثالى بناء على أوامر سحرية من الكا الملكية .

فى نهاية بعد الظهر ، يترك العمال الموقع ، وأنداك أعود لمنزلى على قدمى ، على بعد حوالى كيلو متر من هنا ، أحببت كثيراً المشى ، خاصة فى هذا الفضاء الموحش ، ينتظرنى محمد بالشاي المعد والموضوع على منضدة خشبية ، أجلس فى مكتبى حتى وقت العشاء ، وأقوم بتدوين الملاحظات ورسوم العمل لهذا اليوم ، وكنت أجدنى مشتاقاً لتلك الأوقات التى أجدنى فيها أمام أشجار النخيل ، وعندما يخفت الضوء تصبح السماء ذات لون أصفر شاحب ، أجلس فوق الهضاب فى الليالى المقمرة أتأمل السماء الصافية وزرقتها ، ذلك البحر الضخم الذى تشكله الصحراء حيث تنبتق هنا حياة دافئة ، أحس وكأن أرواح الآلهة المخفية تعود لكى تظلل هذا الكون .

رأبطة فى الصحراء

على الرغم من قسوة الوجود فى الصحراء ، فإن هذا لا ىنى
يجذبنى إليها ، وفى مارس تهب رياح الخماسين بغبارها وحراراتها
التي تبعث على الخمول والنهم ، كما يقول مارييت - وهذه الرياح تهب
كأنها ضربات سياط وتستمر ربما لمدة خمسين يوماً ، تحتجب السماء
فجأة ، وتختفى الشمس فى الأفق كذلك ، وتغبر الأرض تحت دوامات
الرمال التي تحيل الصحراء لمحيط من التراب والغبار .

اكتشفت معنى الصحراء ، عندما يشتد الحر يصبح الأمر لا هوادة
فيه ، حرارة الشمس الحارقة تجفف المناخ ، وتثير الرمال وتشقق الأرض
وتفتت الأحجار ، عوامل التعرية العنيفة هذه كانت أعدى أعداء آثار
زوسر ، والعامل الرئيسى فى تدمير كتل ليست من الآباستر ولا من
الحجر الرملى ولا من الجرانيت ، ولكنها من الحجر الجيري الجيد
والهش جداً . فى الصيف تجفف الشمس الأحجار وفى الشتاء هجوم
البرد المفاجئ ليلاً ، فى جو من الضباب المحمل بالرطوبة صباحاً يجعل
الأحجار تتشقق ، وهو مصير مدمر ، ولا توجد وسيلة للاحتماء منه
أو مواجهته .

أصبحت جبانة سقارة بفضل لأكو منطقة نفوذ للإنجليز حيث يعيش الكثير منهم فيها وخاصة العجوز كوييل ، إسكتلندي نولحية بيضاء ، ويعبر عن نفسه بأسلوب فرنسي بديع ويتحدث الإنجليزية بشكل رائع ، إنه هو الذى عشر فى عام ١٨٩٨ على "صلاية نعرم" الشهيرة ، وهى واحدة من روائع الفن المصرى - هذه الصلاية مصنوعة من الشست ، وتحكى انتصار الصعيد على الدلتا وتوحيد مصر لأول مرة فى التاريخ . عين جاستون ماسبيرو كوييل فى عام ١٩٠٥ كبير مفتشى سقارة ، وكان ماسبيرو آنذاك مدير مصلحة الآثار خلفاً لفاريت ، وغادر الموقع منذ اندلاع الحرب فى عام ١٩١٤ . وهو عالم آثار جيد ، وقد نشر العديد من الكتب عن أعماله واكتشافاته ، وخاصة اكتشافه لدير الأنبا إرميا ، الذى أبدى دقة واهتماماً بدراسة الحضارة والفن القبطى . هذا الكشف تم بمحض الصدفة ، فأتناء موسم شتاء ١٩٠٦ اضطر كوييل ولأسباب فنية أن ينقل عماله إلى الموقع الذى يحيط بالطريق المؤدى لدخل الجبانة ، وعند إزالة الرديم ظهرت - ويا للدهشة - دفنات فردية تحتوى فى جدارها الشرقى على كوة مستديرة مرسوم بها المسيح والعذراء والملاك . ونقوش قبطية تحوى أدلة على أننا فى دير قبطى هو دير الأنبا إرميا المقام أواخر القرن الخامس والدمر نحو عام ٩٦٠ على يد العرب ، ثم بمواصلة العمل ، أبرز الأثر للوجود ، فناء نوبلاط فى أرضيته ، صغير وجميل مئمن الأضلاع ، المستشفى ، قاعة الطعام ، ومقصورة مربعة الشكل ، ثم على مسافة قليلة جنوباً بقايا

الكنيسة الرئيسية ، وفيما بعد تم الكشف عن ثلاث كنائس أخرى مدفونة في الرمال . وذهبت المكتشفات إلى المتحف القبطى بالقاهرة القديمة ثم غطت الرمال الدير مرة أخرى .

انطلق كوييل فى عام ١٩١٠ فى اكتشاف جبانة العصر العتيق بكل نشاط ، وبلا ملل ، لا يقطع عمله إلى سهرات بعضها فى منزله الكبير فى جنوب سقارة . حيث كان على كل ضيف أن يحضر هذه الأمسيات بزي خاص ، وأحذية لامعة نظيفة . وتقع هذه الجبانة غرب قرية "أبو صير" ، حيث اكتشف حوالى خمسمائة مقبرة ومصطبة من الطوب النني ترجع لعصر الأسرتين الثانية والثالثة ، وكذلك اكتشف مقبرة كبيرة ترجع لعصر الملك آجر من الأسرة الأولى ، وهذه بلا شك اكتشافات مهمة ، لأنها ترجع لعصر قديم جداً ومعرفتنا به قليلة ، وكوييل كذلك هو الذى عثر - بفضل أحد عماله الذى بدأ عمله صبيّاً مع ماريت - على موقع المصطبة الكبرى للمدعو حسي رع ، الشخصية الكبيرة فى الأسرة الثالثة ، والذى عاش فى عصر الملك زوسر . هكذا تبدو سقارة منجماً لا ينضب تمدناً يوماً بالجديد من المكتشفات .

نظراً إلى أن فيرث الذى عمل مع رايزنر فى مواقع لا توجد بها نصوص إلا فى النادر جدا ، فإن الهيروغليفى لم يكن مشكلة ولا قضية مثارة لأى منهما ، لكنهما وعندما بدأ فى التعامل مع نصوص هرم الملك تقي ، مؤسس الأسرة السادسة ، فقد استدعيا باتيسكومب جن ، المتخصص اللغوى الإنجليزى الأصل ، وكذلك كوييل الذى جاء خصيصاً

من إنجلترا ، بدا لى جن يوماً رجلاً غريباً ، ومتقلب المزاج ، لكنه كان واحداً من قلائل علماء اللغة المشهورين على أيامه . استقر مع زوجته الشابة فى سقارة فى بيت صغير يقع على مقربة من بيت فيرث . فى البداية علاقتهما كانت متينة يسودها الاحترام المتبادل ، ولقد نشر الاثنان معاً الجزء الأول عن الحفائر بهرم تتى وجزءاً آخر كان فى الإعداد، ويفضله أحرز فيرث تقدماً فى معرفته باللغة المصرية القديمة .

ولسوء الحظ والسبب لا يستطيع أحد فهمه ، فإن زوجه لم تعد تطيق هذه الجيرة ، وكانت ذات طبيعة انطوائية سرعان ما اعتراها الاكتئاب عندما علمت بأمر حملها، وسلوكها أصبح هستيرياً وغريباً ، ولم يعد أحد يجرؤ على زيارتهم.

وذات يوم استطاعت أن تضغط على زوجها ليعترك المكان بحجة أنه يكون مضطراً للمرور من أمام بيت فيرث فى كل مرة يذهب فيها لموقع الحفائر ، ووصل الأمر بها إلى الشكوى بأنهم يراقبونهم فى ذهابها وإيابها ، لدرجة أنها فقدت إحساسها بالحرية ، وفى محاولة منه لتهدئتها قام فيرث بإسكانهما فى المنزل القديم الخاص بماربيت ، وهو بمعزل تماماً على الطرف الغربى من الموقع فى قلب الصحراء ، والأعمال المشتركة بين الأثريين تجبرهما على الزيارة المنتظمة . وذات يوم تراءت لفيرث فكرة منحوسة، وهى اصطحاب كلبه "بنى وجين" فى زيارة لعائلة جن ، وكان فى استقباله الكلب الصغير الخاص بدمام جين وكان عدوانياً جداً، وأخذ الكلاب فى النباح والمراك ، خرجت على أثره دمام جن

تصرخ محاولة الفصل بينهما لاسترداد كلبها الصغير ، لكن أحد كلبى فيرث عضها فى يدها وكانت دراما ، فقد كانت حبلى ، وطلب جن من فيرث شهادة تثبت أن كلبيه خاليان من مرض الكلب ، وعبثاً حاول فيرث طمأنته لكن جن أصر على طلبه ، وكما هو الحال عندما اعتقد فيرث أنه على حق أصر هو الآخر على موقفه ، فهو يرى أن كلبيه لو كانا مصابين بداء الكلب لظهر ذلك واضحاً عليهما ، فهذا المرض يتطور بسرعة عند الكلاب . وبدأ حوار الصم الذى انتهى بانقطاع الصلة بين الرجلين نهائياً ، وكنا كلنا فى الموقع لا ندرى ماذا نفعل إلا فيرث الذى كان جريئاً واستمر يتنزه مع كلبيه بنى وجين ، ولفرط غيظه طلب جن مغادرة سقارة ، ونقله بير لأكو إلى المتحف المصرى على أمل أن يداوى الزمن الجراح . وهناك وجد جن فى ريجنالد إنجليخ - كبير مرممى الآثار - حليفاً ، وكان هذا الرجل ذا شخصية قوية ، صلباً ، يكره فيرث ، ويعد عدة أشهر قضاها بالقاهرة غادر جن نهائياً لأمريكا . والدراما هنا تتمثل فى أنه ترك جزءاً مهماً من الحفائر لا يستطيع فيرث وحده أن يستكملها ، وهكذا فإن الجزء الثانى من هرم تنى لم ير النور أبداً . جعلت هذه الحادثة لأكو يغضب ، وما زاد من غضبه رؤيته لعمل مهم كهذا يفسد بهذه الطريقة الحمقاء ، وابتداء من تلك اللحظة طلب متخصصين فى الحفائر ، وفى الوقت نفسه لهم دراية كاملة بالنشر .

لم تكن مدام جن هى الوحيدة التى لم تتحمل المعيشة فى سقارة ، حيث لا يتحمل الصحراء بقساوتها ويشدتها إلا من عنده الجلد على مواجهتها ، فعندما تكون الشخصية مضطربة أو ضعيفة تفقد القدرة

على مغالبة العزلة والوحدة . ذات صباح حزمت مدام فيرث حقائبها ، وعادت إلى لندن مع ابنتها ديانا ، تاركتين فيرث يواجه مصيره ، ووجدنا أنفسنا ، كويبل وفيرث وأنا كئثنا صبيان كبار منهمكون فى عملهم الروتينى اليومى ، وكل واحد يهوى عمله هذا بالموقع ، ومن وقت لآخر كان يقترح فيرث جولة بعد الانتهاء من العمل آخر النهار للقاهرة لرؤية الأحياء ، فندس فى العربة الفوردي القديمة التى تؤجرها مصلحة الآثار ونذهب ثلاثتنا لئأخذ كناساً فى أحد الأندية المختارة فى المدينة العصرية . ذات مساء ونحن على المائدة فى نادى الطارف ، تعرفنا على الطبيب الذى كان يأتى هنا للمرة الأولى وكعادة فيرث المستعد للمزاح فى أى وقت ، بادره قائلاً : نحن متشابهان، فأنت ترى الناس قبل الموت ونحن نراهم بعده . وضحكنا إلا هذا الطبيب الذى ذهب وتركنا بون أن يحيى فيرث .

من الأشياء المسلية بالموقع كانت الزيارات ، ذات صباح وصل لأكو مع الملك فؤاد ، وكنا على علم مسبق بأمر هذه الزيارة وارتدينا ملابسنا الأنيقة ، وتبعنا الملك وحاشيته فى زيارة يقودنا فيها مرشد مدير مصلحة الآثار ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها هذا الرجل الذى نجح فى تحرير مصر من الحكم العثمانى . أثناء الملكية سواء عهد فؤاد أو فاروق نعمت الآثار باهتمام الحكومة . لم يتردد هذا الملك فى زيارة المواقع الأثرية والحفائر ودعم فريق العمل وتأييد مدير مصلحة الآثار ، وفيما تلا ذلك لم أر إلا الرئيس جمال عبدالناصر ، الذى جاء لافتتاح مقبرة اكتشفها أثرى مصرى ، وفيما عدا ذلك لم يهتم أى رئيس

بآثار بلده ، وكأن الحكومات كان لديها ما هو أهم من الآثار للعناية به وهذا شيء مؤسف . لإنقاذ الآثار منذ عدة سنوات دعيت لحفل بالقاهرة وتنقلت من صالون إلى صالون حتى قابلت فى حجرة خالية وجهاً لوجه الرئيس مبارك الذى كان يجهل بطبيعة الحال من أكون ، وتقدمت لتحيته ولم أقل أكثر من : "هل تعلمون سيادتكم أنى منذ ما يزيد عن ستين عاماً وأنا أعيش فى سقارة" . فتفحصنى قائلاً "حسناً ! لقد عرفت مصر قبلى ! " . بعد مضى عدة أسابيع على زيارة الملك فؤاد أعلنوا عن قوم كبير المرممين للآثار المصرية بمتحف اللوفر شارل بورو ، وكان رجلاً صعب المقاتلة ، طويلاً ، أنيقاً ، ويرتدى ببيوتة وغطاء رأس كولونيال ، ويرد على مخاطبيه باقتضاب بإرجاع رأسه للخلف باستعلاء ، واستقبله فيرث بحرارة وحماس فهذه طبيعة شخصيته ، وظن أن وجود فرنسى فى سقارة سوف يسعده فأسرع يقدم مهندسه ، وبالتالي اصطحبتهم طيلة الزيارة ، وفى لحظة الوداع أفاض كبير مرممى اللوفر فى الثناء والشكر واستدار نحوى وقال بلهجة احتفالية جداً : "أود أن أهنتك أيها السيد للأسلوب الجيد فى الحديث بالفرنسية دونما أى لحن" . بعض الدهشة اعترتني وأجبته "إننى فرنسى وهذه هى اللغة الوحيدة التى أتحدثها !" واعتذر أنه لم يستطع أن يحفظ اسمى ، فقد جعلنى أكرره قبل أن يسألنى إذا ما كنت ابن فيليب لوير زميله فى جمعية عشاق الآثار فى فرنسا ، ويعد إجابتى المؤكدة لهذا ، خاطب فيرث وأضاف بود : "حسن أن تشارك هنا ، ربما فى بداية مسيرة عالم مصريات ناجح" ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يتخيل المدة التى سوف أعيشها هنا . أمل فى تعلم الإنجليزية

لما يشقى للإنجليزية، ففي الإعدادية لم أدرس إلا الألمانية ، ولسوء الحظ فإن كوييل وجن يجيدان الفرنسية ، وبالتالي وجدا ، مثل فيرث ، أنه من الطبيعي أن يتعاملا معى بالفرنسية ، وبالقراءة استطعت أن أتفهم الإنجليزية خاصة في مجال الآثار ، وذات يوم أشار فيرث إلى خطأ ساذج وقعت فيه على تخطيط قمت به فى إطار تقرير حفائر سوف يظهر فى حولية هيئة الآثار، حيث جعلت السهم فى اتجاه مشيراً إليه بالحرفين N.M (الشمال المغناطيسى) بدلاً من (الشمال المغناطيسى Magnitic North) أضاف فيرث أن هذا الخطأ لاحظته الأمين العام للمصلحة، عالم المصريات الكبير والشهير هنرى جوتييه وهو المسئول عن النشر العلمى عمل ملاحظة حول هذا الخطأ ، ويلهجة عنجهية قال إنه الفرنسى الذى وجد نفسه مضطراً لتصويب الأخطاء الإنجليزية لزميله ، وكتب لى فيرث "ملاحظة : عندما ترى الأمين العام اسأله إذا ما كنا نقول بالفرنسية عالم خنزير أم خنزير عالم ؟" .

لدى صديقتى حتشبستوت

دعانى هنرى شفرييه لزيارة الكرنك عندما انتهيت من أول موسم حفائر فى عام ١٩٢٧ ، فلقد قام باكتشاف سوف يقوده لأعمال تقترب من تلك التى بدأت فى سقارة : إعادة تشييد الآثار من خلال القطع الأثرية الأصلية التى عثر عليها ، وفى هذا الوقت كانت هذه الخطوة جديدة تماماً ، يصل الأثريون إلى الموقع وفى رأسهم فكرة واحدة : الحفر ، ومن ثم كثرت الآثار المكتشفة ، أما الصيانة والحفظ والحماية فهى الكلمات السائدة لدى أثارىي اليوم . قدمت لى دعوة شفرييه الفرصة للقيام بأول رحلة صباح اليوم التالى على رصيف الأقصر ، جو المحطة لا يختلف عن جو محطة البدرشين ، فرغم أننا كنا فى ساعة مبكرة من الصباح ، فإن الناس يتدافعون فى كل اتجاه ، وكان شفرييه لطيفاً ؛ إذ بعث لى عربة خيل عبرت بى المدينة التى لم تكن آنذاك سوى عزبة كبيرة تمتد على شاطئ نهر النيل ، والبيوت البيضاء العربية التى تتخلل أشجار النخيل بدت لى ساحرة ، المعبد الكبير بغابته الكثيفة من الأعمدة الأوزيرية والذى نظفه ماسبيرو القرن الماضى ، يبدو مازال حقلًا من الأطلال ، ويجواره مباشرة يقع فندق وينتر بالاس بواجهته الجصية

التي تشوّه جمال الطبيعة ، وعلى الضفة الأخرى رأيت سلسلة الجبال
الليبية ولاحظت من بعيد تمثالي ممنون الشهيدين .

يفصل معبدى الكرنك والأقصر ثلاثة كيلو مترات ، وعندما وصلت
إلى المدينة القديمة وطيبة ذات المائة صرح ، وقفت مبهوراً أمام هذا
القصر العملاق ، الأطلال تمتد في كل مكان ، إحساس لا يوصف ،
الكرنك الذى شيد فيما بين الأسرة ١٢ والعصر الرومانى ، يقدم
مجهودات ثلاثين قرناً . شفرىيه وسابقوه لم يخشوا من آلاف الأطنان
ولم يرهبوا آلاف السنين عندما أقدموا على العمل هنا فى هذا الأثر ،
ومن قبلهم مارييت استسلم ولم يقدم سوى تخطيط ، وكل شيء يبدو من
عمل مخلوقات أخرى ، وليس من صنع بشر . شيفرييه وهو مهندس
معمارى مثلى ، استقبلانى بحفاوة ، فهو يفيض حماسة وحيوية . وبدأت
زيارتنا للكرنك بالصالة الضخمة ، صالة تحوى ١٣٤ أسطواناً ، داخل هذه
المساحة التى تبلغ ضعف مساحة نوتردام نوبارى . أصيبت بالدوار ،
وأوضح لى شفرىيه أنه ينوى تقوية قواعد هذه الأعمدة التى أضعفتها
الزلازل ، والتى ترتفع لأكثر من عشرين متراً مغطاة بالهيروغليفية ،
وبعد عدة سنوات انطلق فى هذا العمل المضى .

وبعد عدة أشهر من العمل اكتشفت بداخل إحدى السقائف
الضخمة العشرة ، التى نسميها صروحاً ، آثار أكثر قدماً ، وبعد فحصها
استخلص أنها ترجع لعصر الدولة الوسطى ومكرسة للملك سنوسرت
الأول ، وكان لدى الفراعنة عادة هدم آثار سابقيهم ، بهدف القضاء على

شخصية من شيدها . ثم يستخدمون هذه الآثار والأحجار في تشييد آثار خاصة بهم ، وليسوا وحدهم الذين يتصرفون هكذا ، فنحن نعرف على سبيل المثال أن مطالع كاركاسون تحتوى على عناصر من العصر الرومانى . وكانت قطع من مقصورة سنوسرت الأولى مستقرة فى داخل حشو صرح أمنحوتب الثالث ، فرعون من الدولة الحديثة منذ ثلاثة آلاف عام ، وهذا اكتشاف نادر وتحقق شفريرييه من أن الأثر كامل ويحوى زخارف ونقوشاً تحمل معلومات مهمة عن الفن والديانة ، وبدأ لأكو يتعامل مع النصوص ثم باشر شفريرييه بصبر بالغ إعادة بناء هذه المقصورة الضخمة ، ونظراً لاستحالة التعرف على مكانها الأصلي فقد اختار مكاناً خالياً بجوار سور معبد آمون الكبير ، فلم يتبق من الدولة الوسطى سوى أطلال قليلة جداً فى معابد الكرنك ، وأسموا هذه المقصورة باسم "المقصورة البيضاء" بسبب لون الحجر ناصع البياض . والنقوش أتاحت لنا أن نعرف مدى إتقان معماره وبنائه ، وكذلك للأسف، مدى حجم الخسارة التى خسرتها فى ما تبقى من آثار ترجع لهذا العصر .

ولم تتوقف مكتشفات شفريرييه هنا ، ففي عام ١٨٩٨ عثر على كتل من الجرانيت الرمادى والكوارتز الأحمر وعرفوها على أنها كتل أعيد استخدامها فى مباني الكرنك ، واكتشف شفريرييه أحجاراً أخرى مماثلة ، وفى عام ١٩٣٠ تجمعت أحجار تمكن من إعادة تشييد نظرية لأثر أو مبنى ، وفى عام ١٩٤٠ صنف لأكو ٢٠٥ كتل حجرية وانتظرت الـ ١٥٠ كتلة أخرى غير الموجودة ، وانتهت بأن أعاد بناءها فى عام ١٩٩٩

المهندس المعماري المسئول عن البعثة الفرنسية المصرية بالكرك فرانسوا لارشى ، هذا الأثر عرف باسم "المقصورة الحمراء لحتشبسوت" ، وهي المبنى الرئيسى لمتحف فى الهواء الطلق على أرض الكرك ، وحول المقصورة توجد مجموعة آثار أعيد تشييدها ، باستخدام كتل حجرية كانت مستخدمة فى حشو الصروح .

تعتبر حتشبسوت ملكة ذات شخصية أسطورية فى التاريخ المصرى ، فهي المرأة الوحيدة التى اعتلت عرش مصر بكل الشارات والألقاب الخاصة بفرعون ، وأحدثت ثورة حقيقية على ضفاف النيل ، ولنا أن نتخيل الذهول الذى اعترى الشعب والعجب الذى ملأ رؤوس الكتبة الذين كان عليهم أن يكتبوا ألقابها فى صيغة المؤنث ، وهو الأمر الذى لم يألّفوه ولم يعهدوه من قبل ، وكذلك النقوش اتسمت بالأنوثة الناعمة ، فهي أولاً بوصفها زوجة لتحوتمس الثانى أكدت اشتراكها فى الحكم عند وفاة زوجها عام ١٢٩٨ أو ١٤٨٣ ، ثم هى بوصفها ملكة أرادت أن تقهر كهنوت آمون ومن ثم ارتدت زى الرجال واللحية الملكية، وأمسكت بالمذبة وارتدت التاج المزدوج لمصر العليا والسفلى ، واتخذت الألقاب الملكية الخمسة ، ويبدو أنها لعبت دوراً إيجابياً تجاه بلدها فقد أطلقت برنامج تشييد طموح ، وفتحت الحدود للتجارة ، وابتكرت للمرة الأولى نظاماً للتبادل التجارى السلمى بين البلدان .

واحدة من الرحلات الشهيرة حملتها الشهيرة لبلاد الأسرار ، بلاد بونت ، وجلبت منها بضائع نادرة : خشب الأبنوس والمرمر والعاج

والبخور ، ونقشت قصتها على جدران معبدها ، ويموتها أسرع خلفاؤها
الذين كانوا ينتظرون بحنق وغضب من هذا العهد الذى أربك التقاليد ،
لكى يكشطوا أسماءها ، استخلص شامبليون بعد دراسة دؤوبة لخرايطها
المكشوفة أن هذا الأثر ينتمى للملكة فى هذا العصر، كان المعبد فى حالة
يرثى لها ، فقط عدة مداميك من الجدران هى التى فى مكانها هنا وهناك .
فى عام ١٨٥٨ وجد مارييت صعوبة فى فهم التنظيم الأصلى للأثر إنه
حقا - يقول هو - يقدم فى بنائه وفى تخطيطه خروجاً على المعتاد ،
الأمر الذى يربكنا مع كل خطوة نخطوها، ويتسائل عند دراسته إذا ما
كنا فى داخل مبنى من أصل مصرى .

فى الحقيقة ، لا يشبه معبد حتشبسوت أى معبد آخر ، أتذكر حالته
فى ذاك العصر وعندما كان لايزال أطلالاً ، ولسوء الحظ عانت مصر من
أثاريين سيئين ، فلقد قرر البولنديون ذات يوم أن يعيدوا تشييده كلية ،
وهو اليوم جدران بيضاء ولم يكن كذلك فى الأصل ، فقد كان منقوشاً
وملوناً ثم فقد الكثير من جاذبيته وبهائه .

أصبح هذا الموقع مشهوراً بالحادثة الأسيفة التى سوف تبقى
وصمة فى تاريخه ، وهى المذبحة التى حدثت فى عام ١٩٩٧ عندما قُتل
ستون سائحاً على يد مجموعة إرهابية .

السرابيوم

كوني محباً للعزلة بطبيعتي ساعدني على التكيف مع هذا الوجود "غير المتمدن" ، فلقد أصبحت الصحراء بالنسبة لى ضرورة ، أقضى أيامى كلها بالخارج فى الهواء الطلق النقى والجاف، والذي يعطينى دوماً طاقة عظيمة ، الصحراء تصون ، تيودور مونود خير دليل على ذلك ، فلقد ولدنا فى العام نفسه مع فارق شهر ، كان عندي الحظ أن يكون لى طيلة عدة أعوام خيول فيرث ، فكنت أجوب الصحراء مقتحماً الرمال البكر والهضاب الصغيرة ولا أسمع إلا أصوات الخيل ، كان بداخلي إحساس بأننى أدخل إلى الفراغ الأبدى ، فلا أحد فى الأفق ، ولا شيء سوى محيط عملاق من الوحدة والصمت ، ولقد وقعت فى غرام الصحراء وأضوائها ، وخاصة فى الصباح الباكر عندما يكون الضوء ودياً زاهياً ، وعندما تكتسى به السماء تباعاً ، وحدث لى ، كما حدث لمارييت من قبلى ، أن تسلقت قمة الهرم المدرج مساءً وبقيت هناك فترة طويلة ألاحظ ما وراء المشهد ، والألوان التى تتبدل من الأحمر المتوهج إلى اللون الداكن ، ثم الصحراء تتحول من الرمادى إلى أن تختفى فى الليل ، ويعترينى إحساس وكأننى فى نشوة ، وكأن أحداً يأخذك ويقترّب بك من الإله .

وفى المساء عندما انتهى من رسوماتى المعمارية للأثار أذهب لزيارة فيرث ، وأمام كأس نجلس نتجاذب أطراف الحديث وهو بشخصيته الساحرة يقص على أشياء وحكايات أفدت منها الكثير فيما يخص مصر والناس ، ولقد أتممت لتوى خمساً وعشرين عاماً والحياة أمامى تفتح ذراعيها ، ففى سقارة أحس بأننى حر طليق تماماً .

يخلو البعض أن يقارن بين مصيرى ومصير أوجست مارييت . حقاً هناك تشابه بين مسارينا ، فلم يكن هناك شىء يجعل مارييت يسافر لمصر ، ولكنها كانت مسابقة عابرة جعلته يهتم بمصر ، شاب مهتم بالتاريخ بدأ عمله مدرساً بسيطاً فى مدرسة ثانوية فى بولونى مير ، عندما تلقت أسرته بشكل لم يكن منتظراً أرشيف ابن عم لهم توفى لتوه ، ابن العم هذا ، الذى يجهل الجميع وجوده حتى هذه اللحظة لم يكن سوى نستور لوهوت ، أحد رفاق شامبليون أثناء رحلته إلى مصر فى عام ١٨٢٨ ، وما تركه من وثائق بها كارنيهات الطريق ورسومات رائعة لرحلته الطويلة بمصر . فى هذا اليوم تغير مصير مارييت ، فقد غاص فى النصوص ، وعندما رفع رأسه كانت مصر قد سرت فى عروقه ، وبعد سبع سنوات من الدراسة المتعمقة المتواصلة حصل من اللوفر على بعثته الأولى إلى مصر ، فلقد طلبوا منه أن يشتري مخطوطات قبطية وسورية لإثراء مجموعات المتحف ، وسافر لمدة ستة أشهر لكنه لم يعد إلا بعد أربعة أعوام بلا مخطوطات ، ولكن بكتر ثمين ، سرايوم منف .

ومارييت شخص جذاب ، ولسوء الحظ ما يزال مجهولاً ، ولقد كتب مختصراً عن حياته لأنه ترك بصمة كبيرة فى سقارة . وعند وصولي إلى سقارة بعد رحيله بخمسين عاماً قابلت أشخاصاً لازالوا يتذكرونه ويعرفونه وخاصة عمال ، كلهم يتذكرون إنساناً كريماً متحمساً طموحاً ، فمن المؤكد أنه كان ذا شخصية غير عادية لكى يقرر فى عام ١٨٥٠ أن يستقر فى صحراء سقارة ؛ لكى يبحث فيها عن مقبرة يعتقد الجميع أنها اختفت منذ زمن طويل . لكن كان مارييت يمتلك فطنة وتخميناً جيداً ، فى وسط الرمال ، لا يوجد إلا ما كتبه سترابون مؤرخ بالقرن الثالث من عصرنا هذا يقول : "يوجد معبد سيرابيس فى مكان مغطى تماماً بالرمال وعندما تنحت الرياح بعض الرمال نرى تماثيل أبو الهول مدفونة بعضها حتى منتصفه والأخرى حتى الرأس ... طريق أبى الهول .. هذا ما كان يبحث عنه ووصل إليه ، وفى نهاية هذا الطريق تتفتح المقبرة الضخمة والفخمة ، وبفضل مارييت بدأت الحفائر الجدية فى سقارة . أشعل اكتشاف السرابيوم فضول الأثاريين تجاه هذا الموقع الذى كان ينظر إليه حتى هذه اللحظة على أنه موقع لا أهمية له . قبل ذلك بحوالى عشرين عاماً ، رحل شامبليون وفى رأسه فكرة أن هذه صحراء موحشة ولا شيء بها يستحق الدراسة " مارييت قال : "سقارة جبانة أكثر قدماً وأكثر حداثة من جبانة الأهرام ؛ لأن العصور كلها منذ الأسرات الأولى وحتى عصر الأباطرة الرومان ممثلة بها " وكان محقاً تماماً ، خلال أعمال التنظيف لطريق أبو الهول الكبير الذى يقود للسرابيوم ، عثر مارييت على تماثيل يونانية - فى منتصف الطريق بين تماثيل أبو الهول -

الأول لبندار : مما جعل رجل الآثار متردداً ، فالتمثال ذو أسلوب رديء ، ومنحوت من كتلة من حجر جيرى معرض للتفتت ، هكذا كتب عنه فى تقرير الحفائر ، المادة مصرية مجلوبة من المقطم ، تمثال بندار من ثم لم يحمل من اليونان لكى يزخرف به معبد سراپيس . ووجوده هنا يبقى لغزاً " ونظراً لسرعة عمله فى سقارة فلم يعثر على نماذج أخرى مشابهة ، والتي تبقى معروضة تحت أشعة شمس سقارة ، ومجمع الفلاسفة هذا كما يسمونه" اختفى مرة أخرى تحت الرمال . اهتم بأن يرسم له رسماً كروكياً" مفصلاً، عثر عليه يوماً والذى فى ملف بالمكتبة الوطنية ، وأرسله لى فى سقارة . وتحديث مع شارل بيكار المتخصص فى الدراسات الهلنستية المشهور ومدير معهد الفن والآثار بالسوريون ، عن هذه الرسومات ، وكان متفقاً معى فى وجوب إعادة دراسة هذه التماثيل معاً ، والتي لم ينشرها أحد من قبل بشكل علمى ، وحصلت من مصلحة الآثار على تصريح بتنظيف هذا المجمع ، ويعتد تبعاً بنتائج عملى إلى شارل بيكار ، وهذا جعلنا نزيح الستار عن الغموض الذى أحاط بوجودهم هنا .

وتوصلنا لاستنتاج أن هذه التماثيل الخمسة عشر ترجع لعصر بطليموس الأول ، حوالى عام ٣٠٦ ق.م ، ووجودهم فى الموقع يرجع للمذهب التوفيقى بين الديانة الإغريقية والمصرية القديمة ، والذى رعاه هذا الملك ، وبالنسبة للشعراء والفلاسفة وعلى رأسهم هوميروس ويقودهم بندار ، فيبدو أن الأمر ذو صلة باحتفاليات الإله ديونىوس ، التى تتم أثناء الاحتفال بأعياد أوزيريس ، حيث تمر مواكب جنازة أبيس ، وقد أكمل عملنا الحلقة المفقودة فى عمل ماريت ، وبذلت كل ما فى وسعى

لحمايته والحفاظ على هذه التماثيل ، وقمت بتشديد كنياف دائري
لحمايتهم ، وتوضيح مكانهم ، وإسوء الحظ لم يعد يهتم بهم أحد ، ولأنهم
بلا حراسة فقد أصبحوا هدفاً لعبث أطفال القرى المجاورة ، وعلى الرغم
من طلبى المتكرر فإنهم لم يعطونى شيئاً أستطيع به حماية هذه التماثيل ،
وكان على أن أتركهم وهم الآن فى حالة يرثى لها ، وربما يأتى اليوم
الذى يخفقون فيه تماماً دونما أن يشعر بهم أحد .

منزله أصبح أثرياً ، وهو مشيد عام ١٨٥١ بجوار موقع العمل فى
السرابيوم ، وبقي بالنسبة لنا نحن الأثاريين الفرنسيين ، مكاناً أسطورياً ،
وسكن به جن بعض الوقت ثم الأنسة إبرون ، وهى سيدة فى الخمسينيات
من عمرها ، أستاذة فى الرسم ، واقترح عليها بيير مونتيه أن تقوم
برسومات المقابر ، ويجب القول إنه ينقصنا رسامون مهرة . هذه الأنسة
العجوز الصلبة سافرت لسقارة ، واستقرت فى منزل مارييت ، ومن يوم
لآخر وجدت نفسها وسط الصحراء ، لا تعرف أحداً ولا تعرف كلمة واحدة
باللغة العربية ، وبالتالي انغمست فى العمل لعدة سنوات فى المقابر ،
وأنجزت عملاً كبيراً ، وبوماً كانت تجد مضايقات من السياح ، ولو أنها
كانت فى أعلى جدار ستجيب بغضب زائراً يسألها ماذا تفعل ، ومنذ
متى تعيش هنا ولماذا ... وعندما كان السؤال المزعج هكذا فى الصحراء
توقفت فجأة عن العمل وقذفت بنفسها من عل فوق أحدهم قائلة : "أود أن
أعرف من يشرفنى بالحديث؟"

- أوه ، اعذرني سيدتى . أجبها مبتسماً : لم أقدم نفسى ،
ألفونس الثالث عشر ملك إسبانيا . وبعد رحيل الأنسة إبرون حول

المصريون المنزل إلى استراحة ، حتى جاء اليوم الذى تجرأ فيه أبله ، لا يعرف من هو مارييت ، وأقدم على هدم هذا المنزل بحجة أنه لا يسع السياح الذين يتدفقون على المكان ، وأقام مكانه خيمة ، ثم شيدت مصلحة الآثار فى مواجهة السرايوم مبنى خرسانياً ليكون مطعماً . ولأن الأرض لم تكن معدة للبناء بشكل جيد فقد غاص المبنى فى الرمل ولم يعد مستخدماً . وعلى مدار سنوات كان علينا أن نتعايش مع هذا المبنى الشائه فى وسط الصحراء ، وبدأوا فقط قريباً فى هدمه منذ فترة قريبة .

اليوم ، أصبح الموقع الذى جعل منه مارييت واحداً من أهم المكتشفات الأثرية مكاناً حزيناً ، فقد أُغلق السرايوم ، وأصبحت خيمة السياح مهجورة ، ومجمع الفلاسفة قدراً ومهدماً .

المقبرة الجنوبية

- الذى سوف أسرده هنا - مر عليه الآن سبعون عاماً ومع ذلك أتذكره بدقة متناهية ، لقد استدعانى بيير لاکو ، للقاهرة أخبرنى كم هو راض عن عملى ، الأمر الذى أثر فى أیما تأثير ، واقترح تجديد التعاقد معى لمدة ثمانية أشهر وقبلت بلا أدنى تردد . ابتداءً لم يكن لدى أى رغبة للعودة حياً إلى فرنسا ، وبخاصة أننى أدرك كمُ العمل الذى ينتظرنى ، هذا التعاقد الثانى هو بداية سلسلة من الالتزامات التى لن تنتهى ولكنها دوماً تتجدد . وهكذا وخلال عدة عقود ، وعندما كنت أسافر لباريس فترة الصيف ، كنت أعيش حتى الخريف غير متأكد من عودتى ، منتظراً تفضل الإدارة المصرية بوضع إمضائها أسفل ورقة صغيرة ، لكنها بالنسبة لى أهم من وجودى المرتبط بسقارة ، لكن هذه الإدارة المصرية مع ذلك لم تنس أبداً ، وحتى اليوم تدفع لى شهرياً مائتين من الجنيهات المصرية بوصفى موظفاً على المعاش بمصلحة الآثار ! لو أننى فى شهر مايو عام ١٩٢٧ كنت قد انتهيت من الحفائر ، لكان من الواجب على أن أكتب ما جمعته من ملاحظات وكروكى منذ شهر يناير . ولم يكن لدى أدنى رغبة فى مغادرة منزلى ، ومع مرور الوقت أحس بأننى أفضل ما يكون .

ومحمد يحرسنى ويقوم بكل شىء ويعرف نوقى فى الطعام ، وأستطيع أن أتحمل الحر إلى نهاية شهر مايو ، ثم عندما يضايقتنى الطقس أذهب للقاهرة ، فى شقة أبناء عمومتى التى يغادرونها لقضاء الصيف فى فرنسا ، وأبقى وحدى مع الخدم الذين يقومون على خدمتى ، وبعد الوجود البدائى فى سقارة ، المعيشة الفاخرة هنا فى شقة القاهرة أريكتنى نوعاً ما . يونيو الجارى أخذ المركب إلى مارسيليا لرؤية أقاربى ، وعندما أصل فرنسا يبدو لى أننى تركت مناخاً حاراً ؛ لأنفسى فى واقع هجرته منذ عدة أشهر .

فى خريف ١٩٢٧ ، وبعد قضاء أربعة اشهر مع عائلتى ، عدت لسقارة لأبدأ موسم الحفائر الثانى وأستأنف أبحاثى التى كنت قد تركتها هنا فى أرض الموقع . وعملى هنا بوصفى مهندساً معمارياً أكثر منه عالم مصريات ، ولاكو المهتم يوماً بعملى لفت انتباهى قائلاً " لا تحاول أن تكون عالم لغات ضعيف، ولكن حاول أن تكون مهندساً متمكناً وبهذا تؤدى لنا أكبر الخدمات " ، وهكذا وبمتابعتى لفيرث فى العديد من المواقع المختلفة ، تابعت بنشاط أعمالى فى المجموع الجنائزية لزوسر ، وواصلت بشكل منتظم تنظيف هذه المجموعة التى تبلغ فى مساحتها خمسة عشر هيكتاراً ، ويحيط بها سور يمتد بموازاة الوادى بطول ٥٤٤ متراً ، وقمت بعمليات قياس لطبقات الأرض هنا للوقوف على الأبواب الوهمية التى نحتت كلها مغلقة، وتوصلت لعددها وهو أربع عشرة بوابة . أربع فى كل جانب من الجانبين الكبيرين ، وثلاث على كل جانب من الجانبين الصغيرين . ولم يتبق من هذا السور الذى كان يبلغ خمسة

عشر هيكتاراً ، سوى المدخل الحقيقي الوحيد . والمباني التي كانت موجودة لكي تحدد السور قبل تشييده تاكلت وأزيلت على أيام زوسر . وأعيد استخدامها في تغطية الجدران ، وعثر على العديد من القطع من هذه المباني وهي تكفي لعمل نص كامل ، وهذا ما أود عمله وعرضه في متحف سقارة في المستقبل ، والذي سوف يفتح ذات يوم ، وعندى يقين أن هذا السور كان تقليداً في الحجر لسور آخر من الطوب النقي المطلي باللون الأبيض ، والذي كان يحيط بمدينة منف . ولكن سور زوسر مبني من الحجر الجيري الأبيض من طرة ، وفي هذا العصر هذا البناء يمثل طفرة كبيرة ، حقيقة أراد إيمحوتب أن يستريح زوسر في مقبرته وسط عاصمته .

يأتى لآكو غالباً لزيارتنا في سقارة ، وكان مهتماً بما يكتشفه فيرث وأنا ، وفي الحقيقة كان عملاً رائعاً أن تستخرج وتبرز للوجود مجموعة آثار متكاملة لم يكن يعتقد أحد حتى يومنا هذا أنها موجودة . ولقد فحص معى الأحجار ، وحاول أن يفهم ماذا عساه تمثله هذه الأنقاض ، وكنا آنذاك أبعد ما نكون عن تصور ما الشكل الذي ستكون عليه هذه المجموعة يوماً ما ، والتي سيعاد تركيبها قطعة قطعة حتى هذه اللحظة ، كإن موقع العمل ساحة معركة ، توجد أكداس من الرمال وقطع من الأحجار في كل مكان من حول الهرم . لقد انتهى فيرث لتوه من إتمام الكشف عن الدهليز ، واتجه إلى الجانب الجنوبي من السور . أثناء أعمال التنظيف الضخمة يتبدى على بعد عدة أمتار وبارتفاع أربعة أمتار ،

بقايا جدار فى شكل سور ، ولكى ننجز بشكل أسرع فقد جمع عماله من حول الجزء الذى ظهر .

وعلى مقربة من هنا ؛ ومن داخل المجموعة عثر العمال على بقايا حيات كوبرا منحوتة نحاً بارزاً ، وبعد دراستها بعناية توصلت إلى أنها جزء من أفريز ، ولكن كان على أن أنتظر عدة سنوات لكى أتمكن من إعادتها إلى مكانها ، أولاً كان يجب إعادة بناء الجدار الذى على قمته يستقر هذا الأفريز ، وكنت فخوراً عندما جاء اليوم الذى وجدت فيه حيات الكوبرا التسعة ؛ التى تمثل مصر السفلى بوصفها حاميات ، وتسمى وادحت وأويوس أيضاً وتجه شرقاً . العمال منهمكون فى العمل ، وفى الموقع كان فيرث فى قمة الإثارة ، وفى هذا اليوم سوف يشبع فضوله فلقد توصل رجاله إلى جدار ، وفجأة وبين الأطلال عثر على آثار طريق حفره اللصوص فى بناء مستطيل مشيد من كتل كبيرة من الحجر الجيرى ويقع خلف جدار السور . وتوصل العمال من خلال هذا الثقب الكبير إلى درج سلم كان لا يزال مغلقاً ، أول سؤال تبادر إلى ذهن فيرث هو : هل نحن بصدد مقبرة ؟ وعلى مبعده خمسين متراً تجاه الشرق وجد العمال ثقباً آخر ، هذه المرة تمكنا من رؤية بئر عميق ضخم ، والذى فيه حفر اللصوص طريقاً بأن نظفوا الدرج الذى يؤدى إلى نفق ، وعلى مدخله المغلق بالرديم يوجد ممر يميناً يفتح فى منتصفه على دهليز طوله ثلاثون متراً ، ولم أترك فيرث ثانية واحدة ، وبخلت الدهليز وكانت المفاجأة أن نكتشف أوانى كبيرة من الطوب المحروق وبجوارها حواملها الخشبية

التي كانت تنقل عليها ، وعثرت كذلك على حوامل عرش تحمل أوراقاً ذهبية ، وواضح أنها نُهبت فيما سلف ، فلم تكن تحتوى على أشياء ثمينة ، ولم نطق صبراً حتى نستريح فأخذنا نواصل العمل .

إخلاء النفق سيأخذ وقتاً ليس بالقصير ، وعندما يخلى تماماً سيتيح الفرصة للوصول للبئر المتفرع من الفتحة الأخرى ، فى بعض الأماكن تظهر فى الجدران أوتاد خشبية كانت مستخدمة لربط الحبال ، ولتسهيل إدخال الكتل الحجرية الجرانيتية ، ولم نكن فى هذه المرحلة قد تغلبنا على العقبات كلها ، فكانت هناك عقبة لم تكن فى الحسبان والتي أريكت تماماً عملنا : اكتشافاتنا هيجت ألقاً من البراغيث التي تخللت كل شيء حتى داخل أحذيتنا ، والتخلص منها لم يكن بالأمر السهل على الإطلاق ، بالقرب من البئر اكتشفنا حجرة من الحجر الجيري مليئة تماماً بالحصى والانقاض ، ثم هناك عدة درجات توصل إلى نفق آخر وكنت مشغولاً بتقوية الجدران التي كانت فى حالة سيئة ، وكان على عمل قباب من الطوب وعتب ؛ لأن الصخر كان فى حالة من السوء كبيرة جداً فهو متشقق تماماً ، وهذا ما أخر تقدم العمال فى أعمالهم .

فقط أثناء موسم حفائر ١٩٢٨ استطعنا التوصل للمقبرة الجنوبية الشهيرة ، وبعد عدة أسابيع من العمل الشاق توصل العمل لحجرة صغيرة من الجرانيت نهب منذ وقت طويل كل ما فيها ، وهى ضيقة جداً لدرجة أنها لا تسع جسم الإنسان العادى ، ولم نفهم ماذا كان بداخلها ،

ربما الأواني الكانوية المخصصة للملك ، زرفت عيوننا نحن الاثنين فيرث وأنا ؛ فقد كنا أول من دخل هذا المكان ، وماذا عسى أن نصل إليه بعد ذلك ، وفي هذا المكان كنا نتصيب عرقاً فالحرق كائن نار هنا . واستملعنا أن نصل إلى البئر عبر هواء ثقيل ومحبوس من أربعة آلاف عام ، ثم درج سلم عريض يوصل إلى باب مسدود . ماذا عساه يكون خلف هذا الباب ؟ وصلت الإثارة بنا منتهاها - استدعى فيرث بعض عماله ليتقّب هذا الباب المسدود في جو خائق ، فالهواء قليل جداً ، بدأ العمال في الدق على الجدران ، شرف أن يكون أول من يدخل إلى قلب المقبرة إحساس ملا قلب فيرث ، فحاول أن يدخل زاحقاً على أربع لكنه كان ضحماً فلم يستطع أن يكمل .

أتذكر أنفنى انفجرت في الضحك وأنا أرى فيرث ؛ ونصفه بالداخل والنصف الآخر بالخارج ، بينما يحاول العمال أن يدفعوه من الخلف ، لكن لم تقلح المحاولة وبقي محشوراً ولم يستطع أن يدخل أو يخرج ويتراجع ، وكان علينا أن نجذبه من أقدامه لنخرجه من هنا . وقال لي هامساً مبتسماً لكنها ابتسامة لا تخلو من غضب وسخرية "لوير أنت أكثر رشاقة ، لماذا لا تدخل أنت أولاً ؟" ولقد كنا مضطربين ، ودخلت من خلال الفتحة ومعى شمعة في يدي . ووصلت بعد مترين إلى حجرة أمامية . حيث لا أحد منذ أربعة آلاف عام دخل هنا ونهضت ببطء رافعاً الشمعة لاستكشاف المكان من حولى . عبرت وقلبي يدق بشدة صالة أولى ، قبل الوصول إلى ممر ضيق . ودخلت في حجرة بيضاوية مجهزة بشكل جيد ،

وفجأة كتبت إلى فيرث ، يوجد باب منقوش باللقاب ملكية مثلما هو الحال بداخل الهرم المدرج ! وفى داخل صالة بيضاوية - متعامدة على الصالة السابقة لها - ستة مستويات ، مزخرفة فى نهايتها بشكل عمود الجد (عمود ينتهى بأربعة عقد متتابعة وذات صلة بالإله أوزيريس)، فقد معظم الفيانس الأزرق الذى كان يغطيه ويلقى على الأرض بعضاً منه ، وممر آخر يفتح على حجرة ثانية بيضاوية ، ورأيت ثلاث لوحات لأبواب وهمية منقوشة بهيروغليفية رقيقة ، أخذت أصرخ وقد اعترتنى سعادة غامرة إنه رائع . توجد لوحات ، ثلاث لوحات ! .

إننى قادم إننى قادم ! مكث فيرث يصرخ بدوره ، بينما يحاول العمال أن يزيدوا من اتساع الفتحة ، ويانتظاره . مددت شمعتى نحو جزء مظلم ، لا تدخل فى مقره ، ومعنا لمبة كهربائية ، فالشمعة تسمح لنا بمعرفة كمية الأكسوجين الموجودة ، فعندما تنطفىء نعلم أن علينا أن نخرج ولم أر أثراً يقدم ، كان لدى ماسبيرو هذه الفرصة عند عبوره أعتاب مقبرة مغلقة منذ عدة آلاف من السنين ، أريكه وجود علامات أقدام على الرمال . أخيراً وصل فيرث ، جاحظ العين مزهواً ، وأخذ يتأمل اللوحات . لقد كانت رائعة ، إحداها تمثل الملك زوسر يجرى جرية الـ "حب سد" . لقد اكتشفنا لتونا دفنة رمزية لفرعون أو مقبرة الكا للملك ، فهو المشابه لقبر المومياء الموجود فى الهرم ، نقلنا هذا الاكتشاف الرائع إلى كشف آخر بعد ذلك بعام ، ولكن هذه المرة أسفل الهرم . أخذ فيرث يفحص الفيانس الذى عثر عليه فى المقبرة الجنوبية ، ويقارنه مع فيانس آخر عثر

عليه من قبل في رديم الممر الهابط أسفل الهرم ، وتشابههما الكبير يجعله يفترض وجود زخارف من عمود الجد أسفل الهرم فى الممرات السفلية ، ويبدأ ذلك منطقياً ، حيث توجد حجرات جنازية خارج الهرم فيكون وجود تلك الحجرات داخل الهرم أولى ، هكذا اعتقد . ريتشارد ليسيوس الذى دخل الممرات الداخلية القرن الماضى ، لم يذهب فيها إلى العمق ، فلم ير إلا جزءاً من الحجرات الجنازية ثم دهليزاً خالياً من النقوش ، لكنه لم يحفر هناك ، ولم يكن فيرث من جانبه قلقاً بهذا الخصوص ، وقرر هذه المرة أن يباشر العمل هنا بقوة بعمل التنظيف المتتابع للمكان ، واستكشف أصغر حجرة بدقة . وكوفى على مجهوداته عندما عثر فى حجرتين على فيانس أزرق . وأحتوت حجرة على ثلاث لوحات للملك مشابهة لتلك التى عثر عليها فى المقبرة الجنوبية ، أقل جودة ، وبالأحرى ثلاثة مستويات من الزخارف من عمود الـ "جد" ، ويعد عدة سنوات وبنوافذة لأكو نزعنا الفيانس لإعادة نظمه ووضعها بالمتحف المصرى ، فقط لدى متحف برلين نموذج من هذا الفيانس الأزرق ، وهو الفيانس الذى جمعه ليسيوس من الهرم فى عام ١٨٤٢ ، ووجد من الأفضل أن نعرضه بالمتحف من أن نرغمه فى داخل الهرم ، حيث لن يسمح لأحد أبداً بالدخول نظراً لخطورة المكان .

الخلاصة التى فرضت نفسها علينا هو أن إيمحوتب شيد من أجل زوسر مقبرتين ، مقلداً القصر الملكى فى منف ، المقبرة الموجودة بالهرم غير مكتملة والسؤال الملح : لماذا مقبرتان فى المجموعة الهرمية نفسها ؟

وكان هذا السؤال موضع سهرات للنقاش سوياً ، فيرث وأنا نستعرض الأسباب كلها التي دفعت بإيمحوتب إلى أن يقوم بهذا . ونظراً للعثور على بعض أجزاء من مومياء زوسر فى حجرة أسفل الهرم فمن المرجح أنه دفن هنا ، ومن ثم وجدنا أنفسنا مدفوعين لقبول الفرضية القائلة بأن المقبرة الجنوبية كانت لدفن الأواني الكانوبية والتي تحفظ بها أحشاء الميت ، ولكن لماذا تحفظ على بعد مائتين من الأمتار من الجسد . خلال عصر الأسرتين الأولى والثانية ، التي تسمى بالأسرات الثينية ، كان التقليد السائد أن يكون للملك مقبرتان ، واحدة فى سقارة فى مواجهة عاصمتهم فى منف والأخرى مجرد مقبرة رمزية فى جبانة الأجداد فى أم الجعاب بالقرب من أبيدوس . المقبرة الجنوبية لزوسر ، لعلها تخليد للمقبرة الرمزية التي كانت تشيد فيما سبق فى جبانة الجنوب ، ولكن لا توجد أى وثيقة فى الوقت الحالى تؤكد هذا الفرض .

وكانت هذه فرصة ، أن أشارك فى إحراز مثل هذه الاكتشافات غداة وصولى تقريباً ، وهو الأمر الذى لا يحظى به الكثير من الأثاريين ، لكن هذه الضربة لم تكن وحدها هى التي دفعتنى للبقاء فى سقارة ، إننى بقيت ليس انتظاراً لمكتشفات كتلك التي أحرزها كارتر عندما اكتشف مقبرة مليئة بالكنوز ، ولكن لسبب أبسط من ذلك وهو استكمال الحفائر . هذا مؤكد ، لكنها حفائر ذات طبيعة مختلفة ، ففي هذه المجموعة الجنائزية الرائعة ، والتي هى تقريباً مهدمة ، يوجد بحث آخر مهم كذلك : وهو اكتشاف معمار إيمحوتب ، والعثور على أثر تضعه فى مكانه .

هذا أمر مهم ولكن المحير أن تضع العنصر المائية في عمود ، وأجد
سعادة عندما أتأكد من وضع حجر في مكانه من البناء أو أتوصل للشكل
الفنى الذى كان عليه . لا يتصور أحدكم كم أكون سعيداً عندما أستطيع
إعادة مبنى شيدته هذا العبقرى كما كان ، وما شيدته إيمحوتب نو مفرى
أبعد من المرئى ، حيث يتعداه إلى ما وراء ذلك ، إلى العالم الا مرئى ،
إلى عالم روى لا تستطيع الكلمات أن تعبر عنه .

الفينانس الأزرق

تعرفت ميمى على سقارة قبل زواجنا حيث جاءت لزيارتها يوماً فى صحبة والداها الذى كان يقوم بزيارات منتظمة لكى يتفقد ما يجرى من أعمال كانت بالنسبة لها جديدة لم تعهدها ، حيث وقعت فى حب الصحراء بأبعادها الشاسعة وهدوئها ، وعندما سكنت فى منزلنا الصغير اعتادت أن تنهض مع شروق الشمس كل صباح ، وعندما نتذكر هذه الفترة الآن نكتشف أننا نحتفظ بذكريات رائعة ، فلقد كانت بالنسبة لكينا أوقاتاً من السعادة الخالصة ، وحتى يكون لميمى حبرتها الخاصة أخذت فى تشييد حجرة كبيرة بامتداد المنزل ، والتي ستكون الأتيليه الخاص بها ، وأحضرت إليها البيانو الخاص بها من القاهرة ، نقلته عبرة نقل قديمة حتى سقارة ، ثم صعدوا به إلى المنزل على ظهر جمل وكانت هذه مهمة جديدة على الأمالى فى القرية الذين هرعوا لمشاهدوا الجمل بحمولته الغريبة ، فلم ير أحد من أهالى سقارة بيانو قبل ذلك ! ولما كانت ميمى تحب الكتب مثلى ونهمة فى القراءة ، فإنها ورغم ما اعتراها من إصابة بالعمى استمرت تستمع للكتب ، ورويداً رويداً أصبحت مهتمة بالتاريخ ومحبة للحضارة المصرية القديمة ، وبخاصة كل

ما يتعلق بالدولة القديمة ، وكنت سعيداً بذلك لأنها سوف تفهم ما أعمل ، وأحياناً ما يحدث أن تأتى لموقع العمل وأكون فخوراً وأنا أريها المكتشفات الجديدة ، جزءاً من واجهة ، كسرة من عمود أكون قد وضعتها فى مكانها أو سوف أفعل ، وهكذا أصبح معى شخص آخر أشاركه حماسى .

ولأنها تحت الرسم فقد أحببت أن تشترك فى الأبحاث عن طريق قيامها بعمل الرسومات اللازمة بالموقع ، ولكن لم توجد آنذاك أية سيدة تعمل فى موقع حفائر ، لأنه عمل يحتاج تكويناً جسمانياً قوياً ، فهو مضمئ بالنسبة لسيدة ، كما أننى لم أحب أن أرى ميمى وسط هذه الأحوال القاسية ، فى هذه الأيام نرى سيدات من أمثال كاترين برجر أو إيزابل بيير فرضن وجودهن ومعرفتهن وموهبتهن ، أما فى عام ١٩٢٩ فلم يكن الأمر كذلك .

ذات يوم ، استدعى فيرث زوجته مثل ميمى لتنزل فى المقبرة الجنوبية لكى يسعدا برؤية الزخارف والفيانس الأزرق الذى اكتشفناه لتونا ، وكان فخوراً بذلك وأخذ يشرح كيفية إعداد هذه الزخارف خارج المقبرة أولاً ، ثم يكسونها بالفيانس الصغير الموصول مع بعضه البعض بواسطة خيوط أو حبال صغيرة ، ولسوء الحظ فإن أغلبها انفرط ووقع على الأرض ، وأتذكر نظرة ميمى ، فلقد كانت مفتونة ، وفى المساء قالت لى ، ونحن نتناول طعام العشاء إنه لخسارة ألا يوجد من لديه القدرة على إعادتها لمكانها ، وكان مجال الحديث متواصلاً ربما استمر عدة أيام ،

واتفقت معها فيما قالت وتحدثنا مع فيرث فى ذلك ، وكان بدوره يوافقنا
الرأى ، وأبدى أسفه لعدم تمكنه من مباشرة ذلك فى الوقت الراهن ،
فكانت هناك أولويات أخرى فى الموقع ، ولم يكن لدى ولا لديه الوقت لعمل
إعادة نظم لهذا الفيانس الأزرق ، واقتרכת ميمى التى كانت تنتظر هذه
الإجابة أن تقوم هى بهذا العمل الدقيق ، وأضافت أن مدام فيرث
ستكون سعيدة بأن تلتحق بها فى هذا العمل ، وأمام حماسها قبل فيرث
بالأمر ، وفى اليوم القالى كانت السيدتان منمكتين فى العمل .

ولم يكن النزول إلى المقبرة الجنوبية كما هو اليوم عن طريق الدرج
الكبير المقطوع فى الحجر ، ولكن كان عبر أكوام الرمال وكسر الأحجار
حتى الوصول إلى الفتحة التى من خلالها نصل إلى الممرات الواقعة
تحت الأرض ، ثم ندخل فى حجرات ضيقة وننزل أكثر حيث الجو الخائق ،
وهكذا وبعد تغلبهما على هذه العقبات وجدتا نفسيهما محشورتين داخل
المقبرة يتبعهما بعض العمال الذين بعث بهم فيرث ليكونوا فى خدمتهما .
أولاً قامتا بجمع كل الفيانس الواقع على الأرض للخروج من المقبرة ،
وفى الضوء حاولا تنقيته وتنظيفه من التراب الذى علق به وغطاه تقريباً
تماماً . وللرغبة فى رؤية لونه الأصلى كان عليهما أن تغسلاه فكان أن
حملناه على ظهر حمارة حتى منزل فيرث ، ووضعناه فى أحواض ملووة
بالمياه وبعد إتمام هذه المهمة ، عادت ميمى لتستريح بالمنزل .

وفى المساء جاءت تبحث عنى عند فيرث حيث اعتدت أن أمر به
فى طريق عودتى للمنزل ؛ لأتناول معه كأساً ، وهى عادة نحافظ عليها .

وبخل الليل وعند اقترابها من المنزل سمعت ميمى ما يشبه أصوات عصافير ، ودقت الباب وعندما ظهر فيرث بادرته مازحة أعندكم عصافير الآن ؟ ماذا تفعل . أتغنى فى هذه الساعة ؟ وانفجر فيرث فى الضحك ، وأدخلها وقادها إلى الحجرة التى تنبعث منها هذه الأصوات ، واكتشفت أنه الفيانس الأزرق كان جافاً تماماً ، فهو مطمور تحت الأرض آلافاً من السنين ثم هو الآن مغمور فى الماء ؛ فأخذ يحدث هذا الصغير المدهش جدا .

وفى اليوم التالى ، وبعد إتمام عملية تنظيف الفيانس ، باشرت السيدتان المهمة الأصعب حيث هبطتا على عمق ثلاثين متراً لتباشرا وضعه فى أماكنه من الجدران فى هذه الحجرات الضيقة التى يقل فيها الهواء كثيراً ، وهو عمل يتطلب دقة وصبراً . وكانت ميمى سعيدة أن تشارك فى أعمال لم تؤهل لها ، لدرجة أنها نسيت أنها حامل فى عدة أشهر ، وشاء الحظ العاثر أن تنتهى التجربة بفقدان ابنتنا الأول . الإجهاض فى وسط الصحراء مصدر ازعاج ، فعندما تحس ميمى بأنم أكون فى موقع العمل ، ويأتون يبحثون عنى على وجه السرعة ، الكل مذعور وأنا أولهم ، ولاستدعاء طبيب من الجالية الفرنسية يجب على الإسراع إلى فيرث الذى كان الوحيد الذى يمتلك تليفوناً ، كما أنه لم تكن هناك سيارة لنقل المريضة ، لكن الأكثر غرابة فى هذا البلد الذى ليس لديه وسائل نقل كافية أنه فى عدة ساعات كان الخبر فى القاهرة ، ووصل لمسامع مدام ديجاردان ، زوجة مدير شركة الغاز ، وبعثت من

فورما سيارة بقائد إلى سقارة لنقل ميمى للمدينة ، وفيرث ورغم الهلع العام كان الوحيد المتماسك ، وأمر عماله بإعداد سرير مناسب على الكنب الخلفية فى السيارة ؛ لكى تكون الرحلة أكثر راحة ، ففى ذاك العصر كان هناك تعاضد بين أبناء الجالية الفرنسية فى حالة وجود مشكلة .

ومكثت ميمى بعض الوقت فى قصر المنيرة لكى تعتنى بها والدتها ، وعند عودتها لسقارة غمرتها زيارات الأصدقاء الذين جاءوها مهنيين بسلامة العودة ، وتم شفاؤها من هذا الحادث الدرامى ، ولعلى لم يعد لدى الرغبة فى أن تعمل زوجتى بالموقع .

أبو الهول

بعد تعيينه مديراً لمنطقة آثار الجيزة فى عام ١٩٨٨ كان زاهى حواس يعطى هذه المنطقة ما تستحقه من اهتمام ، وكان فى خطته إزالة أسلاك التلغراف والطرق الأسفلتية والتجار الجائلين ؛ لإظهار ما للموقع من عظمة . ومع أنه على مدار اثنتى عشرة سنة ، أحرز العديد من الاكتشافات فإنه لم يستطع إزالة القبع الذى يحيط بأشهر ثلاثة آثار على مستوى العالم . فلم يعد الموقع نهباً فقط للتجار من كل لون ، ولكن زحفت عليه المدينة لتخنقه ، فالعمائر الخرسانية أكثر قبجاً من غيرها . هذه الروائع التى غالبت الدهر أكثر من أربعة آلاف وخمسمائة عام ، هى اليوم فريسة لأخطار الحضارة ، والحضارة حقاً ليست جميلة ، فالقاهرة المدينة تقضى على الهضاب الفاصلة بين المدينة وأبو الهول ، هذا بالإضافة لسحائب التلوث السوداء ، التى تترسب على الأحجار ، ولحسن الحظ منذ عدة سنوات وبضغط من اليونسكو أبعادوا الطريق الدائرى عن منطقة أهرام الجيزة ، ولكن فقط لعدة كيلو مترات فى اتجاه سقارة ، الدراما الحقيقية فى مصر هى استفحال الفساد ، حتى رئيس الجمهورية لا يملك وسائل الحد من تكاثره ، هؤلاء يعرفون كيف يشترون سكوت

مفتشى الآثار الفقراء ، لكي يُتركوا لينبؤوا على مواقع أثرية عمائرهم
الأسمنتية بسرعة وقبل أن يتحرك أحد . هكذا فهم الأمر وخبره
المتخصص فى المصريات صلاح النجار ، وكان لتوه قد اكتشف موقعاً
ويقايا الميناء القديم للملك خوفو الذى كان يصل النيل بالأهرام ، والذى
كان يستخدم فى نقل الأحجار والبضائع ، وهذا الكشف الذى كنا
نتنظره منذ سنوات كان من الأهمية فيما يختص بمدى فهمنا لنمط
الحياة فى الدولة القديمة ، وقاتل صلاح قتلاً شرساً للحفاظ على الموقع
ولكن بلا جدوى ، فقدم استقالته للمجلس الأعلى للآثار وهو التسمية
الجديدة لمصلحة ، الآثار وترك مصر نهائياً ليعيش الآن فى باريس .

فى عام ١٩٢٦ عندما زرت الجيزة كانت رأس أبى الهول مختفية
تحت سقالات خشبية ، فمذ عدة سنوات وتحت قيادة بيير لافو تقوم
مصلحة الآثار بتنظيف التمثال وما حوله على مدار قرون ، ظل هذا
الحيوان العجيب سرّاً غامضاً تماماً ، وابتداء من عصر الدولة الحديثة
كانت رأسه فقط هى التى تبرز من الرمال وتسبب دهشة للرحالة ، ولم
يغامر أحد بعمل مضمّن حول هذا التمثال المغمور فى الرمال ، حتى
علماء الحملة على مصر فى ١٧٩٩ لم يجرؤوا على الإقدام على مثل هذا
العمل ، ففيفان دينون استغرق وقتاً طويلاً لكي يصف ما يراه ،
أخذاً فى اعتباره حجم العمل ، ويتعجب " إن هذا يستغرق العمر " .

ولقد دهشت عندما رأيت التمثال للمرة الأولى ، حتى وإن غطت
السقالات الخشبية جزءاً فإن ابتسامته كانت واضحة ، وكان الإيطالى

جيو فاني كافيجليا الذي كانت لديه الشجاعة ليباشر في عام ١٨١٧ عملية إزالة الرمال من حول التمثال ، ووصل حتى بلاط المقصورة ، واكتشف ما لم يره أحد منذ العصور القديمة وهو لوحة الفرعون تحتمس الرابع من الأسرة الثامنة عشرة والتي تشكل جزءاً من مقصورة بين أقدام أبي الهول . ولكن وأثناء رحلة شامبليون عام ١٨٢٨ اختفى التمثال مرة أخرى تحت الرمال ، وبناء على طلب رئيس المرممين بقسم الآثار المصرية بمتحف اللوفر أمانويل دوروجيه جاء مارييت في عام ١٨٥٣ محاولاً تنظيف التمثال ، وقد جمع لهذا الغرض عدة عشرات من الرجال . لا شيء في بناء التمثال يسمح بالقول بأنه كان يوماً ما مقبرة ، كان مارييت مثل ماسبيرو يرى أن أبا الهول أقدم وسابق لعهد خوفو ، ولكننا نعلم الآن أنه جزء من المجموعة الجنائزية للملك خفرع الذي يوجد هرمه على مقربة منه ، ووجهه يمثل وجه هذا الفرعون من الأسرة الرابعة ، بعض الفجوات هي التي أدت إلى الخطأ في التاريخ الذي وقع فيه هذان العالمان . هذه الفجوات تغلبنا عليها فقط بعمل حفائر متعمقة عام ١٩٨٠ .

حدثت دراما في عام ١٩٨٨ عندما تهدل جزء من الكتف الأيسر من التمثال ، كتلة تزن مائتين من الكيلو جرامات سببت جدلاً لا ينتهي لدى المتخصصين ، منذ عام ١٩٨٢ قرر المصريون أن يقوموا بأعمال الترميم الخاصة بأبي الهول ، وارتكبوا أخطاء كثيرة على رأسها استخدامهم لنوع من الأسمنت صلب جداً يسبب تفتت الأحجار ، ولا أحد يجهل أن أبا الهول ضعيف ، منذ ملايين السنين يعتقد

الناس كلهم أن أبا الهول يخبئ كنزاً بداخله . وأخذ كلُّ يحفر على طريقته محاولاً الوصول لهذا الكنز ؛ فحدثت بذلك تلف في التمثال ، الذي أصبح كأنه مصفاة لكثرة ما به من ثقوب وتلف ، وهناك سبب آخر لإضعاف التمثال وهو أنه منحوت من صخر الهضبة التي تعاني منذ زمن طويل جداً من تسرب المياه الجوفية . سقط الكتف العام السابق واكتشفوا تجمعات من المياه بين أقدام أبي الهول ، وتفهم المصريون أخيراً خطورة الموقف وقبلوا بأن يشارك علماء من الدنيا كلها لعلاج أقدم مريض في تاريخ البشرية ، حيث يجب إنقاذ التمثال بأي ثمن . وأسرع كل عالم يقدم ما لديه من حل لتحسين حالة الأثر وتقويته ، اقترب البعض من حد السخرية مثل فكرة جمعية "جتي" بالولايات المتحدة : وهو أن نحيطه داخل هوية من البلاستيك بصفة مستمرة ، وأخيراً أخذت أعمال ضخمة طريقها للنور واستبعد الأسمنت وحل محله مونة أكثر ليونة وأقل سمكاً ، وأعاد الفنانون الخطوط الخارجية للتمثال كما كانت بعد أن اختفت ملامحها بفعل أعمال الترميم غير العلمية التي سبقت . ينعم اليوم أبو الهول ببعض مظاهر الروعة ؛ وإن بقي هشاً وظل يعاني من نحت الرياح والرمال والرطوبة والتلوث ، ولم تبأشر أى خطوة فيما يخص النقطة المركزية للحفاظ على آثار الموقع وجماله وهي إعادة تنظيم كلية لهضبة الجيزة .

وفي بداية الثلاثينيات عندما كنا نأتى للتنزه أنا وزوجى حول الأهرام ، كنا نمر بمينا هاوس لتتناول الشاي ، وكان الفندق الأكثر فخامة في مصر في ذلك العصر ، ويقع في مواجهة الأهرام الثلاثة ،

وبالداخل كانت هناك مجموعة من الآثار جاءت نتيجة لإزالة بعض أحياء القاهرة القديمة - وفي متنزهه ووسط الخضرة الجميلة ، كان أول حمام سباحة في مصر ، والذي كان مصدر جذب للطبقة البرجوازية القاهرية ، والذين كان لهم فقط الحق في الدخول إلى هذا المكان المثالي . ومن شرفته كنا نطل على الموقع « وكنا في قلب الصحراء والسكون ، وكأن أبا الهول ينهض حارساً على عالم خفى ، كان التمثال بوضعه في مواجهة صحراء غامضاً وفاتناً بالنسبة لنا ، ولطالما سعدت بتدرج الألوان في المشهد من أمامنا ، منذ وقت طويل لم أعد لدينا هاوس ، ولقد ابتلعت الفندق كما ابتلعت الموقع بأسره تلك الخرسانة المسلحة .

الأربعون ألف إناء

كان عام ١٩٢١ عاماً مميزاً بالنسبة لنا ، فقد غمرتنا السعادة عندما رأينا بين أيدينا طفلنا الأول ، ولقد أسمىناه ببيير ، وقد عشنا دراما رحيل سيسيل فيرث ، هذا الموت المبكر جعل الألم والحزن يعتصرني ، حُمل على أثر احتقان في الرئة على متن مركب في الصيف إلى إنجلترا ، ولقد ترك رحيله فراغاً لم تملأه السنون ، وبقيت لسنوات طوال متأثراً برحيل هذا الصديق العزيز جداً والنادر جداً كذلك ، ويدونه لم نعد الحياة في سقارة كما كانت ، فلقد كانت لديه الموهبة التي بها يستطيع أن يبعث النشاط في من معه ، ففي صحبته كل شيء ممكن ، ووجوده يبعث على الاستبشار ، اجتماعي ويمازح الزوار ، وهو يقص عليهم قصة اكتشاف تمثال زوسر ، ذات يوم وكنت في صحبته وحكي لإحدى السانحات أن هرم زوسر شيد فيما يفترض عام ٢٧٠٠ [ق.م] ، وفجأة سألته السيدة إذا ما كان ذلك قبل ميلاد المسيح ، فقال "نعم سيدتي إنه قديم جداً لدرجة أننا لم نعد نعرف بشكل جيد" .

أتذكر سعادته عندما علم بأن ميمى حامل من جديد ، وأراد أن يشرف معنا على أعمال توسعة المنزل ، حيث كان يلزمنا حجرة أخرى ،

والعمال هنا يعملون طبقاً للتخطيط على الأرض ، وعندما رأى طائر القلاق يحلق من فوقنا استدار نحوي قائلاً : "عليكم أن تشيدوا حجرة للطفل الثاني ، وكان محققاً فلقد وصل دانييل بسرعة كبيرة بعد أخيه بيير .

آخر اكتشاف كبير شاركت فيه مع فيرث كان في الشتاء الماضي ، عندما كنا ننظف ما حول هرم سر كاف ، مؤسس الأسرة الخامسة ، فلقد عثر على رأس من الجرانيت ضخمة هي جزء من تمثال عملاق للملك نفسه ، وكان اكتشافاً مهماً لأنه حتى هذه اللحظة كان تمثال أبى الهول بالجيزة هو المثال الوحيد للتماثيل الضخمة من الدولة القديمة ، وكان فيرث يجعلني أشارك في أعماله حتى وإن كانت خارج دائرة زوسر . وبيوفاته وجدت نفسى الأثرى الوحيد فى شمال سقارة . وأتممت لتوى عامى التاسع والعشرين ولكنى لم أرهب حجم العمل الضخم الذى ينتظرنى ، بعد خمس سنوات فى مصر أصبح العمل فى الموقع باعث وجوى ، وشعرت أننى فى مكانى المناسب . كما كان شعورى بعد زواجى من ميمى ، ويعد طفلنا الأول وجدت الاستقرار التام .

ومع ذلك فقد أريك رحيل فيرث الحياة فى الموقع ، وواصلت الأعمال ، وكسرت جزءاً من شتاء عام ١٩٢١ لاستكمال الرفع المعمارى للسور الكبير للملك زوسر ، ومن جانبه ألح لأكو فى أن يأتى كوييل المتقاعد والموجود فى إنجلترا لينشر الملاحظات التى تركها فيرث عن المجموعة الجنائزية الهرم المدرج . والخلاف الذى ثار بين فيرث وجن أزعه ، ومن ثم جاء متشدداً فيما يتعلق بعملية النشر ، حيث اعتقد وهو محق أن

العثور على آثار لا يجعل العلم يتقدم إن لم ينشر بشكل علمي ، وتمنى أن أسجل كتابةً بمساعدته كل ما جمعه من ملاحظات حول الهرم ، حاولت إقناعه في أحد اللقاءات أن لدينا وثائق كثيرة فيما يتعلق بالعمارة الخارجية للهرم لكن الدهاليز الداخلية في معظمها لم تكتشف بعد وأننى أرى أمامنا عملاً كبيراً ينتظرنا ، وقد كنا نهبط إلى الداخل ، ونحاول أن نفهم مغزى ووظيفة هذه الدهاليز الغامضة ، وعثرت على إحدى عشر بئراً أعدها إيمحوتب لدفنات أفراد العائلة المالكة ، لكننا لم نستطع أن ندخل هذه الآبار لأنها لم تنظف بعد .

عندما بخلنا حجرة اللوحات لاحظنا وجود فتحة كبيرة فى الأرضية ، ربما حفرت فى العصر الصاوى من القرن السادس قبل الميلاد ، والذين وصلوا إلى الدهاليز التى تقبع على عمق ثلاثة وثلاثين متراً تحت مستوى قاعدة الهرم ، وكنت أود استكمال العمل لمعرفة الهدف من هذه الدهاليز الغامضة . وبعد موافقته على استئناف الاستكشاف أعطانى لأكو فريق عمل صغير مكون من خمسة عشر فرداً ، فلم يكن يرى أهمية كبرى لأعمال التنظيف ، وبدأنا كوييل وأنا وبعد تنظيف حجرة اللوحات ، ثم تقدمنا داخل دهليز يقودنا على مسافة قصيرة إلى دهليز يتجه شرق غرب ، حيث اكتشفنا تابوتين من الألباستر ، وقد حطم اللصوص غطاء كل منهما ، يحوى واحد منهما تابوت خشبى فى حالة سيئة ، لدرجة أننا لم نتمكن من معرفة طريقة عمله فى الحالة . وعندما حاولنا إخلاء التابوت لجمع القطع الخشبية عثرنا على عظام طفل صغير يبلغ من

العمر حوالي ثمانية أعوام ، والأكثر دهشة هو أن المصريين كانت لديهم معرفة متقدمة بطريقة صناعة الخشب وتعشيقه معاً ، والسؤال الآن الذى يطرح نفسه هو لماذا وجود تابوتين فى الدهليز نفسه ؟ بعد بعض التردد توصلت إلى التقريب بينهما وبين وجود مقبرتين لزوسر ، ولأنهم فى الأسرة الثالثة يضعون الأوانى الكانوبية فى تابوت حقيقى ، ويمكن افتراض أنهم وضعوا فى المقبرة الأولى الجثة ، وفى المقبرة الثانية الأوانى الكانوبية ، وما اكتشفناه حديثاً جعلنا نتأكد أن الهرم المدرج لم يكن مقر دفن الملك وحده ، ولكنه كذلك لأفراد العائلة ، ولم تكن هذه هى الحال مع ما تلا من أمراء ، فقد صارت مقبرة خاصة بالملك وحده .

نتقدم ببطء بالنسبة لكوييل عملية الهبوط والخروج لمسافات تصل لثلاثين متراً فى العمل كانت شاقة بالنسبة لعمره ، وفى كل يوم لا نأتى بجديد ، ومما أثار إعجابى صلابته وشجاعته ، ويخمن وأتفق معه أن مقبرة زوسر لم تبح بأسرارها كلها ، ذات يوم وفى الصالة التى كنا نعمل فيها حيث اكتشفنا التابوتين من الألباستر ، وفجأة عندما رفعنا رأسنا رأينا أوانى حجرية تبرز من الجدار وبدأنا بسرعة نجذبها ، وكانت كثيرة ولم نصدق أعيننا ، واعتقدنا بوجود دهليز آخر بالخلف ، ولكن الصخر كان فى حالة سيئة جداً لدرجة حالت دون عمل اختبار ، واخترنا جزءاً أكثر صلابة ، وحفرنا ثقباً أفضى إلى دهليز ملىء بالأوانى من الألباستر وأحجار أخرى صلبة . واحتفظت بروية وذكرى خاصة بهذا الحدث ، فجأة أخرجت أثاراً وأدوات كانت مدفونة هنا منذ خمسة آلاف عام ،

كأنها الحمم تتجه نحو الفتحة ، ونحن مذهولون ولا ندري ماذا نفعل لإيقاف هذا التدفق، وكان مذهلاً رؤية هذا الكم الهائل من الأواني، ولكنها لسوء الحظ مهشمة فى أغلبها ، نحن أمام سلسلة من المخازن المصونة والمخصصة للمكات أو أميرات، وهذا جعلنا نتخيل ما كان عليه حال الدهاليز العلوية المخصصة لأبوات الملك وأثاثه والذي من المؤكد كان أكثر ثراء وفخامة ولكنه نهب منذ وقت طويل .

إزالة الركام وتنظيف المبنى السفلى يمثل عملاً شاقاً مستمراً لعدة شهور ، والمشكلة هى ألا نخلط الكسر مع بعضها، على أمل أن نستطيع أن نعيدها ونرممها فيما بعد، فهى عندما وضعت كانت سليمة وكاملة ، وكان علينا أولاً أن نجمع الكسر كلها التى تنتمى للآنية نفسها معاً على ورقة ، وقرر لآكو أن نصنع صناديق من الخشب خاصة لاحتواء القطع بشكل منتظم ، عشرات من الصناديق تملأ يومياً ، ومن ثم كان يجب تشييد مخزن ليستوعب ألفاً وثلاثمائة صندوق ، ومخزن آخر بسعة مضاعفة انتظاراً للموسم التالى ، وإجمالى الصناديق بلغ ستة آلاف ، وكل صندوق أخذ رقماً وتاريخ استخراج القطع التى يحتوئها .

قاد العمل الأستاذ محمود على إبراهيم رئيس عمل، ذو خبرة ويتمتع بحيوية نادرة ، وهو يعرف كيف يوجه عماله فى هذا العمل الشاق والخطر ، وأصبح الجو أسفل الهرم خانقاً وداهم العمال إجهاد مخيف ، وبالتالي أوقف محمود العمل وأمر العمال بالخروج من الهرم حتى يتجدد الهواء بداخله . وبدأت العمل فى ستة دهاليز أخرى مشابهة ،

الأول منها فقط هو الذى يحتوى على أوان . أربعة مواسم من ١٩٣٣ وحتى ١٩٣٦ استغرقتها عملية التنظيف وإزالة الركام . وكم حزنت لعدم وجود فيرث معنا ، وهو الذى طالما تسامل حول هدم الدهاليز . هذا العدد الهائل من الأواني من الأحجار كلها من الشمس والألباستر والبرشيا الأحمر من أسيوط ومن جرانيت أسوان ، كلها صنعت للاستخدام فى العالم الآخر ، ولكن هذا بالنسبة لنا صعب التصور ، حوالى أربعة آلاف أنية سليمة وألف رمنماها ، وما تبقى ربما كسر ، حوالى أربعين ألف إناء . هذا الكم الهائل من الأواني الملكية الخاصة بالملك زوسر ذات صنعة دقيقة ، تتم عن تقدم ومهارة فى هذا العصر البعيد ، وخاصة أنها من أحجار صلبة .

ويبدأ بيير لاکو فى الدراسة اللغوية ، وخلال عدة سنوات أخذ ينسخ الهيروغليفى المنقوش على الأواني ، ويحاول أن يفسر بصبر لا ينفد آلاف النصوص القصيرة جداً التى توضح اسم المالك ، الملك أو شخصية كبيرة ، وأحياناً اسم الأثر الذى من أجله كرس الآنية ، ووجد فى النقوش أسماء كل الملوك فى الأسرتين الأولى والثانية . ونصوص أخرى مكتوبة بالحبر توضح اسم المصانع أو الذى أهداها وعلامات الأتيليه ، وأحياناً فى أى المناسبات كانت هذه الهبة ، ومجموع هذا العمل نشر فى ثلاثة أجزاء موهورة باسم لاکو وأنا . وذات يوم مشرق ووسط كسر الأواني والفخار عثرت على أختام من الصلصال باسم حورس ، وست خع ، سخموى آخر ملك من الأسرة الثانية ، وحورس نترى خت ، وهو زوسر ، وهذه الأختام كانت تختم بها أكياس من القماش عند نقل الأواني لأول

مرة للخزانة الملكية ، والتي استخدمت لثاني عملية نقل حملت فقط اسم حورس نثرى (خت) وهذا يدل على أن الدهاليز استخدمت ثم أغلقت بواسطة زوسر نفسه ، هذه الأختام كما اتضح فيما بعد ، ذات صلة بأحداث ترجع لأواخر عصر الأسرة الثانية ، فقد حدث انقسام فى الملكية ، برايب سن ملك مفتصب للعرش من الملك الحاكم الشرعى وقتله واستولى على مقبرته فى سقارة ومزاره الرمزي فى أبيدوس ، ولكن باعتلاء حورس خع سخم للعرش ، أوقف هذا وقضى على برايب سن بعد أن احتفى فى هيراكونبوليس فى جنوب مصر ، وأعاد توحيد مصر وغير اسمه إلى خع سخم وي الذى يعنى "الذى وفق بين الإلهين" ، وبعد نصره استقبل فى سقارة وأبيدوس الأواني من المقابر الملكية التى اغتصبها برايب سن ، ثم وضعها فى أكياس من القماش ووضعت فى الخزانة الملكية . وخليفته كان زوسر ، ووضع فى هرمه الذى اعتقد أنه مصون هذه الآلاف من الأواني ، وهو أسلوب بالنسبة له رمزى ، وربما يستطيع بذلك أن يعيد الأواني لسابقه .

بعد هذه الاكتشافات لم يتبق أمامنا كوييل وأنا إلا البدء فى كتابة تقرير الحفائر ، كتاب (الهرم المدرج) الذى عملنا فيه بالتالى ربما كان أفضل لو أن فيرث شارك فيه ، وللأسف فى هذا العصر الذى بدأنا نكتب فيه هذا العمل ، بدأ كوييل يفقد الذاكرة وولم نعثر على ما كتبه فيرث .

الزيارات

على أيام فيرث كانت تسليتنا تتأتى من الزائرين ، فلم نكن نقلق من زيارات الشخصيات المهمة والتي معها نسعد فى مباشرة أعمالنا . فى بداية الثلاثينيات استقبلت المارشال فرانشى إسبرى ، قائد جيوش الحلفاء القديم فى عام ١٩١٨ الذى كان لا يزال نشيطاً جداً ، وكان مهتماً بالأرقام جداً : ما ارتفاع هذا الهرم ؟ ما طول هذا السور ؟ هكذا كان يسأل يوماً . وأتذكر تعجبه عندما ذكرت له عمر الهرم المدرج وهرم ونيس ، وأعطيته التاريخين بالتتابع ٢٧٢٠ و ٢٤٠٠ ق.م تقريباً ، " كيف ونيس ٢٤٠٠ [ق.م] فقط " ؟ .

وكنا نشاهد قوافل السائحين تمر هنا ، شخصيات إنجليزية كثيرة على ظهور حمير حقيرة ، ونساء بقبعات صيفية . فقد كانت سياحة مختلفة أنيقة وأكثر ثقافة منها اليوم ، وكان السياح لديهم إحساس تام بالمواقع التى يستكشفونها بعد الحرب ، بدأنا نرى ما أسموه أفواج السائحين ، ومنذ عدة عقود أصبحت المواقع تراهم يفدون كأنهم قطعان فى أتوبيسات مكيفة ، وبعضهم نصف عار أو فى زى يثير السخرية ، وهذا مؤسف ، قبل هذا التدفق ، سقارة كانت بمثابة الحجرة الأمامية

لنادى سبورتنج أو اجتماعات شبرد ، واكتشافات مقبرة توت عنخ أمون كانت بالنسبة لغالبية الزوار حدثاً مثيراً ، وكانت غالبية هؤلاء يأتون ليستمتعوا برحلة على متن النهر الأسطوري أو يأخذوا قطار البحار ليزوروا الأرياف ويمروا بالمواقع ، ومخاطرة أن يصيب البعض منهم ضربة شمس .

جورج دوهامل ، من بين آخرين ، ولم يشأ أن يخبر بزيارته ورغم الجو السيئ وتحت عاصفة رملية ، فقد كان يمتلك قلباً قويا وقمت بدور المرشد وتلقيت امتناناً حاراً من الكاتب الفرنسى الذى استطاع أن يقول لى رغم الرمال التى تملأ فيه "إن هذه التجربة أثرته كثيراً" . وكانت ميمى سعيدة جداً بالحياة فى قلب الصحراء بمنأى عن المجتمع القاهرى . وسرعان ما وجدت نفسها مضطرة لأن تصحبنى فى هذا النشاط معظم الوقت ، وقامت بدور المضيفة أثناء الاستقبالات التى كانت واجبة ، أثناء بعض الزيارات كان يتوجب علينا أن نستقبل بشكل احتفالى شخصيات كبيرة من العالم كله ، والذين كنا نعلم عن وصولهم قبل ذلك بعدة أيام . إذن فهو الاستعداد للمعركة فى سقارة . منزل المدير يشغله رجال فندق سميراميس لإعداد الغذاء الذى يقدم تحت أعين العمال الجاهزة لرؤية عربات نقل محملة بالأوانى والأطباق والطعام تتوافد على الموقع ، ويقوم على ذلك جيش من الخدم . أشهر زيارة كانت تلك التى قامت بها الملكة مارى ملكة رومانيا ، فهى سيدة نشيطة وطريفة وذات شخصية رومانسية ، فلقد كانت رغم مكياجها الغريب ذات شخصية بسيطة ،

فهي ابنة الملكة فيكتوريا والقيصر ألكسندر الثاني ، وتزوجت من الملك
فرديناند ملك رومانيا ، وكانت ذات مشاعر جياشة تعلقت تماماً بالشعب
الروماني ، إنها ملكة من عالم الأساطير ، احتفلت في فرنسا منذ عام ١٩١٩
بمناسبة وقوف بلادها في جانب الحلفاء عام ١٩١٤ ضد ألمانيا ،
ثم تحملت وحدها عبء الملكة الرومانية ، منذ وفاة الملك فرديناند في ١٩٢٧
أزاحها ابنها كارول الثاني من على العرش ولم يدخر وقتاً فأُسرع
في تحويل الملكة إلى ديكتاتورية ، وكانت مجزرة رهيبة ، ومع ذلك لم
تفقد طبعها الفريد بوصفها ملكة وشخصية طريفة . ومنذ وصولها للقاهرة
والعرب يملا طاقم الخدمة المكلف بحمايتها ، فهي لا تستقر في مكان
وتغير برنامج زيارتها دوماً ، وكثيراً ما يفقد طاقم الحرس الملكي أثرها ،
وترفض تماماً أن تكون زيارتها على متن سيارات القصر الوردويس
الحمراء الخاصة بالملك فؤاد ، وكان يمتلك منها عدة سيارات من النوع
نفسه واللون نفسه ، وأعاروها سيارة مكشوفة خاصة بالملك . وجاءت
ذات صباح مشرق إلى سقارة في هذه السيارة مصطحبة اثنتين من
بناتها ، وفقدت في الطريق البوليس المصري ، ولم يتبق معها إلا حرس
شخصي ، وكنا فيرث وأنا مسئولين عن استقبالها ولم نندهش عندما
رأيناها قادمة وهي تقود السيارة المكشوفة ، ففي تصورنا أن ملكة يجب
أن يقود لها أحد السيارة ، ثم أسرعنا نساعدنا في النزول من السيارة ،
وكانت سيدة عظيمة وجميلة وترتدي ثياباً بيضاء ، وفستانها موديل
الثلاثينيات يستدير بفعل الرياح ، وشعرها مصفف ووضعت شبكة للشعر
بيضاء ، تتدلى من حول العنق وتصل حتى الحزام صنوف اللاكئ الكبيرة .

وكانت فى صحبتها سيلا لاهفارى زوجة الوزير المفوض الرومانى ،
والتي كانت من سيدات الشرف فى بوخارست والتي ساعدتها أثناء الحرب
الكبرى باهتمامها بالجرحى الذين كانوا يفدون بكثرة إلى البلاد ، ويمى
تتذكر سيلا على أنها سيدة ذات لغة مرحة جداً ومتقفة ، وأنها كانت
محظوظة أن تكون هذه السيدة صديقة لها خلال عدة سنوات . الملكة
أليزابيث ملكة بلجيكا والتي استقبلناها بعد ذلك بعدة أشهر ، كانت ذات
شخصية مختلفة تماماً ، كانت أقل لطفاً وأكثر صرامة ، ذات قامة
قصيرة ، قليلة الابتسامة ، وكانت تحب أن توضح منزلتها بالحفاظ على
مسافات بينها وبين الناس المحيطين ، وقامت هذه الملكة بعمل دراسات
متعمقة فى علم المصريات ، وقامت بعدة رحلات لمصر التي تحبها -
ولغرامها بسقارة جاءت فى صحبة عالم المصريات البلجيكي الشهير
جون كابار ؛ التي كانت تعطيه الكثير من الأموال لإثراء مكتبة المصريات
بالمتاحف الملكية ، وكانت الأولى التي تزور مقبرة توت عنخ أمون وفتنت
بالاكتشاف الكبير ، وكانت مقتنعة تماماً وأكثر من أى شيء بأهمية هذا
العلم الجديد ، ووضعت الإمكانات كلها لكي يكون لبلدها دور فى البحث
فى علم المصريات ، وفضلت أن تنشئ فى بروكسل جمعية الملكة اليزابيث
والذى جعل منها كابار فى عدة سنوات أجمل معهد فى العالم ، وخلال
زيارتها لأثار سقارة لم تتردد الملكة أمام أى عقبة مثل الآخرين ، رفعت
ثيابها لتدخل على أربع إلى المقابر ، وتضايق كابار أن يرى الملكة فى هذا
الوضع وأراد أن يمسد الطريق ، واندھشنا فيرث وأنا لرؤية هذا الرجل

يمشى على أربع ، وتزحف لحيته البيضاء على الأرض أثناء دخوله فى
الدلهيز الضيق ، منظر غريب جعل فيرث يقول متعجباً إن السيد كابار
نظف الطريق للملكة بلحيته ! .

ذات يوم جرى زكى وهو المسئول عن التليفون لدى فيرث باحثاً
عن ميمى حاملاً ورقة كتب عليها بفرنسية ركيكة : السيد دريون
(الذى خلف لتوه لأكو فى إدارة مصلحة الآثار) طلب منى أن أقول لكم
إن ملك فرنسا سوف يأتى مع الجنرال ألكسندر . وتعجبت ميمى قائلة :
ماذا تقص على هنا يا زكى ! عن أى ملك لفرنسا تتحدث؟ ومندهشاً
بدوره أجاب زكى وهو يخلق فى وجهها أنت فرنسية يا مدام ولا تعرفين
أنه يوجد ملك فى فرنسا؟ وأخيراً اتصلت ميمى تليفونياً بالسيد
دجاردبييه ، المستشار الأول للمفوضية الفرنسية الذى قهقه ضاحكاً عندما
سمع الحكاية . فى الحقيقة لم يكن الأمر متعلقاً بملك فرنسا ولكن ملك
كمبوديا الذى سيأتى فى صحبة الجنرال ألكسندر ، زكى الذى لم
يسمع من قبل عن كمبوديا ، ولكن قال له أحدهم إن الملك يتحدث
الفرنسية فاستنتج أنه ملك فرنسا . وكانت الزيارة الأكثر غرابة بالنسبة
لى زوجة الجنرال ألكسندر التى جاءت مع الحاشية ، والتى أبدت انطواء
طيلة الزيارة خوفاً من رؤية الملك سيهانوك الذى لا يرتدى قبعة ،
وكان ضحية ضربة شمس ، ولم تكف عن قولها له وهى تصرخ يجب
على جلالتك أن ترتدى قبعة ، وفجأة جرت خلفه وأجبرته على ارتداء
قبعة من القش على رأسه ، وبدون أن يلتفت للخلف لينظر ماذا يجرى ،
خلع سيهانوك القبعة وفى حركة غاضبة ألقى بها على الأرض ! .

زيارة الملك فيكتور إيمانويل ملك إيطاليا وزوجه كانت زيارة طريفة جدا كذلك ، وكانا زوجين فريدين جعلانى أبتسم دوماً ، الملكة هلين مونت نجرين ضخمة والملك بجوارها قصير للغاية ، ويمشى معوج الساقين ناظراً للأرض مهتماً بقطع الأوانى المبعثرة على الأرض فى أنحاء الموقع وبالأثار نفسها . وعندما أحس بشيء تحت قدميه أزاح الرمال بقدميه وانحنى والتقطها وفحصها لوقت طويل غافلاً عن بقية الحاشية ثم قذف بها فى حقيبة الملكة ، وكانت هذه الحقيبة كأنها قفة حملتها معها لهذا الغرض ، وفى نهاية الزيارة سارت الملكة فى المؤخرة تماماً وهى تجر بصعوبة الحقيبة التى أصبحت ثقيلة تماماً . ومرة أخرى أعلنوا عن وصول أندريه جيد إلى القاهرة وطلب منى حمای أن أكرس له يوماً لزيارة آثار زوسر ، واللوهلة الأولى فإن مصر "المعصوية فى لفائفها" لم تثر حماس الكاتب المشهور ، وعند وصوله للقاهرة ، شعر بالامبالاة التامة ، "ولا توجد صلة ممكنة بينى وهذا الشعب ولا علاقة ولا سمة مشتركة ، ومن شبرد حيث نزل كتب فى مذكراته : "تعرفت على كل الخدم الزنوج بالفندق ، وكذلك أولئك من زمن الفراعنة ، وهم أقل قبحاً عما بدا لى من اللوهلة الأولى ، فهم يحملون ملامح لم تتغير عبر قرون متطاولة" ، عدم الجاذبية عند المصريين تصيبه بالهم . وكان على هذه الحالة المزاجية عند استقباله من المفوضية الفرنسية حيث كنا مدعوين ، وكان حمای ينتظرنا ليقدم لنا الكاتب والذى كان نحيفاً جداً وسمجاً جداً ، "السيد جيد" هكذا قال حمای بشكل أُرستقراطى يميزه ، ولى الشرف أن أقدم لك ابنتى

وزوجها جون فيليب لوير الذى سيكون سعيد الحظ أن يكون فى
صحبتكم فى موقع الحفائر فى سقارة ، سألته ميمى متى سيكون فى
زيارتنا حتى نستعد لاستقباله ، فنظر لها باحتقار وأجابها بجفاء "هل
تعندين سيدتى أننى لى الوقت لكى أضيعه ، عندى أشياء أخرى لكى
أقوم بها أهم من الذهاب للنزهة بين الأطلال تأكدي من ذلك ، !
ولم يكده ينهى جملته حتى كانت ميمى التى لم ينقصها أبداً الرد تقول
"حسناً ، هذا أفضل ! هذا سينقذنا من أحد المزعجين ! " .

إعادة التركيب

أنا فخور جداً بأعمال الترميم التي أنجزتها بدليلز الأعمدة ، وعندما وجدت نفسي وجهاً لوجه مع دهليز يحيط به من جانبيه قواعد أعمدة وعددها أربعون ، لم أكن أعرف ماذا أفعل ، وأثناء الحفائر التي جرت قبل وصولي للموقع لم يكن أحد يعبأ بإعادة العناصر المعمارية لأماكنها ، وكل شيء كان مختلطاً مما زاد من صعوبة مهمتي ، شيء يدير الرأس . ولكن سرعان ما ركزت مجهوداتي على الصالة المستعرضة في نهاية الدهليز ، والتي احتوت على ثمانية أعمدة جمعت في مكان واحد في زاوية ، وبمساعدة عمالي المخلصين حفظتهم وسجلتهم وصنفتهم ، وكنا نضعهم تباعاً في الفناء الكبير للهرم في دهليز المدخل ، كان العمل معقداً : الأعمدة مهشمة تماماً والجذع مكون من ثلاث كتل وليس كتلة واحدة ، وأحياناً مكون من أربع أو خمس كذلك ، ومن ثم من السهل تصور صعوبة العمل الذي نحن بصدد ، تفكك وتحلل وتصنف كل كسرة وقطعة ، وتحاول أن تنسب كل قطعة لعمودها من بين الأربعين عموداً ومجموع ما توصلت لتحديدده يفوق في عدده السبعمائة قطعة ووجدت مكانها الأصلي ، وأحياناً ما أخاطب إيمحوتب ، ولسوء الحظ لا يظهر

لى أبداً ولكن عندما أجد مكان قطعة كنت أقول لنفسى : "هذه هدية من إيمحوتب".

عملية إعادة البناء نفسها استغرقت سنوات ، ولتسهيل مهمتى وضعت تكتيكاً بسيطاً : بالتتابع أعمل رسماً لكل قطعة من قطع الأعمدة ، هذه الرسومات بقيت معى دوماً أثناء الحفائر ، فعندما أعثر على قطعة أضع لها رسماً بأبعادها ثم أضعها فى مكانها من العمود للتأكد إذا ما كانت فى مكانها الصحيح ، فلو كانت فى مكانها أنتم عملية تثبيتها ، وإلا أواصل البحث ، وهكذا بدأت عملية إعادة بناء الدهليز ، وجمعت رقماً هائلاً وهو ألفان من القطع والعناصر المعمارية التىبقى معظمها ولم أستخدمه ، وأضع فى ذهنى أن أعرض منها الأفضل والأجمل فى متحف إيمحوتب . كنت محظوظاً إذ أمتلك نظراً ثاقباً ودقيقاً مما يساعدنى فى هذا المشروع الهائل ، ولدىّ نظر قوى دوماً فأستطيع أن أتحرى عن قطعة من الفخار فى الرمال . وكما أكون سعيداً عندما أتوصل إلى اكتشاف كل أجزاء عمود ! واحدة من الصعوبات هى تحديد ارتفاع العمود ، فإذا لم نستطع أن نحدد ارتفاع أثر فإن عملية إعادة البناء تصبح مستحيلة، ونفترض هنا أن إيمحوتب نفسه غير رأيه أثناء العمل ، فقد بدأ بتشبيد الثمانية أعمدة فى الصالة المستعرضة ، وبما أننى لىّ كل القطع الخاصة بها ، فقد استطعت إعادة نصبها بشكل سريع نوعاً ما وعرفت ارتفاعها وكانت هذه النتيجة الأولى مهمة وتأكدت من أن الأعمدة الأربعة الأولى ذات تسعة عشر ضلعاً، مثل الأربعة التى نصبتها

للتو ، أما الأخرى فذات سبعة عشر ضلعاً ؛ فقد خفض إيمحوتب ضلعين حيث بسط العمل على رجاله ويلا نقاش فقد نصب الستة والثلاثين عموداً المتبقية من سبعة عشر ضلعاً ، وكانت هذه نتيجة مهمة أخرى فى العمل فى هذا الدهليز ، وقد كان وصولى لإعادة بناء دهليز إيمحوتب -- بالنسبة لى - بمثابة اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون ؛ إنها لحظة سعادة لا توصف ، وهناك شىء غريب رغم أى شىء فى هذا العمل ، وهو أن إيمحوتب شيد على كل جانب حوائط تسند الأعمدة لتقويتها ولتتحمل عوادى الزمن ، لكن فى النهاية استعملها الحجارون فى العصر الحديث وانتزعوا أحجارها مما تسبب فى تدهمها .

ويدراسة كل قطعة من هذه المجموعة ، استطعت التعرف على شكلها ونسبها فى المبنى وكانت ذات أسلوب غير معهود فى مصر ، فقد قلد إيمحوتب فى الحجر عناصر معمارية من الطوب اللبن والخشب ، أو حتى من البوص وهكذا فسرت هذه النسب الخاصة من الأعمدة ، والتي تبرز كثتها أوتاد وحوامل من الخشب المحرز أو أعواد من جريد النخيل .

وجمعت خصائص تكنيك بدائى ولكنه يجمع كل خصائص فن متطور ، أكثر من حل للتغلب على قلة الخبرة فى البناء بالحجر الذى يتعاملون معه الآن بعفوية ، وكانهم يتعاملون مع أخشاب للنجارة وليس أحجاراً للنحت . وتحققت من إحراز تقدم وتبسيط فى العمل مع مرور الوقت وهم يشيدون ويبنّون ، سواء فى الأدوات المستخدمة أو فى البناء ، وهو الأمر الذى يدل على عبقرية هذا المهندس المعمارى ، ويدل كذلك على

صبر عماله ومهارتهم . عبر مجموعة زوسر نشعر بثورة فى تقنية البناء . فى السبعينيات اكتشفت الأثرى الإنجليزى جيفرى ت . مارتن ، خليفة أمرى فى سقارة ، على مقربة من سور زوسر جنوباً مقبرة حورمحب الرائعة ، جنرال من الدولة الحديثة ، وهذا الاكتشاف أكد ما كنا نعتقده منذ بعض الوقت أن الجبانة المنفية لا تلوى فقط مقابر من الدولة القديمة وأثناء الحفائر اكتشف مارتن خمسة جنوع لأعمدة فى أرضية فناء للمقبرة ، ويفحصها استنتج أنها ترجع لأثر أقدم . ذات صباح ، قال لى وهو ذاهب مع عماله للموقع إنه سيعطينى بعض الأجزاء التى ربما انتزعت من الدهليز ، وبالفعل وبعد السكن لمدة ثلاثة آلاف عام فى ضيافة حورمحب عادت بقايا هذه الأعمدة الخمسة لمكانها الأصلي ، واستطعت بالفعل أن أضع ثلاثة منها فى مكانها .

فى نهاية صيف عام ١٩٢١ وبناء على طلب لى سافرت إلى أثينا لأشارك ممثلاً لمصلحة الآثار فى مؤتمر عن إعادة تركيب الأعمدة ، وهذا يعنى وضع عناصر محققة من عمود فى مكانها ، وبدأت الأشياء تعرف فى عالم الآثار ، وفكرة إعادة بناء الآثار المتهدمة أو المدمجة أخذت رويداً رويداً طريقها إلى إيطاليا واليونان . وكنت سعيداً أن أجد نفسى فى البلد الذى شهد كل سحر رحلة زواجى ، وأفدت من الوقت الذى سبق بدء المؤتمر فى الذهاب إلى الأكروبول . وفى الصباح صعدت البروبليس ، الطريق المقدس فيما مضى ، السماء تكاد تلامس الآثار ، وهى بوابات عظيمة الحجم زرقاء تحيط بها أعمدة بيضاء نورية تذكرنى بالأعمدة

فى واجهة بيت الشمال والجنوب فى سقارة ، وأخذت أسأل نفسى عن هذه الأعمدة الدورية التى ظهرت فى مصر قبل ظهورها فى اليونان بزمن .

تواصلت فى صالة المؤتمر مع كل المهندسين المعماريين الذين يهتمون بآثار تاريخية ، مديرى مدارس الفنون الجميلة ومؤرخين مثل بول ليون أو ليوس هوتكور . برنامج اليوم يدور حول أعمال إعادة البناء الجارية فى الأكروبول ، وهذا يسير فى ذات اتجاه عملى فى سقارة . وكنت شغوفاً لمعرفة كيف يعمل زملائى وما هى المبادئ التى يطبقونها . دار النقاش حول قضية معرفة إلى أى مدى يجب الاستمرار فى إعادة تركيب الأعمدة فى البارثينون ، وهو العمل الذى يباشره المهندس اليونانى بالانوس الذى ابتكر كلمة "أناستيلوس" .

يسمح هذا الإنجاز بإعادة عمود بنسبه الدقيقة لما كان عليه فى سالف عهده ، وهذا بالضبط ما قمت به منذ ثلاثة أعوام فى سقارة ، فى نهاية النقاش قرر المؤتمر أن يعيد بناء البارثينون بالعناصر القديمة ، لأنها أكثر ملاءمة من الأكباستر الحديث ، وابتداء من هنا ، بقى أن نحدد فى أى نسبة نستخدم الجديد لإعادة بناء القديم عندما تختفى معظم العناصر القديمة ، بالنسبة لى كانت قضية بسيطة ، وفى الاتجاه الذى يساير المذهب الذى ينادى بالحفاظ على جمال الأثر . فى الكرنك وفى عام ١٩٢٧ ، أعاد الأثرى هنرى سيفرييه بناء معبد صغير بالكامل وهو معبد الملك سنوسرت الأول ، ثانى ملوك الدولة الوسطى (الأسرة ١٢) لأنه كان محظوظاً ؛ إذ عثر على كل الأحجار الخاصة بهذا المعبد ،

والتي كانت مستخدمة في بناء الصرح الثالث بالمعبد الكبير ، لكن عندما ينقصنا معظم الأحجار يمكن أن نرتكب أخطاء ، كما هو الحال في كنسوس وكريت أو معبد مينوس الذي أعيد بناؤه بالكامل من لا شيء ، وهذا ما نعمله إذا لم نعرف ما كان يوجد حقيقة ، أو ما نرسم له تخطيطاً كاملاً من تصورنا .

منذ عدة سنوات وأثناء ندوة في جمعية الآثار بالكوليج دو فرانس حيث تحدثت عن أعمال إعادة البناء التي قمت بها في مجموعة زوسر ، خاصمني أندريه بوشان أستاذ قديم للفيزيكا والكيمياء بالليسيه الفرنسية بالقاهرة ، وهو الذي أمضى وقتاً كبيراً يضع نظريات غامضة عن الأهرام ، وهاجمني من ثم بخصوص الدرج الذي يوجد في فناء الحب سد ، يوجد منه درجان : أحدهما اختفى تماماً والآخر تبقى منه سبع درجات ، وكنت أعمل بالفعل في هذا الدرج عندما جاء بوشان يزور الموقع ، ولم يقل شيئاً آنذاك، ولكنه في باريس أثناء هذه الندوة في الكوليج دي فرانس ، أخذ الحديث ووجه لي الكلام بحدة "السيد لوير ، لقد تحققت أنك أضفت درجاً لسلم فناء الحب سد الذي يتكون من سبع درجات ، وجانبك الصواب ! ألم تشعر أن سبعة هو رقم مقدس وقاطعته بسرعة "هل تتصور أنني أضفت من عندي هكذا ثلاثة درجات ؟ لو أنني فعلت ذلك فلأنه ضروري لنصل للمكان الذي يوصل إليه السلم .. سيد بوشان ، لو أن منزلك احترق لتوه ولم يتبق إلا سبع درجات في السلم ، هل ستمتنع عن إعادة بناء السلم بحجة أنه رقم مقدس؟"

منذ عودتى من أثينا وأنا أعمل، وبدأت بالعمل على الورق فى إعادة بناء نظرية للمجموعة الجنازنية للملك زوسر، والأمر العاجل بالنسبة لبيير لاکو كان هو حماية الآثار التى أحجارها الجيرية ضعيفة، ومن ثم أقمنا أعلى بقايا الدهليز سقفاً للحماية من الشمس والمطر ، ولأننا الآن نجهل الارتفاع الأصلى للأعمدة فقد شيدنا أولاً سقفاً من الخشب على ارتفاع خمسة أمتار، أو أقل قليلاً ، وفيما بعد فى عام ١٩٣٨ وعندما علمنا أن الارتفاع الأصلى للأعمدة هو ستة أمتار وستون سنتيمتراً ، جعلنا السقف على ارتفاع سبعة أمتار . وهذا السقف نشاز بين الجمال المعمارى الذى أبدعه إيمحوتب ، هذا السقف الأسمنتى المزجج كان الشيء الوحيد الذى أثار انتباه لوكور بيسييه أثناء زيارته بعد الحرب، فهو لا يهتم إلا بالجانب العملى من العمارة ، وكل ما عدا ذلك لا يهتم فى نظره . وهذا عكس ما تصوره إيمحوتب ، والانفعال الوحيد الذى أبداه كان عندما قام بزيارة دهليز الصاويين ، حيث أبدى خوفاً من تهدمه على من بداخله .

عام ١٩٣٦ عام درامى

أتذكر عندما كنا نحتفل باختمام موسم عام ١٩٣٥ فى قصر المنيرة مع حمائى وحماتى ، ميمى التى وضعت فلورنس فى ليلة رأس السنة شاركت كذلك . واجتمعنا اجتماعاً عائلياً وعلى غير توقع منا حمل إلينا عام ١٩٣٦ عدة أنباء غير سارة . أول هذه الأحداث موت الملك فؤاد فى شهر أبريل ، على إثر أزمة سكر حادة ، واستدعت الملكة نازلى ولدها فاروق الذى كان يدرس فى لندن على وجه السرعة ، فهو وريث العرش ، ولأنها كانت تدرك أن الإنجليز يودون تنصيب محمد على توفيق الذى يسهل عليهم توجيهه ، فقد رحبت الحكومة البريطانية بسرعة إعادته إلى الوطن .

ونظراً لوصوله متأخراً ، فإن هذا الشاب البالغ من العمر ستة عشر عاماً لم يشارك فى مراسم الدفن المهيبة التى أقيمت لوالده ، ولأول مرة يكرم الشعب ملكه دون موارد . وجئنا للقاهرة خصيصاً للمشاركة فى هذا الحدث ، ولعلى أقول إننا كنا متأثرين ، لم أقابل فؤاد إلا مرة واحدة خلال زيارته لسقارة فى صحبة لأكو ، على الرغم من تصرفه الفظ وصوته الأجش ، كأن كرة وقفت فى حلقه أثناء اللعب ، فإن الرجل تمتع

بروح حساسة ومثقة . أما المصريون فقد اكتشفوا شخصية عظيمة في الملك المتوفى ولكن متأخراً ، كان فؤاد رجلاً جاداً و كريماً ، خاصة وأنه عرف كيف يفرض سلطته على الإنجليز . في الواقع ، عندما قرر التاج البريطاني في عام ١٩١٧ أن يضع على عرش المحفية الجديدة له هذا الابن الغامض لإسماعيل باشا ، لا أحد كان يتصور أنه سيكون عدوهم اللدود ، فلقد أظهر وطنية أصيلة ، فقد أيد تحت ضغط الجماهير - وهذه حقيقة - الوفد ، وهو أكبر حركة تنادى بالاستقلال وزعيمه سعد زغلول ، وبدماً من عام ١٩١٩ وبعد ثلاثة أعوام ترك لقب سلطان وأخذ لقب ملك مصر . وحصل بعد تخطيط على أن تكون بلاده مملكة مستقلة ، وفرنسا كانت الأولى التي اعترفت بهذا الاستقلال معضدة بذلك الصداقة الفرنسية المصرية ، ولكن الحالة الجديدة التي أعطاها لبلاده لم تمنعه خلال أعوام حكمه التسعة عشر من مواجهة القلاقل ، ونازعته سلطانه في النهاية الحركة الوطنية ، وباختفائه لم يتصور أحد أنه لم يمكث إلا ستة عشر عاماً في الحكم ثم اختفى .

الآن ملك شاب محترم وصل لتوه الإسكندرية ذات صباح من شهر مايو ١٩٣٦ ، وكان في انتظاره كبار شخصيات القصر الملكي بزيهم الرسمي الأسود ويحيط بالرقاب ياقات منشأه والجباه تتصبب عرقاً من تحت الطرابيش ، ولا يوجد رياح تخفف من حرارة الجو . ساد جو من عدم الارتياح في الوسط البريطاني بوصول فاروق ، فلم يروا فيه موظفاً بريطانياً كبيراً ، من جانبها فإن الحكومتين البريطانية والفرنسية نسيتا

ما بينهما من خلافات واتفقتا مؤقتاً على تسهيل مهمة عودة الملك الشاب ، العودة العاجلة كانت أولاً عبر فرنسا حتى مارسيليا ثم بالمركب مركب نائب الملك فى الهند التى بناء على قرار جلالة الملكة غيرت مسارها إلى بومباي ، لكى تقل الملك الجديد إلى الإسكندرية . صبى هزيل ومتوتر تحت سترته السوداء الطويلة ويعلو رأسه طربوش وطنى ، وبدا فى هذا اليوم غائباً تماماً عما يحدث حوله وكأنه اختفى على السجادة الحمراء الكبيرة جداً تفترسه عيون الباشاوات الماكورة والأمراء الطامعين ، وسوف يظهر تعصباً قومياً . الأمر الذى أضفى عليه شعبية طاغية سرعان ما ظهرت للعيان . فقد أثار الأمل عندما نادى بتوحيد العالم الإسلامى مؤملاً أن يتابع العمل الذى بدأه جده الأكبر محمد على . ولكنه قبل أن يضع قدمه على أرض السياسة التى لا ترحم كان عليه أن ينتظر حصوله على الأغلبية ، الأمير محمد على وهو الأمير الأكبر من العائلة المالكة اختير لكى يدير مجلس الوصاية على الحكم . وكان شخصاً غير محبوب وله خصومات سياسية كثيرة . ولا يحب إلا أن يعيش بعيداً عن العيون وسط كتوزه فى قصره الملىء بالأعمال الفنية الجميلة ويتحدث لغة غريبة . رجل من زمن آخر استمر يتنزه بهدوء فى عربة الخيل ويشتكى من مرور عربات البنزين ، ومن الضوضاء التى تحدثها مواتير هذه السيارات فتثير ذعر خيوله ، وذات يوم أبدى هذه النظرة انتبأ لكم بأنه سيأتى اليوم الذى نفقد فيه روث الخيول اللززم لأحواض الزهور فى حدائقنا وسوف تتحول حظائر الخيول إلى جراجات ، أما فى السياسة فهو يعرف خباياها ، وعند استقباله يوماً السير ميلز لامبسوت وعند شعوره

أنه مشكوك فيه لإقامة روابط قوية نوعاً ما بألمانيا قال "لقد استقبلوني فيما مضى بشكل مناسب وقلدني إمبراطورهم ثلاث مرات ، وما لا أستطيع أن أغفره لهم هو أنهم جعلوا خليفة الماريشال هند نبرج مجرد أنبأشي ، هذا الهتلر لا يعنى لى شيئاً فلو كان على الأقل كولونيل .

فى عام ١٩٣٦ نعرف أن أجراس التقاعد سوف تدق لببير لako ، وعندنا - نحن الفرنسيين - بعض العلم فيما يختص بخليفته لكن على الجانب المصرى لديهم الرغبة فى امتلاك إدارة مصلحة الآثار ، ومن جانبه ، فإن لako ومنذ عام ١٩١٤ يحكم باستبداد مصلحة الآثار ، كان سعيداً أن يغادر وادى النيل ، مصدر المشاكل بالنسبة له "لقد أجهز على توت عنخ آمون" جملة لم يتوقف عن ترديدها ، حان الوقت أن أترك المكان لفرنسى آخر ، أمل" . منذ عام ١٩٢٢ ، أحوال اكتشاف المقبرة الشهيرة وجود العالم الكبير إلى كابوس حقيقى ، ولكى يكتمل النحس ، فإن الملف القديم الخاص بنفرتيتى طفا على السطح لكى يسبب قلقاً ، فى خاتمة المطاف تطالب مصر برأس نفرتيتى الشهيرة من جديد التى سلبت منذ اثنين وعشرين عاماً على يد الألمان أمام أعين مدير المصلحة ، ولم ينعم لako بالراحة بعد عودته لباريس فقد فقد ابنه فى حادث ، أصيب على أثره بجلطة فى المخ كانت لها عواقب صحية وخيمة ، فلم يعد تقريباً يستطيع أن يتحدث وأصبح وجوده منذ تلك اللحظة وجوداً صامتاً مليئاً بالألم والحزن . وكنت واحداً من قلائل كان يسمح باستقبالهم مع جون سان فار جارتو - الذى توفى مع لako فى عام واحد - وكنا نتنزه

طويلاً فى غابة بولونى ، وهو الرجل الذى أعترف له بالجميل والذى فتح
لى الطريق إلى مصر أخيراً ، ها هو يرحل فى صمت عن عمر يناهز
التسعين عاماً فى ١٩٦٣ .

فى لحظة رحيله صادر المصريون وظيفه مدير مصلحة الآثار ، ليضعوا
حداً بذلك لاحتكار الفرنسيين لهذه الوظيفة الذى استمر طويلاً ، وعللوا
ذلك بالمشاكل الكثيرة التى حدثت فى عهد لاکو لكى يشوهوا صورة فرنسا ،
وطلبوا من فؤاد أن تكون إدارة مصلحة الآثار التى أنشأها مارييت
وطنية ، لا يوجد أقدر من أحد أبناء النيل على فهم أسلافه والاهتمام
بحماية الكنوز التى تركوها لنا . هكذا كتب سليم حسن فى الصحافة
وكان هو الأكثر مجاء وحرصاً على إحراز وظيفة مدير المصلحة ،
وطرحت خلافة لاکو عدة مشاكل ، فكان ريجنالد إنجلباخ المسئول عن
الصيانة بمتحف القاهرة أول من تقدم للوظيفة ، وكان رجلاً ممتازاً ،
لكنه لا يتمتع بشعبية لدى الإنجليز ، شخصية مميزة يتكلم الفرنسية
الفصحى التى تعلمها فى الخنادق حيث كان يقاتل أثناء الحرب ، وأكثر
من ذلك ، كان يحس بسعادة مأكرة فى أن يفاجئ الناس ولم يكن هذا
وسط علم المصريين الذى كان لا يزال أرسقراطياً جداً فى ذاك العصر ،
كان بيير مونتيه محط نظر لبعض الوقت ، لكنه استبعد بسبب شخصيته
غير الودودة . وأخيراً كان الحديث عن ريموند فيل رجل علم متمكن بدأ
فى عام ١٩١١ فى مصر الوسطى فى موقع ظل غامضاً وأثارة غريبة ، هرم
كأنه كتلة ضخمة على حنود الأرض الزراعية ، وعلى حافة الصحراء الليبية ،

لكن هذا العلامة ذا اللغة المزخرفة كان إسرائيليا ، ولم يحظ بدعم علماء المصريين . هذا التمييز بدا لي متناقضاً لأن فؤاد الذى سيقول كلمة الفصل ، لم يكن لديه هذا الأمر ، فأقرب مستشاريه كان هو الحاخام ناحوم أفندى عضو مجلس الشيوخ فى مصر . وأخيراً ويشكل مدهش تماماً وقع الاختيار على المسئول عن صيانة الآثار المصرية باللوفر المحثك أتيين دريوتون . فؤاد الذى كان حريصاً على تطبيق التصور الذى تبناه والده الخديوى إسماعيل الذى قال : "لم تعد مصر بلداً إفريقيّاً بل هى جزء من أوروبا" قال هذا عند افتتاح قناة السويس ١٨٦٩ ، ولم يعر الاعتراضات التى أبداهها العلماء المصريون اهتماماً ، وفضل عليهم مرة أخرى عالماً فرنسياً ، وهذا الاختيار أسعد أيما سعادة الجالية الفرنسية ، وأثبت ثورة بين المصريين ، وكبح جماح طموحات الإنجليز مرة أخرى ، رغم الاحتلال الإنجليزي فقد حافظت فرنسا على مكانتها المقدسة ، وأفضل مثال أن الناس كلهم فى مصر فى هذا العصر يتحدثون الفرنسية ، الملكة نازلى والملك فؤاد ومجموع الطبقة الراقية فى المجتمع المصرى ، الإدارات والدواوين كلها ومجلس الوزراء يكتب تقاريره بالفرنسية ، فقد حافظت لغتنا على المكانة التى تبوأتها منذ زمن طويل فى ثقافة هذا البلد ، حتى القضاء على الملكية ، لتحل العربية مكانها منذ مجئ ناصر للسلطة .

بورخاردت ونفرتيتى

ذات يوم وبينما كنت أقوم بعمل قياسات للهرم ، استقبلت زيارة لودفيج بورخاردت ، وهو أحد الأوائل من المعمارين الأثريين الذى أتى ليعمل فى مصر والأول الذى يهتم بالعمارة المصرية كما هى ، وقام بحفائر أهرام أبى صير ، حيث دفن فراعنة الأسرة الخامسة ، وتولى عملية إعادة بناء ، ولكنها للأسف توقفت عند الرسومات فقط لأنه فى عام ١٩٠٥ لم يتخيل أحد إعادة إعطاء الأثر شكله الأصيل مرة أخرى . ماريت الذى كان لا يزال هنا ، وكان ينظر إليه على أنه رائد فى هذا المجال تفهم أهمية القيام بأعمال إعادة بناء ، ولكنه كان متشبهاً جداً برغبته فى إيجاد كنوز ، فنادرًا ما نجد أثريين يهتمون بالحفاظ على ما تبقى ، وكان عليه أن يهتم بإعادة تركيب الأساطين النخيلية بالمعابد الجنائزية الموجودة بالقرب من أهرام أبو صير ، وطالب بذلك بورخاردت بدلاً من بعثرة ما تبقى فى المتاحف الأجنبية .

عالم المصريات اللامع هذا كان سبباً فى المعضلة الثانية التى سمعت سيرة لأكو على رأس مصلحة الآثار ، فى ديسمبر ١٩١٢ باشر فريق المعهد الألمانى للآثار الشرقية الذى يقوده بورخاردت بنفسه

الحفائر قبل تل العمارنة ، عاصمة الفرعون المتهرطق أخناتون ، مدينة مهجورة منذ ثلاثة وثلاثين قرناً ، ويتنظيف مكان أتيليه نحت عثر هرمان رانكه مساعد بورخاردت على تمثال نصفى غير مكتمل لسيدة على جانب كبير من الجمال، التى لم تكن إلا نفرتيتى زوجة أخناتون ، ولعلمه بأهمية الاكتشاف ، فقد سارع بإبعاد عماله عن المكان حتى محمد رئيس عماله المفضل لم يستطع أن يلحظ شيئاً ، لأنه فى هذه اللحظة كان التمثال تقريباً لا يزال مدفوناً فى الرمال ، ولم يشاهد منه إلا مؤخرة التاج ، وبسرعة أرسل رانكه رسالة إلى بورخاردت "فتسرع بالقدوم ، عثرنا على تمثال نصفى ملون رائع فى المربع أ - ٤٧" .

هذا الوجه الأنثوى الرائع نحت فى الأسرة الثامنة عشر على يد "أستاذ النحاتين فى البلاط الملكى" تحتتمس ، التمثال النصفى بالحجم الطبيعى من كتلة من الكوارتزيت ، بقى فى أتيليه الفنان بلا شك لأنه عثر عليه غير مكتمل ، فقط عين واحدة كانت مطعمة تحت الحاجبين الطويلين والأخرى بقيت فارغة ، والوجه متقن جداً . تسمم الفريق الألمانى فى مكانه فى أول الأمر ، ثم نقلوه بحذر شديد وخفاء تام إلى حيث خيمة الأستاذ بورخاردت .

أثناء الحفائر عثر الأثريون فى المكان نفسه على قطع من الصلصال منقوش عليها بالخط المسمارى، وتحكى عن صلوات فرعون بشعوب أسيا . وكانت نفرتيتى ابنة ملك ميتانى ، وعن طريق المبادلة بكميات كبيرة من الذهب باعها والدها للفرعون القوى فى طيبة ، وبعد رحلة طويلة من

الفرات إلى النيل ، تعرفت الأميرة الصغيرة البالغة من العمر خمسة عشر عاماً على زوجها القادم ، وتحت وقع التأثر بجمالها أسماها الشعب "بهاء البهى أتون جاءت الجميلة" ، وعرفت دوماً لدى الكتبة بهذا الاسم ، بعد ذلك بثلاثة آلاف عام كتب وهو سعيد جداً فى يوميات حفائره ، لا يفيد بشئ وصف هذه القطعة ، يجب رؤيتها ! " فكرة الإبقاء على عمل فنى كبير كهذا فى مصر أمر غير معقول فى نظره ، وبالاتفاق مع رانكه فقد تكتموا أمر هذا الاكتشاف ، وكان عليهم أن يحصلوا على موافقات مصلحة الآثار التى تشترط بوضوح "أن الآثار المكتشفة تبقى ملكاً لمصر ، وتلك التى يمكن إخراجها هى التى يوجد لها أكثر من نموذج ، أو تلك التى لا تحمل قيمة تاريخية أو ألا تكون وثيقة فريدة" . وخطط بورخاروت لختف الملكة وانتظر وفريقه عدة أيام ثم استدعوا لآكو إلى تل العمارنة للتفتيش الروتينى على الحفائر الجارية ، وتم انتخاب قطع أقل أهمية . ولما رأى أن الأمر لا يستدعى وجوده نظراً لأنه لا توجد مكتشفات ضخمة ، لكنها أشياء عادية جداً ، فقد أناب مدير المصلحة موظفاً مصرياً والذى قال بدوره بعد أن فحص الآثار المعدة لإرسالها لألمانيا فى تقريره ، أنه لا يوجد أثر ذو قيمة تاريخية أو فنية ضمن الصناديق الخمسة التى سوف تشحن ، وبالتالي وقع لآكو التقرير ، وهكذا وبدون أن نفهم وجد التمثال النصفى الشهير فى متحف برلين ، فى الخزانة التى تمول حفائر تل العمارنة . ولكى لا تتعطل أبحاثه فى الموقع قرر ترك الجميلة المصرية نائمة بعيدة عن الأعين لبعض الوقت . معتقداً أن الأمر مع مرور السنين سيهون فى نظر مصلحة الآثار . وأخطأ التقدير تماماً ، فعندما

قرر أخيراً أن يخرجها من مخبئها عام ١٩٢٢ ويعرضها فى المتحف
نشر الصحفيون الأمر وكتبوا مقالات يمتدحون العمل والكشف ، ولم
يتأخر الخبر فى الوصول إلى القاهرة وكانت فضيحة ، كيف خرج عمل
كبير كهذا من مصر ، وطُلبت تفسيرات سريعة من لاکو . من جانبه لعب
بورخاردت دور الأبرياء ، فأعلن أنه اكتشف هذا العمل وأضاف بيمين
كاذب أنه لم يخبئ شيئاً : "تحدثت عنه إلى مدير المصلحة ، بيير لاکو ،
وأخذت موافقته على سفر هذه القطعة ضمن قطع أخرى فى مقابل
إعطاء متحف القاهرة قطعاً مشابهة من تلك التى عثرنا عليها فى حفائرنّا"
ويغضب شديد نفى ذلك لاکو ، ولكن بورخاردت أعلن بعدها مباشرة :
"لقد نسى لاکو أننى دعوته لياتى بنفسه ليفتش على القسم الذى سنأخذه
من المكتشفات ، ولكنه أرسل بدلاً منه أحد مساعديه الذى وافق على سفر
تمثال نفرتيتى" . واتخذت الحكومة المصرية قرارات لمنع الألمان من
إجراء أى حفائر على أراضيها ، طالما لم يرجعوا تمثال الملكة ، ومن
جانبه بذل لاکو ما فى وسعه من أجل عودة نفرتيتى ، وهو مثقل بالفعل
بمشكلة توت غنخ أمون وها هو بصدد فضيحة أخرى ، ومجهوداته كلها
سوف تؤتى أكلها عندما يأتى الوزير الألمانى بالقاهرة ، البارون فون
شتوهير ليعلم للملك فؤاد أن بلاده قررت أن ترد لمصر التمثال النصفى
للملكة ، وأبى سوء الحظ إلا أن يتسلم هتلر مقاليد السلطة فى هذا
الوقت ، وهو على دراية بما يجرى بين مصر وبلدة وطلب أن يرى التمثال
الشهير وبعد عدة أيام كان على فون شتوهير أن ينقل للملك فؤاد تلغرافاً
وصله لتوه من برلين ويعلمه فى نص وقح جداً "فخامة أدولف هتلر ،

الزعيم والمستشار ، بعد طلبه رؤية التمثال النصفى للملكة نفرتيتى
بمتحف برلين وقع فى غرامها ، ويأسف بشدة لعدم استطاعته مفارقتها
” بقيت الجميلة المصرية هناك “ .

كان عالم المصريات الألمانى يبلغ من العمر أكثر من ستين عاماً
عند مجيئه لسفارة ذاك العام ، وقضية نفرتيتى سوف تجد حلاً سعيداً
بالنسبة لمصر ، ولم يكن بورخاردت شخصاً غير مرغوب فيه فى المواقع
الأثرية . هذا الرجل المرح بحجمه الصغير ووجه الممتلئ وشعره الأبيض
الكثيف المجد فى بساطة جذابة ، كان مهتماً بالهرم المدرج منذ عدة
سنوات ، واستدل على المصطبة الجنوبية تحت الجدار فى الواجهة
الجنوبية ، وكان يعتقد أنها مستطيلة ، الشكل الأكثر شيوعاً للمصطبة ،
لكن آخر عمليات تنظيف قمت بها أظهرت شكلاً مربعاً ، وهذا ما جعلنى
أسرع فى نقله إليه عند استقباله ، مما جعل شاربه الأبيض يهتز وهو
يقول ” أيها الشاب أنت لن تعلمنى الآثار ، المصطبة لا يمكن أن تكون
أبداً مربعة! “ لقد وضع بورخاردت قاعدة مطلقة لشيء لم يقم عليه دليل
فى الواقع . فقد كان مارييت هو أول من استخدم لفظ مصطبة - التى
تعنى دكة فى العربية - للإشارة إلى المقابر المصرية الأولى المكتشفة
بالجيزة ، هذه المباني ذات الصبغة العائلية تتشابه مع المقاعد التى
يضعها المصريون أمام بيوتهم ، وبعد ما كتبت له باحترام أننى لا أزمع
أننى أعلمه الآثار اقترحت أن أعرض عليه ما اكتشفت وهكذا قلت له ،
سوف ترى بنفسك يا سيدى أن هذا الأثر الذى ربما لا يكون مصطبة

هو حقيقة مربع الشكل ! وقبل الأستاذ العجوز أن يتبعنى ولاحظ بدقة هذا الجزء المختبئ من الهرم ولدهشتى فقد انتهى بأن اقتنع بأننى محق ، ولم يحس بإهانة بل على العكس بعث لى ، بالتالى بمؤلفاته كلها ! وفى واحدة منها تناول من جديد أحد المكتشفات بالهرم المدرج وهو أن لون الفيانس والكتابة وطريقة كتابة الحروف فى اسم حورس لا تسمع بالقول بأنها ترجع لبداية عصر الأسرة الثالثة ، ولكن تجعلها معاصرة لأعمال الترميم التى تمت على عصر الأسرة السادسة والعشرين ، وهو رأى لم يثبت كذلك .

١٩٤٥ و ١٩٥٩ والعودة

كنت رغماً عنى شاهداً على التاريخ المعاصر لمصر ، رأيت ما مر من أحداث وما كانت عليه الحياة خلال خمسة وسبعين عاماً ، وهذه ميزة لا يتمتع بها الكثيرون . كانت هناك مرحلتان من الأحداث الكبيرة مرت بمصر ، وفي كل مرة كنت أعتقد أنني لن أرى مرة أخرى هذا البلد وكنت أجد أملاً عندما تأتيني هذه الفكرة ، ليس لأننى أحب مصر فحسب ولكن لأننى لم أنته من العمل الذى استغرق كل عمرى . بالفعل فى عام ١٩٣٩ عندما غادرنا مصر لنقضى الإجازة فى فرنسا ككل عام ، كان مستبعداً بالنسبة لى أن أتخيل أن الحرب سوف تندلع فى أغسطس وسوف تتعذر عودتى من جديد والتحققت بجيش الشرق . وكان علىّ إذا كنت موجوداً فى فرنسا أن ألتحق بمركز التعبئة فى إبينال ، وهكذا وجدت نفسى فى قيادة الجيش الرابع بالقرب من لونفيل فى قسم التموين . ولم أكن أتصور أن ستة أعوام تباعد بينى وبين موقع الصفائر ، وكان الشتاء الأول مؤلماً ، ولم أكن أعلم شيئاً عن أسرتى ، ولم أكن منذ عدة أعوام أقضى الشتاء فى فرنسا ، ووجدت نفسى لا أتحمل البرد القارس هذا العام ، فلم تتوقف الثلوج ، ولحسن حظى كان لدى رفيق فى البؤس .

شاب حاد الطبع وطريف ، وكان فى مشروع إخفاء مواد الحرب ، الأكثر غرابة فى هذا التاريخ أننى كنت فجأة مجبراً على عمل عكس ما كنت أقوم به فى سقارة ، فهناك فى سقارة كنت أخرج ما اختفى وغاب وهنا أخفى وأدفن ما ظهر وتبدى ! لم أستطع أن أجد عائلتى إلا بعد اندحار الجيش فى يونيه ١٩٤٠ ، بقينا فى باريس خلال فترة الاحتلال كلها وأثناء الهدنة طلبت الرحيل لمصر ، لكن الإيطاليين الذين كانوا يحاصرون البحر المتوسط عارضوا هذا الطلب ، وابن عمى هاردي وجد نفسه محصوراً هو الآخر فى فرنسا ، فقررنا أن نفتح مكتباً للمعمار فى باريس ولكن لأن الحرب استمرت فقد كنا مضطرين لقلق الباب لعدم وجود زبائن ، وأفدت من هذا الوقت فى كتابة عدة كتب عن أعمالى ، وأن أنفذ مشروعاً طامحاً فكرت فيه منذ زمن طويل وهو : بناء نموذج لمجموعة زوسر الجائزية .

فى عام ١٩٤٥ ومع أول فرصة وانتنى سافرت إلى مصر تاركاً ميمى والأولاد فى باريس ، وفى القاهرة زرت حمائى وحمائى اللذين غابوا المنيرة لتوهما وهو المكان الذى نتعلق به جميعاً وتركوا متلى ذكريات كثيرة غالية هناك ، وفى عام ١٩٤٠ ترك حمائى مكانه لشارل كونتز السكرتير المسئول عن المكتبة منذ عام ١٩٣٥ ، وكان عالماً كبيراً بلا شك ، ولكن كان رجلاً فظاً وحقيقياً ، بيبير جوجيه الذى اختاره ليخلفه والذي لم ير الآخرين إلا من خلاله ، فلم يكد يتسلم مهام منصبه بوصفه مديراً جديداً للمعهد الفرنسى للأثار الشرقية حتى طلب من عائلة جوجيه أن تغادر فى أسرع

وقت ، ولم يبد كوتنز أى لطف أو ود تجاه الرجل الذى عامله يوماً بكل ود واطف ، ونظراً لعمرهم المتقدم كان يمكنهم البقاء فى المنيرة كما كانت تقضى التقاليد ، ولكن نظراً لجفاء المعاملة من خليفته قرروا المغادرة وحمل حقائبهم والذهاب للسكن فى إحدى الشقق . لا شئ تغير فى سفارة ، ومواقع العمل بقيت كما تركت هنا وعدت لمنزلى بسعادة بالغة ، وبعد مرور ستة أعوام من الغم والحزن أعود لرؤية الصحراء ، الامتدادات الموحشة الصامته أبداً وأضواؤها المبهجة أعادت لى نشاطى ، يا له من حسن طالع أن تعود لعملك ، يتبقى الكثير لنقوم به ، وبدأت بسرعة فى إعادة البناء فى حوائط المدخل الموجود فى سور زوسر ، ألحقت بى مصلحة الآثار فى عام ١٩٣٩ قبل مغادرتى بقليل مهندساً مصرياً شاباً . عبد السلام حسين لتشبيد السقف الذى يحمى الدهليز ، ولكى يكون هذا السقف مناسباً أردت فى أسرع ما يكون إعادة بناء السور وهو عمل ضخم تطلب ما يقرب من عشرة أعوام من عام ١٩٤٦ وحتى عام ١٩٥٦ ، أى حتى قضية قناة السويس . وفى غيابى بدأ عبد السلام فى تشبيد هذا السور بأحجاره الأصلية ، ولكنه وجد أنه جهد شاق أن يفحص كل حجر لوضعه فى مكانه الصحيح فقد بسط المسألة واستخدم أحجاراً جديدة ، ولحسن الحظ فإن المجلس المسئول عن حماية الآثار والذى كان مديره فى هذا الوقت إنجليزياً لاحظ هذا الوضع وأوقف العمل واستدعى دريوتون سريعاً ، وأكدت له أن هذا العمل لا يمت بصلة لمشروعى وكان من الأفضل أن يتوقف عبد السلام عن العمل فى السور حول المجموعة حتى عودتى ، وصدمت من عدم فهم المصريين فى مصلحة الآثار ،

كثيرون أولئك الذين لا يفهمون لماذا لا أبسط العمل وأقوم بإعادة البناء بالطوب الجديد بدلاً من إضاعة الوقت في البحث عن الأحجار الأصلية ، وكان على أن أقاتل من جديد لأوضح أن أهم شيء في مجموعة زوسر هو استخدام الأحجار الأصلية ، وخمنت أننا لدينا ما يكفي من أحجار أصلية لإعادة بناء المدخل ، وناقشت في حوارات طويلة عبد السلام وهو ولد ذكي وتفهم تماماً وجهة نظري ، ولكنه أخيراً انشغل بتشديد منزله الخاص ولم يبال بالقضية ، ثم سافر من ثم للولايات المتحدة حيث توفي عبد السلام أثناء إجراء إحدى العمليات .

يمثل مدخل المجموعة الجنازية العمل الأكثر صعوبة في المجموعة الجنازية للملك زوسر كلها ، حيث كان يجب تشييد سور بارتفاع ستة أمتار وستين سنتيمتراً كالأصل واستخدمت الأحجار كلها التي وجدتها في الرمال في إعادة بناء الواجهة الشرقية بأحجار مستطيلة بكل دقة ، وهذا المدخل هو الذي يقود إلى أقدم صالة أعمدة شييت بالحجر في العالم . وعملت في سلام لمدة عشرة أعوام ؛ ولكن في عام ١٩٥٦ مثلت قضية قناة السويس حلقة جديدة من الدراما في تاريخ هذا البلد ، ومن ثم لم تعد مصر هي مصر . وبدأت الحكاية في عام ١٩٥٤ عندما وقع ناصر اتفاقاً يقضى بجلاء القوات البريطانية عن قناة السويس ، ومغادرة مصر نهائياً ، وفي عام ١٩٥٥ قرر تشييد السد العالي - هرمه - في أسوان ، ولكن في عام ١٩٥٦ رفضت الولايات المتحدة بالاتفاق مع الأوروبيين تمويل هذا المشروع ، وكانت الصفحة عنيقة ولم يتأخر الرد ، بعد ذلك بأسبوع ومن

الإسكندرية، وفي ٢٦ يوليو بشكل أدق، بمناسبة الاحتفال بالذكرى الرابعة للثورة وقف ناصر ساخرًا من الغرب ، وأعلن فجأة تأميم شركة قناة السويس ، وهكذا فإنه سوف يمول هو سده وبضربة واحدة يرسخ عقد المحبة مع شعبه من الفلاحين ، فكان أن ضربه أسطولان بحريان وثلاثة من الأساطيل الجوية من قاذفات القنابل والمظليين الإنجليز والفرنسيين بوصف ذلك ردًا على هذه الضربة الجريئة من ناصر . حملة خاطئة وغير محسوبة قادها من جانب الإنجليز اللورد مونتباتن والتي ستكون بالنسبة للتحالف الأوروبي هزيمة جارحة وبالنسبة لمصر انقطاعاً في العلاقة مع الغرب .

كنا في شهر أكتوبر وكنت لتوى واصلاً من فرنسا وكان يوم جمعه ، وكنت أتناول الشاي في شرفة نادى سبورتنج مع مصطفى أمير . خليفة دريوتون على رأس مصلحة الآثار المصرية عندما سمعنا أصوات الإنذار في المدينة كلها ، ومن بعيد رأينا أعمدة الدخان تتصاعد في السماء ولم نكن نعلم ماذا حدث وأخذ الناس يهرولون في كل اتجاه لكي يختبئوا وجاء الخبر : هاجم فرنسيون وإنجليز مصر ليأخذوا قناة السويس على مدخل القناة ، المصريون غاضبون جداً وأنزلوا تمثال فرديناند دى ليسبس الذي كان منذ زمن منتصباً على رصيف القناة في المدخل . فلم يمهلوا حتى يصدوا غالباً هذه المحاولة الفاشلة لتحرير القناة وخاصة محاولة إسقاط ناصر . من يوم لآخر صودرت كل أموال الأجانب ، فرنسيين ، وإيطاليين ، وشرقيين بلا تمييز ، ويونان ، وسوريين فالكل كان أجنبياً في بلد استضافتهم وأعطتهم الحياة ،

والأغلبية لم ترغب فى مواجهة الأحداث . مجتمع يعيش فكرة رومانسية جداً فى ذاتها ، من يوم للتالى لم يتبقى إلا مشهد قاس لجنة مفقودة ، ومن يوم لآخر خربت مصر وتغير كل شىء من البنية التحتية للبلد حتى أسماء الشوارع والميادين ، وجاء على وقت كنت أذهب إلى سقارة تحت الحراسة ، ولكن سرعان ما توقفت الحفائر تماماً . وكنت مجبراً على البقاء فى القاهرة ، حيث وجدت نفسى محصوراً ، أغلق حسابى فى البنك وصودرت سيارتى وتوقفت مصلحة الآثار عن صرف راتبى ، باختصار كنت هنا دونما القدرة على عمل شىء . ولم تعد هناك رحلات طيران لفرنسا ، وأقرضنى أصدقاء نقوداً وأخذت أول طائرة لبروكسل .

وعشت ثلاثة أعوام فى باريس كأنتى منفى يملأنى وسواس أننى قد لا أستطيع العودة لإتمام أعمالى فى سقارة ، خلال ثلاثة الشهور الأولى تلقيت ثلاث مكافآت من وزير الثقافة ، ثم وجدت نفسى بعد ذلك بلا شىء ، وأخيراً استطعت الالتحاق بمركز الأبحاث الوطنى CNRC بوصفى أستاذ أبحاث ، وهذه وظيفة مهمة ولكننى أفتقد مصر تماماً . فلقد أنجزت معظم العمل فى سور المدخل قبل رحيلى ويبقى أمامى إعادة بناء مقاصير فناء الحب سد . ذات يوم اقترح على بيير موتتيه الذهاب إلى ليبيا لأبشر أعمال رفع أثرى فى مواقع فى سيرينيا حيث بدأت هناك حفائر ، وكانت بالنسبة لى فرصة غير متوقعة ، فسوف أغوص من جديد فى أعمال حفائر بموقع أثرى ، وهذا ما أفتقده ، وسوف أقرب من ناحية أخرى من مصر ، وكان ذلك فى نوفمبر ١٩٥٩ .

ولأنه لم يكن منتظراً تحسن العلاقات مع فرنسا فقد سلكت الطرق الرسمية للعودة لمصر لأرى مدى إمكانية التعاون مع مصلحة الآثار . فى ليبيا نفذت الرفع المعماري لىاء صغير فى أبولونيا حيث قام ببيير مونتيه ببعض عمليات التنظيف ، وكان الهدف عمل تخطيط عام للمدينة القديمة ، حيث يقوم الفريق الفرنسى بالعمل خلال الثلاثة مواسم الماضية . كان يحيط بالمدينة سور كبير رفعتة معمارياً ، وانتهت الأعمال وسافرت لبغداد ومنها لمصر على متن أول طائرة ، وفى القاهرة صدمت ، وفى عام ١٩٥٩ لم تكن المدينة تمت بصلة للمدينة القديمة التى أعرفها منذ عام ١٩٢٦ ، اليوم يوجد أربعة ملايين نسمة ، وهذا كثير ! وبدأ السكان يشعرون بالاختناق . أما إذا ما نظرنا إلى خمسة عشر مليوناً اليوم ، فماذا يكون الحال ؟ فى غضون ثلاثة أعوام ثبت ناصر سلطته ؛ الثورى البسيط أثبت بأساً وقوة وكان اشتراكياً متطرفاً ، وناذى بالحدائثة ، وقاتل ليجعل لمصر صورة جديدة لدى العالم . والمباني الفوضوية فى كل مكان كأنها ثورة فى البناء .

دونما كثير انتظار ذهبت لمصلحة الآثار واستقبلونى بشكل جيد ، ولم يعترض أحد على أن أعود لاستئناف عملى فى سقارة ، ولكن على وزير الثقافة أن يقرر هذا . ثروت عكاشة ، صديق ناصر . ووصلت إليه بفضل طبيبه ، وكذلك الطبيب العام للجيش الذى جعلنى أقابله وكان صديقى واقترح على اصطحابى لمكتب الوزير ، وكان أن وصلت لقصر عابدين الذى تحول منذ قيام الثورة لقصر رئاسى ، واستقبلنى ثروت عكاشة دون تأخير ، مختلف تماماً عن ناصر ، رجل ذكى وساحر

ومثقف جداً وعاشق للفن ، أمضى ثلاثة وعشرين عاماً من عمره فى كتابة ثلاثة أجزاء عن تاريخ الفن، ولعب دوراً رئيسياً فى إنقاذ آثار النوبة ، وكانت فرصة بالنسبة لى أن يكون رجل كهذا على رأس وزارة الثقافة ، وكنت قد حملت معى كل الرسومات وصوراً فوتوغرافية لأعمالى بالموقع لإقناعه ، وشرحت له أننى أصبحت موظفاً فرنسياً ، وأن المركز الوطنى للأبحاث CNRS لن يمانع أن أعمل فى مصر أربعة أشهر سنوياً لإنجاز إعادة البناء فى آثار زوسر ، وسمعتى للنهاية دون أن يقاطعتنى وعندما انتهيت من حديثى نظرت إلى مباشرة وقال لى " ... حسناً ، أنا موافق تماماً !".

وبالتالى رأيت عكاشة من جديد ، وأخر مرة كانت فى عام ١٩٩٥ عندما زرت فى منزله الكبير بالمعادى ، فقد أفاد من تقاعده لكى يكرس نفسه لأعماله الأدبية ، وكنت سعيداً لرؤية الرجل الذى ساعدنى على إنجاز أعمالى ، فقد أبدى اهتماماً بالغاً بأعمالى طيلة فترة شغله لمنصب وزير الثقافة ، وبكرم بالغ كان يصرف على هذه الأعمال كل ما تحتاجه ، وكان عصراً زاهراً بالنسبة لسقارة لسوء الحظ سرعان ما انقضى وتبعه عصر طويل من البقرات العجاف ، ولم ينس عكاشة أبداً : "لقد وجدت نفسى أمام رجل - هكذا يقول - يتحدث إلى بحماس عن عمله الذى بدأه فى سقارة فى عام ١٩٢٦ ، وعيناه لامعتان بالدموع ، ولديه تصميم كبير على إقناعى ، ولم أكن أعرفه ، ولم أكن أعرف أعماله كذلك ، ولكنه كانت لديه رغبة قوية فى أن يعود للعمل ، وأقنعتنى وأجبتته بالموافقة على العودة لاستكمال أعماله ، وأننى سأتولى باقى الأمور".

عندما خرجت من مكتبه فى هذا اليوم الجميل عام ١٩٥٩ كنت سعيداً للغاية ، ومن العمر الذى يفكر فيه معظم الناس فى التقاعد ، عمر الثامنة والخمسين ، أبدأ المرحلة الثالثة والأطول من عمري بوصفى أثرياً ولم يخطر ببالي أبداً أن أتوقف ، يا لها من فكرة ، فقدت وقتاً ليس بالقصير ! والآن تركيزى كله ينصب على العمل الذى على أن أتمه ، إنجاز إعادة بناء المجموعة الجنائزية للملك زوسر ، أن أقوم بعملية التنظيف وعمل تقويات للأهرام التى بها نصوص ومتابعة دراسنى لعمارة تاريخ المجموعات الهرمية فى مصر ، باختصار حياة جديدة .

إمرى

حتى عام ١٩٣٥ ، لم يحل أحد محل فيرث فى سقارة . مع كويل العجوز ، حاولنا أن نكتب عن أعمال صديقنا الراحل ، وبعد رحلة بقيت وحدى أعمل فى مجموعة زوسر ، كما كنت أعمل منذ عشر سنوات ، وكنت مندهشاً فقد كان الإنجليز ، فى تنافس شديد معنا ، مجبرين على التسليم لنا بقيادة مصلحة الآثار ، فإنهم فى المقابل حاولوا أن يضعوا قدماً لهم فى كل موقع ، ولكنهم لم يحصلوا على امتياز لهم فى سقارة حتى الآن .

كان السير ميلز لامبسون ، آخر معتمد سامى بريطانى فى القاهرة ، كان لتوه قد قضى عدة سنوات فى الصين وبدأ أنه عاد لأرض مقهورة ، أراد أن يجعل التاج البريطانى يسيطر أطول وقت ممكن ، وكان هو فى مواجهة فاروق وكان جافاً وذا تكوين عملاق ، حوالى المترين طولاً ، ذات يوم وصل سقارة يحيط به سكرتيره فرانك ، ويجعلان المرء يتذكر دون كيشوت وسانشو بانسا ، ولأننى لم أكن موجوداً عندما حضرا ؛ توجهنا ببهجة متعجرفة لرئيس الموقع طالبين رؤية الموظف الإنجليزى المسئول . وأجابوهما أنه لم يعد هنا إنجليزى ولكن هنا الآن فرنسى واحد ، وتعنى مقابلتى سريعاً ، واقتрحت عليه زيارة للموقع كما أفعل مع الشخصيات كلها

التي تزور الموقع منذ زمن طويل ، ولدهشتي فقد أنصت لامبسون لشرحى وأصبح محباً حقاً للموقع ؛ الأمر الذي دفعه لأن يزوره بعد ذلك عدة مرات ومع ذلك فى هذا اليوم ومنذ عودته للقاهرة ، طلب من مصلحة الآثار . تعيين أثرى إنجليزى بسرعة فى سقارة ، وكان والتر بريان إمري .

ولم أكن أجهل اسمه لأنه يعمل فى مصر منذ عام ١٩٢٤ مع فاروق عام بيننا ، فنحن فى العمر نفسه ، وعلى عكس فيرث وأنا فقد كان مغرمًا بمصر منذ صباه وبأشهر دراسات فى هذا الاتجاه فى معهد الآثار فى جامعة ليفربول ، فيما بين عام ١٩٢٤ وعام ١٩٢٨ عمل فى طيبة ، واكتشف حوالى عشرين مقبرة . وفى عام ١٩٢٨ أرسل إلى النوبة ، أرسلته مصلحة الآثار حيث اكتشف آلاف المقابر وأصبح متخصصاً فى الآثار المبنية بالطوب والطين ، وأتذكر حكاية طريفة حكاهها فيرث بسخرية ، يعرف الإله أن التظلمات كثيرة ، والإدارة المصرية وقواعدها ضيقة الأفق ، فيرث سافر للنوبة من أجل غاية مثل بعثة إمري ، وهى الإشراف على بناء خمس وعشرين خيمة عند سد أسوان تابعة لمصلحة الآثار ، ويعودتهما حسبنا فى الحقائق خيمة زائدة ، وهذا الأمر دفع المدير الإدارى للمصلحة أن يبعث إلى فيرث خطابات يطلب تفسيراً لهذا ، ولما لم يصلوا لإقناع المدير أمسك فيرث بقلمه وكتب : لعل إحداهن قد وضعت خيمة صغيرة أثناء الرحلة .

عندما تعرفت على إمري تأسفت بمرارة على رحيل فيرث ، من الناحية الإنسانية ، يقف الرجلان على طرفى نقيض ، إمري بدا لى شخصاً

غريب الأطوار ، واثق من نفسه ومتكبر ولا يقبل أى نصيح وكان سبباً فى غضبى فى بداية عملنا معاً لأننى يمكن أن أحتج بأننى أعرف الموقع أفضل منه ، وهو يجب أن يتصرف كأنه قائد جيش ، وكأنه ترك الحرب فجأة برتبة كولونيل ، مع أنه لم يمر بالخدمة العسكرية ، لكى ألتقى به لابد من وسائط وفى الصحراء ، يمشى كأنه فى ساحة معركة بعيداً أمام من معه ! كانت هناك صعوبة فى أن نتفق معاً وحاجز اللغة يعقد المشكلة أكثر، فهو يتحدث الفرنسية بشكل أسوأ من تحدثى بالإنجليزية . وهذا يوضح مستوى المحادثة التى قد تجرى بيننا" وعلى العكس منه كانت زوجته سيدة لذيذة ولطيفة ، ولحسن الحظ بالنسبة لى وليمى أنها تتحدث الفرنسية بإتقان .

خلف هذه الواجهة الجافة كان لدى إمرى مهارات كبيرة بوصفه متخصصاً، فهو رسام ماهر أولاً ، وهو حفار بطبيعته ، يسير على خطى عالم المصريين الإنجليزى الشهير فلنדרز بثرى ، واكتشافاته فى سقارة توجت حياته العملية بشهرة كبيرة هو جدير بها ، واعتبر رائد الآثار الإنجليزية الحديثة . ومع الوقت اتضح لنا أننا نبحث عن الهدف نفسه : مقبرة إيمحوتب . ومنذ تلك اللحظة عملنا بوصفنا فريقاً معاً ، وبحماس شديد كلف رفيقى حياته لسوء الحظ ، ذات صباح سقط إمرى أثناء العمل فى الموقع ، ثم توفى بعد ذلك بثلاثة أيام وبفن فى الجبانة الإنجليزية . انطلقنا منذ وصوله فى متابعة الحفائر التى باشرها فيرث من قبل فوق قرية أبو صير . حيث توجد مقابر الأسرات الأولى والثانية والثالثة .

ولماذا لا توجد هنا مقبرة إيمحوتب كذلك ، والذي عُبد بوصفه إلهاً للطب في العصر المتأخر ؟ ومقابر كبار شخصيات الأسرة الثالثة؟ وهل اكتشفت مقابر كبار شخصيات الأسرة الثالثة كلها في هذا الموقع ؟ كل الآمال موجودة ، إمري ظل على اعتقاده أن مهندس زوسر لا يمكن إلا أن يكون مدفوناً في سقارة ، وكنت أخمن من جانبي أنه من المهم أن نبحث معبد عبادة إيمحوتب ، حيث عباده يقومون بزيارته حتى العصر المتأخر ، وحفائره المكثفة في شمال سقارة أسفرت عن معظم المقابر الملكية للأسرة الأولى .

هذه الاكتشافات المهمة كانت بداية جدل استمر حتى اليوم، بين المقبول يوماً أن الملوك الثلاثة الأوائل من الأسرة الأولى قد دفنوا في أبيدوس مدينة أوزيريس المقدسة ، حيث كانت عمليات الحج السنوية لمدينة الأعياد المدهشة هذه لتلمس حياة أوزيريس وموتها ، ولكن بعد الاكتشافات المهمة التي قمنا بها أصبحنا مقتنعين - إمري وأنا - بأن مقابر أبيدوس ما هي إلا مقابر رمزية ، أما المقابر الحقيقية فقد شيدت في سقارة . والدليل على صحة ما ذهبنا إليه أن مقابر سقارة أكبر حجماً ومشيدة بشكل جيد من تلك الموجودة في أبيدوس ، وبالنسبة لماذا لا يدفن ملك يحكم من منف في سقارة ؟! كما أن التحنيط الذي كان في تلك الحقبة غير متقن تماماً لكي يضمن حفظ الجسد أثناء رحلة طويلة قد تستمر أياماً حتى تصل إلى جنوب البلاد ، وهذا لا يستبعد طبقاً للتقاليد المصرية تشييد مقابر رمزية في أبيدوس ، ويصدد الرد على افتراضنا احتج العديد من علماء المصريات بأن هذه المقابر تنتمي لكبار رجال

البلاط وهى حجة مردودة . عندما اكتشفت مقبرة قاي عا آخر ملوك الأسرة الأولى ، اكتشفنا على الواجهة الشمالية معبدًا جنازيًا متصلًا بالمقبرة ، وبه عدة صالات وجدنا بها بقايا تماثيل ، وليس من المتصور فى عصر كان الفرعون فيه إلهًا على الأرض ، أن يجرؤ موظف كبير أو وزير أن يشيد لنفسه معبدًا لعبادته الجنازية لأن هذا من رموز الملكية ، ومن ناحية أخرى ما جعلنا نتجه بقوة للاعتقاد بأن هذه مقابر ملكية أننا وجدنا أسماء هؤلاء الملوك فى كل مكان وبخاصة على طبعات أختام كثيرة مدفونة فى الرمال . نظرياتنا وجدت صدق لدى عالم المصريات الإنجليزى آى . إى . إواردن ، وهو متخصص كبير فى الأهرام . ذكر عام ١٩٦٧ فى كتاب أهرام مصر : "على عصر الدولة الوسطى وربما قبل ذلك ، الذى يمكن أن يتحمل تكاليف مقبرة أخرى ، يشيد مقبرة رمزية فى أبيدوس لكى تبقى روحه لدى أوزيريس ، وتشارك فى الاحتفالات السنوية ، بينما الجسد يتصل بمسقط الرأس . سنوسرت الثالث ، على سبيل المثال ، شيد قبراً رمزياً فى الصخر فى أبيدوس ، وهو فرعون من كبار ملوك الدولة الوسطى ، ولكنه دفن وعثر على جسده تحت هرمه فى دهشور ، عندما نعلم ثقل التقاليد فى مصر لا نستطيع أن نتخيل أن سنوسرت لم يتتبع خطى سابقيه .

والهم الثانى الذى شغل إمرى بجانب مقبرة إيمحوتب كان العثور على مقبرة مؤسس الأسرة الأولى ، موحد مصر الكبير ، الملك مينا ، وهو الهم الذى شغل أكثر من عالم مصريات ، اكتشف بورخاردت

فى نقادة فى إقليم أبيدوس ، مبنى كبيراً مؤرخاً بعصر الأسرة الأولى وأسرع يدون دليلاً على عزوه إلى مينا ، وبالأسلوب نفسه نسب إليه إمري مقبرة هى فى نظرى مقبرة الملك عحا وهو الثانى فى قائمة الملوك .

حتى الآن ، لم يكتشف أحد لا مقبرة مينا ولا مقبرة إيمحوتب ، ويبدو أن الأولى مثل الثانية مدفونة فى مكان ما فى الرمال فى سقارة ، وتساؤل إذا ما كانت هذه المقبرة تقع أسفل بئر عميق ، والذي يوجد يساراً بعد دهليز المدخل ، ولقلة الإمكانيات لم أستطع أن أنزل إلى الأعماق ، فهذا مشروع منك جداً ويتطلب أعمال تقوية كبيرة ومكلفة قبل أن نقذف أى أحد إلى هناك ونأسف لذلك ، حتى آخر عمري ، المقبرة اللغز ، ربما ذات يوم يستطيع أثرى ويضربة فأس سحرية كشف تلك المقبرة الغامضة .

سقوط الملكية

كنا محظوظين إذ شاركنا من بعيد فى زواج الملك فاروق والشابة فريدة عام ١٩٣٨ ، مشهد لا ينسى ، مشهد أسطورى ، موكب فخم يعبر القاهرة المتلاثة ، والزوجان الشابان متآلقان جالسان فى العربة الفاخرة الخاصة بالكونت دو شامبور ، هذه العربة ذاتها استخدمت عند دخول الكونت إلى باريس ، عندما فشلت الملكة أن تعود فى عهد ماك - مامون . يحيط بهما الحاشية الملكية بزيهم الخاص الأزرق السماوى والذهبى والأرجوانى ، والطربوش يهتز مع وقع الخطوات . ويخترق الموكب حشوداً مزدانة ، ويُقذف بباقات الياسمين على الزوجين الملكيين ، ونسمع طلقات النار فى كل مكان تكريماً للملك وأغانى أم كلثوم العاطفية . فريدة على عكس التقاليد الإسلامية كانت متبرجة ، وهذا ما أراده فاروق ليؤكد رغبته فى توحيد الثقافات الغربية مع جمال الإسلام الخالد ، عندما أعيد التفكير فى هذا الحماس الجنونى ذاك اليوم لا أستطيع أن أمنع نفسى من رؤية هذا الشعب نفسه ثانية ، يكاد يموت حزناً بعد ذلك بعدة عقود أثناء الموكب الجنائزى الفخم عند موت عبدالناصر .

توج فاروق الأول ملكاً عام ١٩٢٧ بعد زواجه مباشرة ، وستحظى مصر بملك يتحدث العربية حقاً وسيقدم لهم ملكة من الشعب ، حتى وإن كان أى من فاروق أو فريدة جاهزاً للحكم فإن زواجهما كان على كل حال بالنسبة لمصر القصة الأخيرة والأكثر رومانسية من أى حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة ، قريباً سوف يغلقان على أنفسهما حقبة ذابلة وربما كانا مذبنين لتركها هكذا تموت . الملكة نازلى والتي عاشت مغزوية فى عهد زوجها فؤاد تمتعت بحريتها وأمسكت بين يديها بشنون ابنها ، فهي التى أعدت للزواج باختيارها زوجة المستقبل ، فريدة الجميلة جداً ، الشابة الناعمة والمطبعة ومثلها من عامة الشعب، واعتقدت نازلى أنها أمسكت بزمام السلطة، الأمر الذى لم تفعله أثناء حكم فؤاد، وكان السقوط السريع للملكية مترنحة ، وكان يجب كما فعل فؤاد وبالقوة إيجاد التوازن بين القصر والأحزاب الوطنية ، وخاصة حزب الوفد ، لكن فترة الغزل بين الملك فؤاد والنحاس باشا خليفة سعد زغلول لم تستمر طويلاً ، فسرعان ما دب الشقاق لتدبير المعارضة لمكيدة للملكة مما أوجد الفراق النهائى بين الرجلين، وكانت الضربة موجعة لهذا الملك الشاب الأمين والمتفتح، فالمتاعب بدأت بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ بين إنجلترا ومصر، والتي سحبت من الرعايا الإنجليز الكثير من الامتيازات، وفرضت عليهم حالة مجرد مبعوث لحكومة جلالتهما المعظمة ، واعتقد المصريون أنهم أصبحوا مستقلين كلية ، ولتأكيد ذلك أسرعوا بإلغاء نظام الامتيازات الأجنبية ، وكذلك المحاكم المختلطة، ونظام الامتيازات الأجنبية ميراث رسخ من عهد فرانسوا الأول، وهو ينظم حقوق الرعايا المسيحيين

فى بلاد المسلمين حسب قوانينهم هم، ولكن هذه الضمانات أصبحت حقوقاً أبعد من الإقليمية بعد إلغاء المحاكم المختلطة ، الأمر الذى سبب ألماً كبيراً لكل السكان الأجانب نظراً لتمتعهم بامتياز، لأن هذه المحاكم فعالة نظراً لقضاتها الممتازين ، أما المحاكم المصرية فقد كانت فى طور التشكيل والتحديث وجعلت بينها وبين الدين الإسلامى مسافة ، وكان ذلك بالنسبة لمصر خطوة معتبرة فى سبيل الاستقلال ، لكنها لم تكن على الإطلاق كافية بالنسبة للوطنين .

بالرغم من أننا فى سقارة كنا بعيدين عما يحدث فى القاهرة ، ولكننا كنا نحس أن البلد لا تسير على ما يرام ، وبدأ ويا الكوليرا فى التفشى لكن سرعان ما قضى عليه . وعلمنا أنه فى عام ١٩٤٧ صوتت الأمم المتحدة على تقسيم فلسطين لتفتح الطريق بذلك لقيام الدولة العبرية ، وأسر الملك فاروق لابن عمه عادل ثابت : "فى مايو ١٩٤٨ أعلن العدوان حرب ١٩٤٨ ضد إسرائيل وهى أسوأ حرب من ناحية القيادة فى التاريخ المعاصر" ، هكذا يحكى عادل ثابت فى مذكراته فاروق ملك مفترى عليه ، "فاروق كان ببساطة مخدوعاً فى الأمير عبدالله ، جد الملك حسين ، ملك الأردن، وعموماً فالمصريون مكروهون من إخوانهم العرب، والذين لم يكن لهم مشاركة على الجبهة" ، إنه واضح ومثالى ولكن بشكل خاطئ ، هكذا كان فاروق الذى ظل مخلصاً لطمه الكبير فى توحيد العالم الإسلامى ، والذى رأى فى ذلك تعويضاً لكل الأمم المستعبدة ، مثالية سوف تكلفه قريباً العرش .

فى يوم من أيام يناير ١٩٥٢ عدت بهدوء للقاهرة بالسيارة مع عالم
المصريات الشاب زكريا غنيم ، وكنا يوم الخميس ليلة نهاية الأسبوع فى
مصر وموقع الحفائر يغلغ حتى صباح السبت ، واصططحت زكريا حتى
منزله ، وأدهشنا أن نرى طريق الهرم خالياً تماماً ، وكنا بعيدين عن
تصور الدراما التى حدثت بالمدينة ، على حدود الجيزة رأينا فجأة
الدخان الأسود يقصاعد فى السماء أنظروا هذا الدخان ، هكذا صرخت ،
مصانع الغاز الجديدة ملأت المدينة كلها بالدخان ، ولم يدرب ذهن أحد أن
يجبر المصانع أن تضع مرشحات على المداخل ، هذا شئ يثير الغيظ ،
وكما اقتربنا من القاهرة ازدادت كثافة السكان ، وبعدما أوصلت
المساعد الشاب ، واصلت حتى شارع القصر العيني حيث استأجرت شقة
فى وسط البلد ، كانت الشوارع خالية والمحال مغلقة ، وفقط عندما اقتربت
من مسكنى علمت بما حدث . مبنى البواك BOAC وشركة الطيران
البريطانية ونادى الطارف احترقوا ، فاستدردت وأنا أسير فى الاتجاه
المعاكس حتى ميدان الإسماعيلية وهو اليوم ميدان التحرير الشهير ،
وأمام المتحف المصرى عدد ضخم من المتظاهرين ، ورجعت من جديد
فى الطريق حتى كوبرى قصر النيل محاولاً أن أعود إلى منزلى من طريق
آخر . وعندما وصلت الشارع الذى أسكن به ، أرى مشهد التخریب ، ولما
فقد احترقت عدة مباني ، وكان الطواني جروبى ضحية الحريق ، ولما
استشعرت الخطر أسرعت للزمالك لأختبئ لدى صديقنا ميمى أوزوالد
التي أخبرتنى أن ثورة اندلعت لتوها ، قلقون بقينا ، وأذانتنا على المذيع ،
وعيوننا تتفحص السماء من الشرفة ، واحترق شبرد والكونتنتال

وسلسلة محلات شيكوريل ، وكنا نسمع انفجارات فى كل مكان بالمدينة وعلمنا فى الغد أن الخراب اختلطت به جرائم جنائية أخرى . يبدو أن وسط المدينة قد دمر تماماً ولكن الأحياء السكنية كانت بمنأى عن ذلك ، ويفصل النيل فى الوسط ما بين عاملين ، ربما كانا ولوقت طويل يعيشان معاً .

وشارة هذه الأحداث اندلعت فجأة لكنها كانت مختبئة منذ شهور والجو ينفذ بالانفجار ، إنها حادث وقع بالإسماعيلية حيث إن القوات الإنجليزية استخدمت الدبابات والمدفعية فى هدم نقطة بوليس وبهذا ثار البوليس فى القاهرة ، وأصدر أمراً بالإضراب فى الغد ٢٦ يناير وتفاعل الناس فى الشارع ، وفيهم الوطنيين والإخوان المسلمون مع الحدث وأيدوه بقوة مستشعرين رياح التآثر ، وكان فاروق فى هذه الأثناء مشغولاً جداً بالاحتفال بمولد ابنه الذى طال انتظاره ، لم يعر الأحداث الاهتمام الواجب ، وعندما مالت الشمس للغروب كانت المدينة حطاماً حيث تدخل الجيش ، وعندما حل المساء كانت المدينة متفحمة ، واستشعر الملك عدوان رجل الشارع من المصريين والذى حمل معنى قاتلاً للملكية وسوف يسقط بعد ذلك بسنة أشهر فى ٢٦ يوليو إثر انقلاب الضباط الأحرار الذى تزعمه الكولونيل ناصر والجنرال نجيب ومنع الملك فاروق من قصره بالإسكندرية وقد عرف مصيره المحتوم ، ومنع الجيش من التدخل لتفادى حدوث مذبحة ، هذه الثورة التى قيل إن السى أى إيه ساندتها ، والتى انتهت بقيام جمهورية مصر العربية ، لتصنع بذلك نهاية لحكم طويل لأسرة محمد على ، فاروق الذى أجبر على التنازل عن العرش

غادر مصر للأبد ، تاركاً وراءه بلده فى فوضى عارمة ، غير مستقرة ومحطمة ، آخر فرعون من حضارة رائعة ، الآن يعاني من الكرب ، ولكن ظلاً لعواصف أخرى سوف يقضى على وجوده بشكل درامى .

كان لرحيل فارق عواقب وخيمة على مصلحة الآثار ، وعندما عدت للقاهرة فى الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر اكتشفت التغييرات التى حدثت خلال فترة غيابى عن الموقع ، ليس فقط أن المصلحة غيرت مديرها ولكن غيرت مجال إدارتها ليشمل التراث العربى والقبلى، ولأول مرة منذ مائة عام لم يعد رئيسها فرنسيا ولكنه أصبح مصرياً ، وفى جوهر الأمور وحتى هذه اللحظة لم يغير هذا شيئاً كبيراً . لاحظنا مع ذلك أنهم خلطوا فى القسم نفسه الفن الإسلامى والفرعونى مع ما بينهما من اختلاف بيّن ، ولم تكن هذه سياسة حكيمة والمدير الجديد مصطفى أمير ، وهو عالم فى عصور ما قبل التاريخ وجغرافى ورئيس سابق لجامعة الإسكندرية ، كان رجلاً لبقاً جداً ، أستطيع أن أتواصل معه بشكل مريح ، ولكنه لم يكن يعرف الشئ الكثير عن علم المصريات ، ومع ذلك ملا وظيفته تماماً ، كان يأتى ليزور الموقع مراراً ، وكانت لديه رغبة فى تعميق الصلات الفرنسية المصرية التى تأثرت بحركات الاستقلال فى المغرب . ومع قنوم ناصر ابن الفلاح الذى أصبح بطلاً للقوميين العرب ومفجر الثورة فى بلاد الشمال الإفريقى منذ عام ١٩٢٢ ، لم يكف مارلو عن تربيد أن الإمبراطوريات الاستعمارية مصيرها إلى الزوال ، ولو بحرب أوروبية ، ولكن من يصدق إذن ؟

حول البحر المتوسط

أحلم منذ عدة سنوات باكتشاف المواقع الأثرية في بلاد المغرب العربي ، والأحداث التي اندلعت في مصر منذ يناير ١٩٥٢ كانت تنذر بقلقل وسط المستعمرات الفرنسية ، وفي ذاك العام قلت لنفسى ربما قد حان الوقت للقيام بهذه الرحلة التي تلح علىّ . وفي بداية صيف عام ١٩٥٢ قررت السفر لفرنسا في سيارة ، أخذاً طريق البحر المتوسط ، ومن شارع قصر النيل وحتى شارع ديبورد - فالمر حيث نسكن في باريس ، مسافة لا تقل عن عشرة آلاف وخمسمائة كيلو متراً ! في هذا العصر ، القيام برحلة في سيارة قديمة موديل CV 4 أمر يبدو مستحيل الحدوث ، ولم تكن معظم الطرق معبدة ومحطات البنزين نادرة والفنادق غير موجودة ، وميمى التي تعيش في باريس مع الأطفال كان عليها أن تلتقى بى في تونس . بعد رحلة زواجنا كانت هذه أحلى رحلة قمنا بها .

غادرت القاهرة في نهاية يونيو ، مصطحباً معى ميمى وأزوالد ، صديقة ميمى التي تعود هى الأخرى إلى فرنسا ، رحلنا في الصباح الباكر ووصلنا الإسكندرية في ثلاث ساعات ؛ واسترحنا قليلاً على البلاج لننشط قبل أن نأخذ الطريق الشاق الممتد لأكثر من ألف ميل حتى جبل

سيريينيا ، وكنت أرغب فى عبور الحدود قبل قدوم الليل لأنه كان هناك سلطات إنجليزية عسكرية يمكن أن تنام فى أحد معسكراتها فى ليبيا . البلد الذى استقل منذ عام كان لا يزال متوحشاً وغير آمن فى طريقه . عند خروجنا من الإسكندرية ويعد عبور بحيرة ماريوت بملاحاتها ذات اللون البنفسجى ، رأيت أن الصحراء تحتفظ بذكرىات معارك ١٩٤٢ ، وكانت كأنها موقع للمناجم والموتى ، فلو أن الطريق الممتد من الإسكندرية - السلوم - طبرق - بنغازى ثم طرابلس كان معيداً لما اضطررنا للمرور بعيداً فى الصحراء ، والرجوع عن طريق أبو صير جعلنا نرى بقايا المدينة البطلمية القديمة فى تابوزيريس التى شيدت قبل الإسكندرية بقليل ، وهى مقامة على حافة البحر شمالاً والبحيرة جنوباً ، وتتحكم المدينة من ثم فى ميناءين وتعيد أوزيريس المدينة الكبيرة بجوارها على شاطئ المتوسط . وبقيت الإسكندرية لانبعائها المستمر من وسط الحطام . أما كابوريرس فكانت تفقد مع الزمن سحرها وجمالها وقوتها ، ثم تلاشت تماماً . ومن بعد ذلك وعلى امتداد عدة كيلو مترات كانت مياه البحر زرقاء تماماً ، وفى مرسى مطروح عبرنا مدينة صغيرة بها حمامات بحر منعشة ثم وصلنا فى ما بعد الظهر إلى السلوم ، مدينة حدودية واقعة عند حافة منحنى صخرى كبير ، وما بين البردى وطبرق قابلنا قطعاناً من الأغنام التى تسد الطريق وسرعان ما تهرع مفسحة الطريق تحت وقع أصوات آلة التنبيه بالسيارة ، وعلى مدخل طبرق ثلاث جبانات إنجليزية وألمانية وفرنسية تحزم المدينة . والجبانة التى أثرت فى كثير كانت تلك الفرنسية التى بدت أكثر تواضعاً مقارنة بجبانة الألمان ذات الأسوار العالية

ولوحات البرونز العملاقة ، وفي بير حكيم كان المشهد أليماً كذلك ،
والموقع مغطى بالأسلاك الشائكة ، وتنتشر الحفر التي أحدثتها القنابل
وسط الرمال ، ومكثنا الليل في معسكر للجيش في درنة .

وفي اليوم التالي استيقظت في الخامسة صباحاً ، وملأت خزان
البنزين للسيارة CV 4 ، وملأت زجاجات ماء معنا ثم أخذت الطريق ،
بينما ميمي أوزوالد كانت نائمة في السيارة ، وكنت أحلم برؤية سيرين
عند شروق الشمس ، وكنت محظوظاً إذ رأيتها هالة تنساب منها الأشعة
الرقيقة ، المدينة ذات القصر الذهبي التي قدمها أبوالون للحورية سيرين .
ولم يكن لدينا الوقت حتى نتأخر ، فالطريق حتى تونس طويل حيث
ستصل طائرة ميمي بعد يومين ، وبعد عدة ساعات وصلنا بنغازي ، ووجدنا
المدير غير جذابة ، ويحتفلون بنهاية رمضان والمساجد عالية أصواتها ،
والمدينة خالية ، وعمال محطات البنزين في إجازة ، وأخيراً وجدت إيطالياً
عجوزاً أمدنى بالبنزين ، حيث ملأت عدة صفائح ، وواصلنا رحلتنا وقطعت
الطريق الذي يمر بخليج سرت ، على الحدود والسهول الخضراء ما بين
طرابلس وسرينيا ، حيث تغوص الصحراء من البحر على هذا الطريق
الموحش المليء بالهضاب ، كان يقابلنا في المتوسط عربة نقل في اليوم ،
والمشهد أخضر جاف من أشعة الشمس ، وهنا فوضى من دبابات
وسيارات محطمة ومدافع بالية على الحدود ، ويحدد الفاصل بين الإقليمين
الليبيين قوس كبير من الألباستر أقامه موسوليني مفتخراً بأنه نصب
نفسه زوراً سلطاناً فخرياً للإسلام ، وتخلصت ليبيا من نير الاحتلال
الإيطالي عام ١٩٥١ وكانت أول بلد تستقل عن الاستعمار ، الليبيون

الذين يحكمهم الآن الملك الطيب الإدريسي ودوبون . قبل وصولنا طرابلس زرنا ما تركه الرومان في الإقليم الطرابلسي . الأطلال الرائعة لصبراتة و "ليبيتس ماجنا" ذات الأساطير الكثيرة التي تحاك حول آثارها الرائعة .

وعند وصولنا طرابلس كان الليل قد غطى المدينة ، ووجدنا فندقاً متواضعاً ونظيفاً ، وعلى مقربة من الفندق الكبير الذي أقام به كل من أندريه جيد ولارويو . وفي الصباح تجولت في المدينة ورفيقة الرحلة ظلت تنعم بالراحة ، وطرابلس للوهلة الأولى ليست جذابة ، فيما عدا الكورنيش على المتوسط "متنزه الإنجليز والإيطاليين ، والمباني الثرية ذات واجهات من العمارة الباروكية من الألباستر الضخم الجذاب وزخارف كثيرة مبتكرة ، وقد تأثر الألباستر بالرداذ وتفتت وجف ويهت ولم تعد تعطيه أشعة الشمس عند الشروق أى منظر بهيج . وما بين عربات الجياد والناس في أثوابهم الفضفاضة خرجنا من طرابلس لنواصل الطريق الطويل المستقيم بين أشجار النخيل الكثيفة والسرو والزيتون واللوز ، ومع اقترابي من الحدود التونسية لم تتبق إلا مسافة حارة بطول الصحراء الغربية على الشاطئ ، وعانينا من الحر على هذا الطريق الذي لا توجد به شجرة نستظل بظلها ، وكنا نتجنب التوقف ولكن كنا مجبرين لماء مبرد السيارة بالمياه ، حيث كانت ترتفع درجة حرارة الموتور والسيارة بشكل مخيف . وعلى مدخل قرية حدودية وهي قرية بن جاردان ، كان يمد الطريق خضرة خفيفة وبعض المنازل البيضاء ذات سقوف وطينة ، وعلى مبعدة من ساحة تلمح بيوت الفرنسيين .

وهنا وجدنا فرنسا بشكل ما ، لن نغادرها حتى المغرب ، والاستقبال مع ذلك لم يكن حاراً جداً . فريق من الفتيان انقضوا علينا وطلبوا بقشيشاً بعنف ، ولما رفضنا كان نصيبنا الشتائم والسباب ، وأسرعنا وواصلنا الطريق حتى ميدينين . وكانت هذه أول مدينة ترتفع نحو الشمال ، وفي الجنوب تسبح في صحراء محرقة . وبالبحث عن شيء نأكله أو نشربه دخلنا كافيتيريا وبعد نصف ساعة أخذنا الطريق مواصلين الصعود شمالاً نحو الساحل ، حيث توجد أجمل أشجار الزيتون وقضينا الليل في صفاقس ، المدينة التي شهدت مسرحاً لمقاومة الفرنسيين عام ١٩٤٧ وبقيت نقطة حساسة قابلة للاشتعال لأقل الأسباب ، ولا يخرج الفرنسيون بدون أسلحة عندما تكون الأجواء غير مستقرة ، وبالوصول لتونس كانت ميمى قد وصلت وسعدت بهذه الرحلة ، وجدت شمساً ساطعة على مشهد من الجمال فريد ذكرها بمصر وسرنا بسرعة والتواقذ مفتحة ، وفي قرطاج زرنا أطلال يرشدت بن شارل بيكار وهو أثر كذلك ، وملكة البحار هذه دمرها وقضى عليها الإسلام ، ولم يتبق منها إلا موقع ضخم تزوره الرياح العاتية ، امتدادات هائلة من الأحجار البيضاء تتخللها مواكب من الظلال . وسيطرت على هذه الأطلال الرومانية ، والتي بها أعثر على عمود كوينتى من وقت لآخر وسط الأزرق الداكن بالأفق ، وكنت متأثراً عندما أظأ هذه الأرض التي هي آخر مواقع العالم القديم ، والتي تقف شاهداً على مولد المسيحية .

وعبرنا الحدود الجزائرية بمحاذاة ساحل المتوسط ، وفي أحد المنحدرات انتبهت إلى أن الغرامل لا تعمل ، فلوقفت السيارة فوراً على

حافة الطريق ، ليس لدى فكرة كبيرة عن الميكانيكا والحل الوحيد هو أن نجد جراجاً في أقرب مدينة ، وكان ذلك على بعد عدة ساعات ، وسط عواصف عاتية ، وكان أن دخلنا قنسطنطين ، وكانت تكتسى بالسواد أثناء النهار ، وبعض البرق مر بالسماء أضواء المدينة وهطلت الأمطار ، ورغم النواذف المغلقة فقد امتلأت السيارة بالمياه ، وكانت ميمى مرعوية وتمددت على الكتبة الخلفية ولم تنطق بكلمة ، وتركنا السيارة CV 4 في جراج وذهبنا إلى أقرب فندق ، وكنا مجبرين على قضاء يومين هنا في تونس ، قنصل فرنسا الذي استقبلنا أعطى السيارة لميكانيكي ، كان عليه أن يفحص السيارة عموماً ثم قرر أن يفكك جزءاً منها ؛ ليتمكن من إصلاح الفرامل، ونستطيع أن نواصل السفر في أمان ، بعد قنسطنطين التي تذكرنا "بتوليد" ، وصلنا "كابيلي" ، وهو إقليم مكون من عدة قرى مكتظة بالسكان والشرفات الحجرية ، حيث تنبت أشجار مثمرة وزيتون وسحرتنا بون (فيما يشبه المعجزة ، عينية اليوم) هذه المدينة الساحرة ، ومع "الخروج من عاصفة غير عادية والعودة من حملة ملكة سبأ" ، مارلو "عاد من العدم" .

الجزائر التي تكتسى بالبياض عند شروق الشمس ، وكان نابليون الثالث مغرمًا بها . تناولنا الغداء في مستغانم وسط هضاب خضراء ، ثم نزلنا إلى كوران الأندلس ، حيث يحمل كل حجر بصمة العبقرية الأسبانية . في حوران ، استضافنا مهندس معماري كنت قد استقبلته في سقارة ، وتبدو الجالية الفرنسية أقل قلقاً هنا منها في تونس ، أبدى الجزائريون

من عام ١٩٥٢ تمسكاً بفرنسا . وعلى الطريق وتحت الشمس الساطعة وسط جو حار توقفنا فى سيدى بلعباس ، مدينة صغيرة ، فلا قيمة ولا جاذبية ، حى عام للجالية الأجنبية ، وفى الحى الوطنى شربنا شايًا بالنعناع وأكلنا تمرًا لذيذًا يبقى مذاقه بالفم. ولم يتبق إلا رجال بالمقهى ، وعندما رأوا صاحبتى معى توقفوا عن الكلام وتفحصوها فجأة بفضول ولكن بلا عنف ، وسرعان ما عادوا للعبة الطاولة التى يمارسونها فى صمت مقدّس ، وهم يدخلون الغليون . فاس ، المدينة المقدسة ذات المآذن الكثيرة ، ارتبكنا فى هذا الديكور الفخم فى الجبال العملاقة ، لا يبدو أن شيئاً يتحرك منذ قرون . مدينة سحر وروعة ، مساجد مغطاة بالذهب والأحجار الكريمة ، وقصور من الألباستر الأبيض والأفنية ، والكل يسبح فى جو أسطورى عميق على إيقاع المؤننين الذين يبدون لنا كأنهم فى معبد . وتشعر بهم فى كل مكان إيماناً مسيطرًا على الجميع . والحركة والحياة فى الأسواق حيث الظل ، يعرض القماش والبخور والعنبر والقلاند ، واليهود بلباس رءوسهم الأسود ، والبزير من البرانس ، والعرب فى الجلابيب ، وتجولنا فى المغرب وسط شعب ودود مضياف ، والشعور بالاغتراب الذى نحسه أحيانًا نابع من أننا يملأنا شعور بأننا نمر بعالم خيالى . بدأ البلد طريق الاستقلال ، ومع ذلك لم نشعر بثقل المناخ من العدوانية ، الأمر الذى واجهناه فى تونس . والاستقلال هنا ان يمر دون حمامات دماء ، وهذا لم يمنع المغاربة من الاحتفاظ بطابع مضياف تجاه الأجانب .

ثرثرة فى قىظ الظهر ، هذا مرعب ، الحماقة والانتعاشة من كلمة "ثرثرة" نعم ، وكنا مجهدين من الحر ، ومع ذلك لا نقوم بزيارة هذه العالم المنسى هكذا جزافاً فهنا هذه الجنة من فن النحت الهلينيستى ، صديقتنا ميمى تتبعتنا ثم جلست فى شرفة فى الظل وأمامها البيرة الباردة ، وعندما عدنا وقد تغير لون جلدنا ويفرقنا العرق عاملتنا بوصفنا حمقى ، وكنا فى عمر الخمسين والخمسة وأربعين ، ولكن فى نظرها كنا كهولاً ! وظلت ولوقت طويل ميمى تحت تأثير سحر مدينة مراكش . القصاصون فى كل مكان . ساعات تستغرقها أمام مستمعين ومنصتين ، يحكون بحماس وجاذبية قصصاً مشوقة ، ونبشدهم للحكاية وإن كنا لا نفهم إطلاقاً اللغة العربية الجميلة ، ولكننا نحس تماماً بالفتنة . طائر النونو يعبر بكثافة فوق الأسقف المسطحة قبل أن يختفى فى الأفق خلف المآذن . هذه تشبه القاهرة التى رأيناها نوعاً ما . وبعد عدة أيام وصلنا طنجة بوابة المغرب على المحيط الأطلنطى وهنا بعدنا عن إفريقيا تماماً ولكننا لم نصل بعد أوروبا ، ولكن المتحاربين فى [الحرب العالمية الثانية] (٢٩-١٩٤٥) فى طنجة يهود وعرب ، وإنجليز وإيطاليون لم يتوقفوا عن العمل معاً بلا حوادث ، مدينة غريبة فازقة كاسباً قدرة وضيقة ، وهى المدينة الوحيدة فى أفريقيا التى تطل على البحر المتوسط وعلى المحيط الأطلنطى ، وفى المقابل تقف جيراالتى ، مدينة بريطانية باردة وسط مدائن ذات ملامح أندلسية ، والوصول إلى هذا الموقع الصخرى كان رائعاً . إنها غرناطة ، أنيقة بحدائقها الغناء والتى توجت رحلتنا ،

وبالصعود شمالاً فى إسبانيا بدأت تهطل سيول الأمطار التى أغرقت الطريق تماماً ، مما جعلنا نزل من السيارة ونسير على الأقدام بعد أن توقفت السيارة نهائياً ؛ تبطلت البوجيهاات تماماً وخرجنا نحن الثلاثة ميميه وميمى أمسكتا بالشمسية لتغطيا الموتور ، بينما أحاول عبثاً لسوء الحظ إصلاح البوجيهاات . ولم يكن أمامنا إلا أن ندفع السيارة حتى تكون فى مأوى ، بعيداً عن المطر ، وعلى سقف السيارة تفككت حقائبنا المصنوعة من كرتون مصرى الصنع ، تفكك وتبلل كل ما بداخلها ، وكان لزاماً أن ننتظر حتى تنتهى العواصف لنعاود الرحلة بالسيارة فى أسرع ما يكون .

ووصلنا برشلونة فى يوم أحد جميل ، حيث كانوا يحتفلون بعيد شهير بألوانه الكثيرة ، وكنا يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، وفى اليوم التالى سمعنا نبأ سقوط الملك فاروق .

متحف إيمحوتب

أقاتل منذ عشرين عاماً مع السلطات المصرية من أجل إنشاء متحف صغير فى سقارة ، لكى نعرض فيه الآثار المختلفة التى عثر عليها فى الحفائر بالمجموعة الجنائزية للملك زوسر وكذلك النموذج الذى صممه للأثار التى شيدها إيمحوتب . وهذا المتحف ضرورى لكى يسمح لمن يأتى من السياح بأن يفهم ما هى وما كانت عليه مجموعة زوسر الجنائزية ، وكذلك الدور الذى لعبته عمليات إعادة البناء التى تمت على مدار نصف القرن الأخير .

ومنذ عشرين عاماً وبداخلى إحساس بأننى أقاتل طواحين الهواء : والمصريون لم يعترضوا فهم يقولون دوماً نعم ، ولكن لا شىء ينفذ فى أرض الواقع ، وهذا راجع بشكل جزئى إلى تساهل المصريين ، وراجع كذلك إلى أن أحداً لا يأخذ القرار ، ومن ثم يؤجل كل شىء . وهم لا يهتمون كثيراً بالوقت ، ولكنهم فى الوقت نفسه لا يلحظون أن وقتى محسوب . وعدونى بأن المتحف سيتم افتتاحه فى مارس عام ٢٠٠٠ بمناسبة انعقاد مؤتمر المصريات العالمى بالقاهرة ، وعندما وصلت قبل هذا التاريخ بعدة أيام لم أشاهد من المبنى إلا موقعاً ، والعمل فيه مهجور ، ولا يوجد

عامل واحد يعمل ، ولا أحد يجيب على أسئلتى . وبدأ يساورنى الشك فى أن أرى يوماً هذا المتحف . أثناء الحرب العالمية الثانية ووسط الأذى فى باريس بدأت فى تصميم نموذج للمجموعة الجنائزية للملك زوسر ، وصممت لها التخطيطات ودفعت بها لفنان لديه أتيليه كبير ، وكان يلزم أن يكون ذا مقاسات كبيرة لتعبر عن الواقع . وبمقياس رسم بمعدل سنتيمتر لكل متر يكون طول النموذج أكثر من خمسة أمتار . وقمت بتصميم عدة نماذج لذلك ، واحد منها يوجد فى بروكسل فى متحف الخمسينيات ، وآخر سافر إلى ألمانيا حيث تحطم أسوء الحظ ، والأخير ظل بناء على طلب شارل بيكار بمتحف الفن ، بشارع ميشليه . وفى عام ١٩٦٨ حطمه الطلبة تماماً ، ونقل من ثم كلية إلى مخازن المتحف ، حيث استعدته لإعادة إصلاحه . وهو العمل الذى استغرق عدة سنوات . وبقيت أبحث عن مكان فى فرنسا لكى أعرضه . رفض متحف اللوفر الأمر لأنه لا يريد أن يعرض نسخاً ليست أصلية . وقمت بتقديم طلب إلى متحف تروكا بيريو ، وكانت الإجابة أنه لا يوجد هنا مكان لأثر مصرى . أخيراً قلت لنفسى إنه يجب أن تكون نهاية مطافه فى سقارة ، وشحنته لصر حيث يوجد منذ عشرين عاماً فى الصناديق محبوساً فى مكان بالقرب من المنزل القديم الخاص بفيرث .

ولما تصورت أن المتحف ربما يتم الانتهاء منه فى القريب العاجل فقد أتيت الشتاء الأخير خصيصاً لكى أفتح هذه الصناديق ، وكنت أخشى من تلف مئات القطع التى يتكون منها النموذج نظراً لطول المدة

التي بقيت فيها حبيسةً هنا . واطمأنتت عندما فحصتها ؛ فالنموذج سليم وينتظر أن يركب ويعرض . وصممت متحف المستقبل ذا العمارة البسيطة ، والمتناسق مع الآثار ، وقد اختاروا مكاناً لتشبيد المتحف . يجب أن يكون أسفل مكان انتظار السيارات الواقع بالقرب من مدخل المجموعة الجنائزية ، وكان مكاناً مثالياً ، فالسياح سوف يقومون حتماً بزيارته قبل الذهاب للموقع نفسه . وبقيت أعمل طيلة الشتاء ، ولدى عودتي لباريس في فبراير ١٩٩٦ كان المبنى قد أنجز تقريباً ، وكنت معتقداً أنه عند عودتي مرة أخرى لسقارة يمكن أن أرى المتحف واقعاً ، ولكن مكالة تليفونية من القاهرة بددت أحلامي ، فقد أخبروني أن وزير الثقافة الذي يمسك في يديه منذ سنوات مصلحة الآثار ، وأثناء زيارته لسقارة أمر بهدم المتحف بحجة أنه يشوه الموقع ؛ وحن جنونى ؛ فقد كان على أن أبدأ من الصفر ، وقد كان .

وسط هذا الجو التعس جاعتنى الفرصة ، ففي أبريل من العام نفسه استقبلت زيارة الرئيس شيراك الذي شرح له سفير فرنسا بالقاهرة ألامى . وتدخل شيراك لصالحى مباشرة لدى الرئيس مبارك ؛ الذى أعطى أمراً بعدها مباشرة بإيجاد حل لهذا الأمر . وفجأة أخذت الأشياء طريقها للحل . وعدونى بتشبيد هذا المتحف الصغير سريعاً ولكن فى مكان مختلف . أثريون ومعماريون ومفتشون اشتروكوا معاً واختاروا مكاناً ، كان هذه المرة بالقرب من المدخل الرئيسى بجوار المنحدر الصخرى ، وهو موقع مناسب فهو يجبر السياح على الهبوط من أتوبيساتهم ثم يعاودون الصعود إليها مرة أخرى لمواصلة الصعود إلى

المجموعة الجنائزية . وبدأت الأعمال . وكعادة المصريين عندما يتلاشى الضغط والمتابعة يتوقف كل شيء . وقالوا لى اليوم إن الصناديق خالية .. ربما زيارة جديدة من شيراك تحرك من جديد المسئولين المصريين ؟!

لو أمد الله فى عمري لوددت أن أعرض فى الصالات الثلاث المتوقعة كل العناصر التى لم أستطع أن أضعها فى مكانها من البناء : قطع من تيجان الأعمدة ، وحيأت كوبرا ، وكسرات العوارض المحتفظة بالكوانها الأصلية . وأود كذلك انتقاء أوانى ألباستر من تلك التى اكتشفتها فى الهرم ، والتى تقبع فى مخازن المتحف المصرى منذ سنوات ، وقد أهدى ناصر بعضاً من أجمل هذه الأوانى لزواره من المملكة العربية السعودية. ولو تخيلنا هذه الأوانى مضاءة من الداخل لعلمنا مدى إتقان الفنانين المصريين القدماء فى تشكيلها . ولأننا لم يعد بمقدورنا زيارة المقبرة الجنوبية ، فسوف يكون من المفيد أن نعرض فى أحدث الصالات نسخاً من اللوحات وصفوفاً من الفينانس الأزرق . وأود كذلك أن أضع معهم نموذجاً للمعبد الجنائزى ولبيت الشمال وبيت الجنوب ، وهى المباني التى لم أستطع أن أعيد بناءها فى الموقع الأصىلى ؛ نظراً لنقص الكثير من العناصر ، وكذلك أحب أن أضع فى الدهليز القاعدة التى عثر عليها فيرث عام ١٩٢٨ ، والتى تحتفظ بأقدام زوسر وهو يطاء على الأعداء ، وعلى مقدمة هذه القاعدة منقوش اسم الملك واسم مهندسه المعمارى إيمحوتب وألقابه . منذ عدة سنوات استطعت أن أفيد من رعاية الـ إى . دى . أف EDF ثم انصرفوا ! واليوم، وبما أن المتحف مكرس لأمحوتب ،

فقد تقدمت بطلب إلى السيدة زيجلر رئيسة القسم المصرى بمتحف
اللوفر حتى أحصل لمتحف سقارة على نسخة من تماثيل إيمحوتب
الصغير ، وهذا المتحف يمتلك عدة تماثيل صغيرة نادرة له ، وأتمنى أن
يتم هذا العمل ، ولكننى قلق بخصوص النموذج لأنتنى أتساءل متى يتم
هذا العمل ... بعد رحيلى ؟!

كاهن فى مصر

عندما احتل أثنين دربوتون مقعد ببير لأكو لم نجد شيئاً يجعلنا نستبشر . والرجل يتمتع بذكاء وقاد وروح عالية ، وتعلقنا به وبرهن على أنه يمتلك شخصية غير عادية . هذا العالم الذى أجل فيه علمه ، وهو جذاب بجانب شخصيته المرحية والمتلاثة والطريفة فهو ساحر ، وكان ذلك مصدرًا للألم، فعندما يراه المصريون يغتمون ويضعون العراقيل فى سبيله . وبعد مشوار عطاء ناجح وصل مصر . وقد بدأ حياته العملية مبكرًا جدًا ، ومن ثم فهو يملك مهارتين : الديانة وعلم المصريات ، والواحدة والأخرى وجهان لعملة واحدة فى هذا البلد الذى يمكن أن يكون - أستطيع أن أقولها - مجمعاً كهنوتيا ، وهو من إقليم لوريان أصلاً . ومنذ نعومة أظفاره يسبح فى مناخ من التقوى ، فوالده أولاً ناشر لمؤلفات دينية ، وأختاه أصبحتا من نساء الكنيسة ، ثم هو ترسم وهو صغير كاهناً شرفياً فى كاتدرائية نانص ، ولقد استطاع وهو كاهن أن يدخل الإدارة بفضل الخروج على إدوارد هيربوت رئيس المجلس . مبهوراً بمعارفه ، فإن جورج بنديت رئيس القسم المصرى بمتحف اللوفر جعله يبدأ محاضراً بالمتاحف الوطنية ، وعالم المصريات جوستاف ليفتر قال عنه : " هذا الولد عبقري ، أحياناً ما يكون متهوراً ولكنه يسبقنا بخمسين عاماً ؟ "

بعد لآكو لم تكذ تفقد مصر شخصه حتى جاءها شخص مساو له
فى العلم والعبقريه ويتمتع بجانب ذلك بشخصية ، ولم يخطئ فؤاد فى
اختياره ، لكنه اشترط أن يخلع دربوتون ثوب الكاهن ليرتدى ثوباً مدنياً
فارتدى بدلة وطربوشاً ، وأصبح مشغولاً بأربطة العنق الحمراء والجزابة .
ووالده العجوز تبعته ، وكانت بدينة ومرحة مثل ابنها المتدين ، واستقرت
معه فى الفيلا التى كان يقطنها لآكو فى حديقة المتحف المصرى ، وحدث
تشويش لدى وصولهم نتيجة للجدل التائر حول مصير المومياءات الملكية .
بصعوده على العرش حكيم الملك فؤاد أنه من غير اللائق عرض هذه
الأجساد العارية فى صالة المتحف ، ورأى أن يضع هذه الجثث فى
ضريح سعد زغلول المصمم من الجرانيت الوردى ، وهذا الرجل هو بطل
القوميين المصريين ، واستقروا فى توابيت خشبية فخمة بناء على أوامر
الملك بعيداً عن أعين الفضوليين ، ولكن الوطنيين وبمجرد وفاة فؤاد
أسرعوا لاستخراج هذه الجثث المدفونة لينقلوا مكانها جثة بطل الوفد ،
وكان ذلك عام ١٩٣٦ . ولأن كل صالات المتحف كانت مكسدة بالآثار ،
فقد تخلصوا منها بوضعها فى فيلا المدير الخالية ، لأن لآكو غادر لتوه ،
ودربوتون لم يأت بعد . ولم يكن مدهشاً للأب (دربوتون) عندما وصل
بعد ذلك بعدة أسابيع أن يجد هذه الآثار متراصة الواحد بجوار الآخر
فى الصالون . ملوك مصر القديمة وملكاتهما . لم يقلقنى هؤلاء الجيران
بأى شكل هكذا قال لمساغديه الذين كانوا قلقين جداً ، وأسرعوا
ليعدوا صالات أخرى لهذه الجثث [المومياءات] القعيسة ، وفى كل صباح
كان صديقنا الصحفى جابريل داربو - مراسل فرنسا فى القاهرة -

يقص علينا ما حدث فى ١٩٥٦ ، قبل أن يطرده عبد الناصر ، يحكى أن الكاهن كان يقيم قداساً أمام الفراعنة الممددين عند قدميه ، "المذبح والصليب وشمعتان فى وسط الصلاة ..." أجابت الأم العجوز وهى الوحيدة المسموح لها بالوجود هنا ، وكانت مدام دريوتون تمر بين التوابيت لتذهب لتعد الإفطار لابنها الكاهن ، وتطفى الشموع ، ويجد الفراعنة الهدوء فى أديتهم.

دريوتون الذى أدى وصوله إلى فضول أناس كثيرين سرعان ما أعطى صورة لا تلحق به ضرراً ، مائدته أصبح لها شهرة كبيرة لدرجة أن القاهرة كلها تتزاحم عليها لكى يتنوقوا ما عملته المدام الأم الضخمة البدينة والطريفة من أصل بورجونيانى (من أقليم بورجونى) ، وكان ابنها الأول الذى يقيم المذاب الكثرة والذيدة ، لدرجة أنه أخذ وزنه يزداد بشكل كبير ؛ أدى إلى إصابته بداء السكر ، مما جعله يلجأ لنظام أكل قاس . كنا غالباً ما ندعى لتناول طعام العشاء عنده ، فالسهرات عند هذا الرجل النواقة وأمام الأبدية ظلت لحظات نادرة فى دفتها ، الأمر الذى كان يعطينا النشاط بين الفرنسيين . كانت صلة دريوتون وفاروق متميزة دوماً وحافظا عليها متينة على أعلى مستوى . وما إن استقر على العرش الملك الشاب حتى بدأ رحلة طويلة لكى يتعرف بشكل أفضل على بلده . وكانت مهمة دريوتون أن يرافقه . وكانت العلاقة بينهما على أحسن ما يرام ، فبالإضافة إلى علمه الغزير الذى حكم عليه فاروق وعرفه ، كان دريوتون يهدئ الجو من حوله وهو وضع كان يجعل الناصحين من حول الملك راضين سعداء . خلال رحلته ، توقف فى سقارة وكان لى شرف

استقباله ، وكان لا يزال رشيقيًا يرتدى الزي الغربى ، ولكن على رأسه طربوش وطنى ، وكان فى صحبة الملك الحاشية وكبار رجال الدولة وشقيقتان من شقيقاته الشابات . وأحتفظ لهذا الملك الشاب بذكرى طيبة ، كان مازال خجولاً وسريع التأثر ، ومع ذلك أبدى رغبة فى الاقتراب بأى ثمن من شعبه ، وأن يجعل من بلده أمة عربية كبيرة ، واسوء الحظ أضرت به مثاليته ، فلم يستطع مواجهة الممارسة الصعبة للسلطة فى مصر فكان أن أسىء الحكم عليه وجرجر فى الطين على يد أعدائه . ومن بعد لم تهتم أى حكومة لا من قريب ولا من بعيد بالآثار .

وكان فاروق يثق إلى أبعد الحدود فى دربوتون ، وكان يعطيه ما يحتاج من أموال لإدارة مصلحة الآثار على أفضل ما يكون . وكانت هذه فرصة لا تتكرر ، ويفضل الإعانة المالية والطلب العاجل من فاروق أصبح عالم المصريات جورج جويون مسئولاً عن عمل نادر : وهو مباشرة نقل الجرافيتى والنقوش الموجودة كلها على أهرام مصر خلال قرون . وفى هرم خوفو نصب جويون خيمته عند قمة الهرم وخلال عام نقل سبعة عشر ألف نقش ، وربما أصبح صاحب الرقم القياسى العالمى فى تسلق الأهرام ! وهو مهندس معمارى فى الأصل ، وعمل منذ عام ١٩٢٩ فى حفائر تانيس مع بيير مونتيه . وجاء إلى سقارة قبل حرب ١٩٣٩ مباشرة لكى يشترك مع الأنسة أبرون فى عمليات الرفع الأثرى لمصطبة تى ، ولكن بسبب خلافات حادة معها ترك الموقع ليعود ثانية إلى تانيس . وفى عام ١٩٤٠ اكتشف مع مونتيه الكنز الشهير للملك سوسنس الأول . ومن خبرته فى العمل فى هرم خوفو وضع كتاباً شرح فيه بناء الأهرام .

وطبقاً له فإن المصريين استخدموا طرقاً صاعدة من حول نواة مركزية لكي يضعوا الأحجار فى مكانها من البناء حتى القمة . نظرية أثبتت صحتها بعد أن أمضى اثنى عشر شهراً فى صلة مستمر مع الأحجار المستخدمة والملاقة بجوار هرم خوفو، وهذا ما تعارض مع افتراضاتى . عندما بدأ فاروق فى الانغماس فى حياة الليل وفى الانحلال تعرض دريوتون - الذى أصبح صديق القصر - لمشاكل معقدة رغم أنه ، وذلك على يد المصريين من هواة الوشاية التى تنال من الشرف ، ولم يكف هؤلاء عن نصب الشباك له لتشويه سمعته . وعندما غادر مصر فى ربيع عام ١٩٥٢ كان الأب دريوتون يعرف أنه لن يعود ، فالسلطة الجديدة أخبرته أنه وببساطة شخص غير مرغوب فيه ، وكان هذا مأساوياً بالنسبة له . وعين بعد ذلك أستاذاً فى الكوليج دى فرانس . وظل يدرس بها حتى سن التقاعد ، ومات بعدها بعدة أشهر فى يناير ١٩٦١ على أثر أزمة سكر .

هوليوود فى وداى النيل

أحسست أن القاهرة تغيرت مع بداية الخمسينيات وتبدل الجو ، وأثناء تنزهى عبر شوارع المدينة كنت ألاحظ أن حياً جديداً قد زرع وأن منازل عتيقة قد أزيلت ، وبدأ لى أن المدينة تعاني من تشويه خطير ، وعندما أعدت الرؤية كانت القاهرة قد أصبحت ذات سمات أشبه بهوليوود على النيل ، مبان متلائة وسط أحياء حديثة جداً والتي جعلت الأحياء القديمة الوطنية تتراجع، واختفت الكثير من التقاليد مع قدوم عبدالناصر إلى السلطة ، فقد منع ارتداء الطربوش ، ومحا بضرية واحدة من الشوارع كلها طابعها الشرقى وأبطل ألقاب بك وباشا ، لكنه لم يستطع أن يجبر النساء أن يخلعن ملابساتهن التي تغطيهن ولا يرى منهن إلا بالكاد الوجه .

أحس الجميع أن السلطة الجديدة تريد وبأى ثمن أن تجعل من البلد بلداً أوروبياً بالانفتاح على العالم الغربى . وأحس الأمريكيون بأن هذه أرض خصبة لاستلهاام أفلام كبيرة ، وكانوا من أوائل من نزلوا بمصر فى هذا الجو . ولم يكن مدهشاً لى أن أرى ذات صباح على سلم منزلى فريقاً غريباً من شخصيات تتردى تى - شيرت (فانلات)

وفوق الرؤوس قبعات، ولأننى لم أعلم مسبقاً بأمر هذه الزيارة الصباحية فكنت أستعد للذهاب للعمل ، وبرز من بين هؤلاء رجل لم أكن أعرفه وقدم نفسه هوارد هوكس ، ويود أن يتحدث معى عن مشروع فيلم عن تشييد الهرم وأدخلته وتناولنا قدحاً من الشاي فى الشرفة . وأخبرنى هوكس أنه قرأ بمزيد من الاهتمام كتابى "مشكلة الأهرام" ، ولكنه كان فى حاجة إلى نصائح لإنجاز فيلمه . وكان يفكر فى تقليد أسلوب البناء الذى اعتقده وأقمت عليه الأدلة فى كتابى ، ومن ذلك استخدام المنحدر الصاعد الأمامى ، وهو الأسلوب التقنى فى نظره الأكثر منطقية ولم يتبقى أمامه سوى تحديد مكان هذا المشروع .

ذكرت موقع هرم زاوية العريان ، على بعد عدة كيلو مترات جنوب الجيزة ؛ لأنه يتعلق بهرم مدرج غير مكتمل ويتناسب مع رؤى المخرج ويرجع للأسرة الرابعة ، ولكن ما أعطاه سمته الخاص هو النسب الضخمة لمنحدره المشيد بكتل ضخمة من الحجر الجرانيت المجلوب من أسوان^(*) ، على بعد حوالى ثمانمائة كيلو متراً من هنا ، واكتشفه هنا بالصدفة الأثرى الإيطالى بارازانتى فى أوائل القرن العشرين . ذات صباح وهو يجوب الموقع على ظهر حصانه ، كان يتسلى باصطلياد

(*) فى نص الكتاب الأسمى (الجبرى) وهذا فيما يبدو خطأ مطبعى ، لأن محاجر الحجر الجبرى الجيد فى طرة وليست فى أسوان ، كما أن وصف وردى أو أحمر لا ينطبق مع كلمة جبرى السابقة ، كما أن الأثر نفسه موضوع الحديث من الجرانيت . (المترجم)

من يعدو من أمامه ، اختفى الحيوان فجأة فى جحر فقفر من على الحصان ، وأخذ يحفر وبارازانتى لا يتحمل أن يحفر طويلاً فلقد فتح مقابر وادى الملوك باستخدام الديناميت ! ولدهشته الكبيرة لم يعثر على الثعلب ولكنه عثر على كتلة ضخمة من الجرانيت الوردى ، فعاد سريعاً مع حوالى مائة عالم ، وأخذ فى تنظيف المكان ، وهكذا اكتشف أن ممرها يبلغ طوله حوالى ١٠٠ متر ويؤدى على عمق حوالى عشرين متراً إلى أرضية كبيرة من الجرانيت بها حجرة محفوظة بعناية ولكنها خالية . الموقع من ثم كان مثالياً ، وهذا ما أسعد هوكس كثيراً . ولم يتبق إلا تشييد الهرم ، لا يفيد القول إن هذه التجربة تهمنى كثيراً جداً فقد كنت أمل أن أستطيع أن أشارك فى تطبيق نظريتى ، بالحجم الطبيعى . ومع ذلك انتابنى الذهول لفترة عندما أخبرنى نويل هوارد مساعد هوكس أن لديهم النية لاستخدام جمال . وأخذت الأمر على أنه مزاح بعد محاولة شرح أن الجمال لا علاقة لها بعملية تشييد الأهرام ولكنى انتهيت بأن قبلت هذه المفارقة التاريخية ، وقلت لنفسى إنه من بين ملايين المشاهدين الذين سيرون الفيلم لا يوجد إلا نحو اثنى عشر مشاهداً هم الذين سيعرفون أن الجمال لم تكن معروفة فى مصر فى هذا العصر !

نويل هوارد بعث لى فيما بعد بكتابه عن هذه المغامرة المثيرة . وأحتفظ بذكريات عنها : "إنه متوسط الحجم ، يلبس ملابس كاكى فاتحة اللون ، والقميص والبنطلون اختارهم برغبته فضفاضين ، رجل يحب راحته ، وبالعكس ، وجود رابطة عنق من قماش القميص نفسه والباقي

يقلقني بعض الشيء ، القبعة الصغيرة من القش الخفيف الرفيع من النوع الذي يلبسه الذين يصطادون بالسنارة ، ولكن أنا مطمئن له ، وكان واداً مهذباً جداً ، كان يأتي لزيارتي غالباً ليرتاح من الإعياء الذي يعيش فيه شهوراً طوالاً. وكان المشروع هائلاً ! عمليات الإعداد للتصوير كانت تتطلب عملاً ضخماً وقابلنا صعوبات أحياناً ما تكون مخيفة . ترونر المسئول عن الديكور ، كان عليه أن يشيد هرمًا مدرجًا بالصورة نفسها الموجدة عليها في زاوية العريان ، شيد بوابات ضخمة لمدينة خالية وكذلك سوراً ، وعمل عدة قرى في الجوار وتخيل الفناء الداخلي وواجهة لقصر فرعونى . أما كتابة السيناريو فتصدى لها وليام فوكنر ، بعقد مع وارنر بروس . وهذا كذلك كان يأتيني طالباً النصيح ، وكان قصيراً بئف حاد أحمر فوق شارب كثيف ، ومعاقرته الويسكى لسنين جعلته مدمناً للكحول ، وجائزة نوبل في الأدب عرضت له صورة تدعو للشفقة ، ويبدو غير مقتنع بالتاريخ الذي نطلب إليه أن يكتبه . فى الحقيقة فى هذه الفترة القلقة من حياته انتهى من تاريخه الطويل والصاخب فى مصانع الملح الهوليدية ، عند الثامنة والخمسين من عمره لا يتقبل قضية زوال إبداعه ، فقد واجه تدريجياً ولادة طويلة عملية تدمير ، فلم يستطع أن ينجز عمله "الرمز" ، وهى قصة ظل معها عشرة أعوام لكتابتها "عندما تنكسر الريشة تنحطم الحياة" . بعد عدة أعمال مشتركة وجميلة مع هوكس وقعا معاً "ميناء الخوف والسكون العظيم" ، فوكنر متعب ، يكتب سيناريو كان عليه أن يعيد كتابته كلية .

وحتى الآن ورغم المشاكل الداخلية تسير الأمور على ما يرام مع السلطات المصرية التى يثنى عليها عمل عظيم كهذا . بدأت المشاكل الحقيقية عندما أبدت مصلحة الآثار تحفظات كبيرة تجاه مشروعات هوارد هوكس . ومن أجل أن نستطيع إعادة بناء هرم زاوية العريان كان يجب إخلاء المنحدر من أطنان من الرمال التى تراكمت به منذ أعمال بارازانتى ، عمل شاق ، وقدرت المصلحة التى تظن مسبقاً أن الأمريكان يمكنهم أن يضعوا أيديهم على كنوز ثمينة أو أن يعثروا على آثار منقولة مهمة . ومن ثم كانت المفاوضات طويلة ومرهقة . وأخيراً كسب فريق نويل هوارد القضية أخذاً على عاتقه النفقات كلها التى يتطلبها العمل ثم تكلفة بناء سور يمنع الرمال من الزحف ثانية على الموقع ، وذلك كله حتى يسمح للسياح بالزيارة . فى الحقيقة كان العمل هنا فى صالح عبدالناصر الذى رأى فيه مكاناً مناسباً ليخزن فيه ذخائر عسكرية ويحميه بالأسلاك الشائكة .

ثلاثمائة عامل معمرين فى جلابيهم ، أخذوا فى إخلاء الموقع من الرمال بالقفف التى ينقلونها على رؤوسهم ، ومن الطريقة العتيقة التى يسير بها العمل والبطء الشديد ، طلب هوارد هوكس ثلاثمائة عامل إضافي . خلية نحل ، وكان مشهداً مذهلاً فى الإجمال ، حوالى عشرين ألف متر مكعب من الرمال أخليت فى زمن قياسي فى تاريخ مصر .

هناك على بعد ثمانمائة كيلو متر عسكر تزونر وفريقه فى أسوان ؛ لصناعة كتل حجرية على غرار الأحجار الحقيقية ، والتي ستستخدم فى تشييد الهرم . وعندما بدأ التصوير كان الفلاحون فى ذهول وهم يرون فى يوم مشرق على صفحة النيل ثلاثة آلاف رجل على متن خمسة وسبعين مركباً ينقلون أطناناً من الأحجار المقلدة . كابا ، أحد أشهر المحترفين فى وكالة ماجنم ، والذي عين مصوراً فى الاستوديو ، والفريق كله كان ينتظره ، أحزن الجميع خبر وفاته ، فقد قفز على منجم فى دين بين فو خلال هذه الشهور ، كنت أجد صعوبة فى متابعة عملى من موقعى ، كنت استدعى بلا توقف لمتابعة العمل فى موقع الهرم المقلد وكنا فى رمضان ؛ وكان من الصعب أن تفهم الأمريكان أن هذه الفترة من السنة هى أصعب فترة يمكن أن تباشر أعمالاً كبيرة كتلك التى يتطلبها تشييد الطريق الصاعد الأمامى، الذى يستخدم فى جر الأحجار الجيرية التى تنقل للموقع . وكنت مسئولاً مع هوكس عن الإشراف على الأعمال خلال فترة التصوير كلها ، واستعملوا جنوداً من الجيش المصرى ليحملوا الفرعون على أكتافهم . وإجمالاً ، حوالى ستة عشر ألف شخص اشتركوا فى التصوير فى فيلم "أرض الفراعنة" ، وأخيراً منع عبد الناصر عرض الفيلم لأن الممثل الرئيسى كان يهودياً .

سقارة ... مجرد خدش

عندما أتأمل هذه المساحة الشاسعة من الصحراء التي تقبع بها الجبانة المنفية ، لا أستطيع أن أمنع نفسي من الحلم بأن تتزاح الرمال أكثر لتكشف لنا ما فى باطنها ، سقارة جبانة فريدة فى العالم فقد استمرت مستعملة لأكثر من أربعة آلاف عام ، والعمل فيها لم يتوقف منذ الملوك الأوائل وحتى العصور الوسطى ، جانب من التاريخ المصرى الذى أمدنا بما حولنا من آثار ، وكذلك بما تحت أقدامنا ، والذى سنكتشفه ربما ذات يوم . فهناك أهرام عديدة مفقودة ، والعديد من النقاط المفقودة فى القوائم الملكية بما يجعلنا أن نعتقد بكل المنطق أن مصر هى موقع عمل دائم ، والاكتشافات الحديثة أكبر دليل على ما أقول .

قال آلن زيفى : "لقد قالت الآلهة الكلمات الأولى" ، ويأتى زيفى ليستقر كل شتاء مع فريقه فى سقارة فى منزلى ، ومنذ عشرين عاماً وهو يعمل بنشاط كبير فى ظروف صعبة فى المنحدر الصخرى فى سقارة واكتشف مقابر الدولة الحديثة . هذا العمل الرائع كان عليه أن يمزج ما بين الناحية العلمية وسمة أخرى مهمة لكل أثرى وهى حسن التخمين . على بعد مائة متر أسفل منزلنا وفى مكان لا يثير انتباه أحد ،

فى الثلاثينيات رجال لآكو الصغار يلهون بموميآوات القطط ، كان الاكتشاف الأول لزيفى وهو مقبرة الوزير عبر - إلى ، وعلى الرغم من نهبه فإنه مازال يحتوى على بعض الأثاث الجنائزى المهم . وكان هذا المكان يعرف باسم البوباسطيين حيث دفنت القطط لوجود مقاصير للآلهة فى العصر اليونانى . وبالدخول فى كهوف بسيطة كهذه ، زيفى كان لديه حدس رائع عشرة أعوام فى هذا الموقع - حفائر بهذا الشكل بداخل دهااليز سريعة التهدل ، وفى منحدر خطر وذى رطوبة عالية ، يحقق بمعلقة واحدة ما ينجزه بلدوزر ، وكل جزء صغير من الأرض يحتمل جدا احتواؤه على أثر ، ويجب أن تعرف أن أى بعثة وإن كانت كبيرة لا يمكن أن تبقى لأكثر من ثلاثة أو أربعة أشهر على الأقل بسبب نفاد الاعتمادات المالية . بعد مقبرة عبر - إل ، اكتشف زيفى بجوارها مباشرة مقبرة أخرى مهمة وهى مقبرة سيدة هذه المرة وهى مايا ، مرضعة الملك توت عنخ آمون ، هذه الاكتشافات الرائعة تكشف عن وجود مقابر لشخصيات كبيرة منسية وثبت ما نعتقده من زمن طويل ! عاصمة الدولة القديمة ، منف ، استمرت تلعب خلال كل عصور التاريخ المصرى دوراً محورياً ، اقتصادياً وعسكرياً ودينياً . واكتشاف آخر هذه المرة على يد كريستان زيجار حديثاً . وهنا لعب حدس الباحث الأثرى دوراً مهماً . عندما بدأت فى وضع كتاب عن مقصورة صغيرة لشخص يدعى أخت حتب والتى توجد فى اللوفر منذ عام ١٩٠٢ ، مدام زيجار طرحت على نفسها السؤال من أين جاء هذا الأثر ؟ كانت تعلم أنه مقبرة من عصر الدولة القديمة ، اكتشفها مارييت فى سقارة ولكنها لم تحفر أبداً .

فى عام ١٩٦١ بدأت بميزانية صغيرة أعطاها إياها متحف اللوفر ، قررت أن تأتى للموقع لكى ترى أى آثار تساعدنا فى إعادة بناء المصطبة ولو بشكل عارض . وبناء على إشارات صلاح الفجار توصلت إلى المكان الذى يمكن أن يضم بقايا المقبرة . على مقربة من الطريق الصاعد لهرم ونيس . بعد ستة مواسم حفائر لم تجد أشياء كثيرة ولكن المقبرة نفسها عظيمة وضخمة قابضة فى قلب بئر وثلاثة تماثيل منحوتة من الحجر الجيرى الملون ، واثنان منهما يمثلان أخت حتب الشهير . العمل الذى باشرته فى سقارة ألقى أضواء جديدة على ظهور العمارة الحجرية خلال هذا العصر البعيد فى الأسرة الثالثة . فيما سبق كنا نجهل كل شئ عن هذه العصور السحيقة ، والتي كانت متقدمة ولاشك ، والتي شهدت ولادة الفن العظيم ، وهو البناء بالحجر المقطوع تحت إشراف العبقري إيمحوتب المقدس ، وعلى سبيل المثال ، الجدار الوحيد المستدير فى العمارة المصرية كلها يوجد فى سقارة .

بقيت مندهشاً من رؤية السرعة فى المرور من العمارة الرقيقة الأنيقة لإيمحوتب إلى العمارة الضخمة والمهيمنة فى الأهرام الكبيرة . اكتشفنا مع زكريا غنيم فى الخمسينيات مجموعة جنازية أخرى ، بقيت لسوء الحظ غير مكتملة ، وربما كانت خاصة بابن زوسر وخليفته ، وهو حورس سخم - خت . وسور مبنى بالأسلوب نفسه والنسب نفسها التى شيد بها سور زوسر ولكنه مصمم بأحجار أعلى مرتين من سور زوسر . وهذا التطور سوف يستمر بنشاط ويؤدى إلى عمارة مختلفة تماماً ،

أقل أناقة ولكن أكثر اتساقاً مع العمارة بالحجر . وأقدر على التعبير عن ذاتها كأفضل ما يكون من المعابد من الجرانيت للملك خفرع بالجيزة . وعادت من ثم بأشكال أكثر تناعماً من المعابد الجنازية فى الأسرة الخامسة فى أبو صير ؛ حيث وصل الفن فى الدولة القديمة ذروته .

نعلم كذلك أن هناك فى آثار زوسر الحجرية تقليد للخشب بأن تلون باللون الأحمر ، وبخاصة فى السقف ؛ حيث وجدنا بعض الآثار ، ولكن الباقى اختفى بفعل الرياح المحملة بالرمال . فى العصور القديمة ، فى اليونان كما فى مصر ، الآثار كلها كانت ملونة . من نافلة القول سيكون من الحماقة أن نضع لها ألواناً اليوم ، وأحياناً ما يخيفنى هذا الأمر ، أن يفعلها بعض المصريين الذين أحياناً ما يحملون أفكاراً خرقاء . وكان من الممكن أن أقدم الكثير لو ساعدونى ولو أعطونى ما أطلب . هذا العمل كان طويلاً جداً وكنت بمفردى ، فلم يكن هناك أحد أبادله الرأى والمشورة فيما يتعلق بالأحجار ، وغالباً ما أتوقف عن أعمالى بسبب الإدارة الوطنية ، وفقدت الكثير من الوقت فى الذهاب والمطالبة بأموال ولله أوراق لا قيمة لها . والمزعج حقاً أنهم لا يوفرّون أدوات اليوم كما كان الأمر عليه فى الزمن الماضى . وقد استخدمت أفضل الأحجار فى عمليات البناء بعد الحرب التى قام بها المصريون ، ولم يتبق لنا إلا الأحجار الأقل جودة والأكثر ضعفاً أو أخرى صعبة جداً فى التعامل معها والأدوات لا تتجدد ، والعمال يهلكون بلا فائدة . ويؤلمنى بشكل مستمر أن أرى الزائرين يسيئون إلى الأحجار بحفر مخربشات قبيحة عليها ،

ويحاول العمال أن يخفوها بالألوان أو يخفوها بحكها ، الأمر الذى يؤثر على الآثار بلا شك أيضا تأثير . فى عام ١٩٢٦ كانت الألوان زاهية ، ومنذ ذلك الحين وهى تتلاشى تدريجياً لدرجة أنها لم يعد لها أثر عملياً . وكان من الممكن التدخل لحمايتها منذ زمن طويل بوضعها داخل لوحات زجاجية لحفظ الألوان ، فقط مصطبة هى التى استفادت من هذه التقنية ، ولكنها مغلقة ولا يستطيع السائحون زيارتها ، ولا يفتحونها إلا للموظفين ليروهم كيف تكون العناية بالآثار فى مصر ! ومثال آخر تعين فى تلك الفترة التى افتتحت المقبرة الجنوبية للزيارة ، كان الناس يحملون معهم كميات كبيرة من الفينانس الأزرق الذى كان يغطى جزءاً من الحجرة الجنائزية ، وكان هذا سبباً من بين أسباب أخرى دفعتنا لطلب إغلاقها نهائياً . هرم ونيس ، وهو أحد الأهرام الجميلة ، هو مثال درامى آخر ، فقد اكتشفت حجرة الدفن سليمة تماماً بعد أربعة آلاف وخمسمائة عام من الصمت والظلام ولكن بعد عدة أعوام من السياحة المكثفة فقدت هذه الحجرة بهاءها وجمالها كله ، اختفت الألوان وانتهى بهم الأمر بإغلاقها منذ خمسة أعوام . وهناك مخاطرة أن تفتح ثانية قبل أن يجنوا وسيلة لحمايتها بما تبقى عليها من ألوان . ولو أنهم سمحوا للسائحين بزيارة الحجرة الجنائزية أسفل هرم ببي الأول كانت سوف تحدث الدراما نفسها . واحسرتاه ، ماذا عسانا نستطيع أن نفعل ؟

ذات يوم انتبهت لما انقضى من زمن ولعدد السنين التى بدأت أحملها على كتفى . والرعب الذى يملؤنى هو أن أختفى وأترك موقع زوسر بين أيد غير محترمة وغير مثقفة ، كثيراً ما أسمع الكلام الضال الشاذ ،

ذات يوم جاعنى مفتش من مصلحة الآثار يرانى ليقول لى إننى ربما من الأفضل أن أباشر عملية تنظيف الهرم المدرج من الرمال كلها التى تقع تحت درجاته، وهو يأمل أن يرانى كل يوم وأن أمرر المكتسة الكهربائية ، الأخطر أنه لم يفهم أن هذا الرمل ذاته هو الذى يعطيه جماله وسمته الخاص جداً . وفى مرة أخرى اقترح على أن أعيد بناء المجموعة كلها . وحاولت أن أوضح له أننا لا نعيد بناء أطلال بهذا الحجم الهائل ، لأن ذلك لا يفيد فى شيء ، وسيكون عرضة للتدمير ويستغرق سنين عدا ، وقاتلت على جبهة أخرى لكى ينقلوا مكان وقوف السيارات ، حيث تأتى مئات الأتوبيسات تقف أمام مدخل المجموعة موزعة العادم على الأحجار الجيرية فى الجدران فتصيبها فى مقتل .

وعلى مدار سنين وأنا أبحث يائساً عن رجل يستطيع أن يخلفنى . فى عام ١٩٦٧ تعرفت على صلاح النجار وهو استثناء بين المهندسين المعماريين المصريين الذين جاءوا للعمل فى الموقع لأنه يهتم حقاً بالآثار . عندما قابلته كانت لديه معرفة جيدة عن معظم آثار مصر ، وقد جاء بتوصية من ثروت عكاشة ، وعرض على التخطيطات المعمارية لبعض المعابد والأهرام ، وكنت سعيداً لرؤية هذا الرجل الموهوب ، فقد كان ببساطة مغرمًا بمصر القديمة، وهذا شيء نادر عند المعماريين المصريين . ساعدنى كثيراً خلال عدة مواسم ، ثم ذات يوم قرر أن يدرس الهيروغليفى . وهذه المبادرة خلقت لى العديد من المشاكل لأن علماء المصريات يوماً محدودون داخل عملهم ويرفضون أن يروا فيه متخصصاً لغويًا ،

وهو المهندس المعماري ! ومن ثم سافر إلى فرنسا للإعداد لرسالة الدكتوراه ، مكث هناك عشر سنوات ، وقبل رحيله استطلعنا أن نعيد بناء أعيد من مقاصير الحب سد التي تفهمت معمارها بفضل ما تبقى من جدرانها ، وقمنا معاً بالإعداد للجزء الثاني من كتاب عن الأهرام وانتهى من الدكتوراه ، وعاد صلاح إلى مصر ولكن لم يعد إلى سقارة . ومنذ ذلك الحين قدم استقالته من مصلحة الآثار وغادر مصر ليعيش في باريس حيث تزوج كاترين برجير . برحيله تبددت آمالي الأخيرة في رؤية شخص يهتم بآثار إيمحوتب . قال لي صلاح ذات يوم إنني عملت كل ما كان يجب أن يعمل أحد ولا يستطيع أن يحل محلي ولأن اسمي حفر للأبد في رمال سقارة .

مصير زكريا البائس

كان زكريا غنيم مساعداً لى خلال عدة سنوات . وكنت أعلق آمالاً على هذا الشاب الملىء بالحيوية والموهوب كذلك . زكريا يعتبر من ذلك الجيل المولود من أباء يعملون فى مجال الحفائر الأثرية ومصيره المؤلم أرىكنى تماماً ، لأن القصة التى حيكث حول ذلك كانت جميلة ولكنها ظالمة . ولكن فى مصر كما فى كل مكان فإن الحساد عديمى الذمة كثيرون . عندما بدأ موسم حفائر ١٩٢٧ أحسستنا أن أشياء عديدة قد تغيرت فى عالم المصريين . بدأ المصريون يهتمون بآثارهم ودافعهم فى ذلك الكبت والحرمان الذى يعانونه إزاء هذه العلم البكر ، والذى كانت نشأته ونجاحاته على أيدي الأجانب باستمرار . وانطلق العديد منهم فى مباشرة دراسات مطولة ليحل محل الإنجليز أو الفرنسيين ، وسليم حسن الذى فشل فى أن يعين على رأس المصلحة خلفاً للسيد لاکو كان أول نائب مصرى لمدير مصلحة الآثار . نظراً لاقتناعه بفكرة أن فيرث لم يستطع أن يصل إلى شىء فى القطاع الواقع إلى الشرق من معبد ونيس . فقد كلف زكريا غنيم بتنظيفه ، وكذلك القطاع الواقع إلى الجنوب من الهرم المدرج . واكتشفت العديد من المصاطب ، ولكن الاكتشاف الأهم الذى

جعل الفريق المصرى يشعر بالفخر هو الطريق الصاعد للملك ونيس ؛
الذى يجىء من معبد الوادى لهذا الملك ، ظل مختفياً لقرون تحت كلبان
الرمال ، ويمتد لمسافة سنتيمتر ، تحيط به بقايا جدران من الحجر
الجبرى الجيد من طرة ، يزينها مناظر جميلة بالنقش الغائر ، معظم
الأحجار كانت مختفية فى الرمال بطول الطريق ، ومن بين هذه المناظر
مناظر على جانب كبير من الأهمية ، فهى توضح كيف كان يشيد
المصريون آثارهم . أحد هذه المناظر يصور نقل أعمدة معبد جنازية
على متن سفن قادمة من محاجر أسوان ، كانت موضوعة على جانبها
ومربوطة إلى بعضها ، وموضوعة على اثنين معاً على متن المراكب
المسطحة . وهذه المناظر كانت سبباً فى نهاية الجدل الذى يثار يوماً
حول كيفية البناء ونقل الأحجار . هذه الوثائق المهمة سمحت لنا بتفهم
أنماط الحياة والكثير من الأشياء عن الحياة فى هذا العصر . لم تتوقف
مكتشفات زكريا غنيم عند هذا الحد . إلى جنوب الطريق الصاعد
مباشرة ، عالم المصريات المتميز هذا والموهوب بحاسة التخمين القوية
والمزود بالطموح ، فما كاد نجاحه يرى النور حتى كان اكتشافه لمركب
كبير بطول أربعين متراً منحوتة فى الصخر . هذا المركب بذيله المعقوف
كان يلعب دوراً رمزياً . ولا علاقة لهذا المركب بمراكب خوفو التى
اكتشفت فيما بعد والمشيدة من الخشب والتى تستخدم فى نقل الأثاث
الجنازى للملك . ومركب سقارة كانت مخصصة للرحلة السماوية
التي سوف يجوبها الملك بوصفه إله الشمس .

وتتميز عام ١٩٥٤ بكثرة المكتشفات ولا يمر مثل هذا الأمر بلا مشاكل . قاتل المهندسون والمفتشون بشراسة لكي ينسب لهم شرف اكتشاف مهم أيضاً كالاكتشافات الأخرى . والأمر متعلق هذه المرة بمركبين عملاقين للملك خوفو . لعبت المصادفة مرة أخرى دورها ، أثناء الأعمال الجارية لتيسير المرور حول الهرم الأكبر ، وقع المهندسون على فتحة كبيرة يحتمى فيها مركبان وتحيط بهما كتل كبيرة من الحجر الجيري ، وترقدان هنا منذ آلاف السنين . أسرع المفتشون المستولون عن الإشراف على الموقع لنسبة هذا الاكتشاف لهم ، محتجون بأن الحفائر هي حقلاً خاص بالمختصين بالمصريات واستمر الجدل شهوراً ! . ورغم الحيرة والارتباك فقد قلب كمال الملاخ الموازين رأساً على عقب بإبرازه وثائق مهمة . وبقراءة ما حكاه عن اكتشافه وجدت المشاعر نفسها التي أحسستها عندما تسالت إلى المقبرة الجنوبية في مجموعة زوسر في ظهيرة يوم ٢٦ مايو "هكذا كتب" ، في يوم حار أدخلت وجهي في الفتحة لرؤية الخشب ، في البداية لم أستطع تمييز شيء نظراً لشدة الضوء في الخارج والظلام في الداخل ، فأغمضت عيني قليلاً ثم عدت أفتحهما لعلني أستعيد بعض القدرة على الرؤية أو تمييز شيء بالداخل ، ولاحظت عبق المكان وابتسمت ، فقد كان خليطاً من عبق خمسة آلاف عام . بالنسبة لي كانت رائحة الزمن ، وكنت متأكداً أن الخشب لا يزال هنا في مكانه . وحمليت مرأتين لكي أعكس الضوء - ضوء الشمس ، إله المصريين القدماء - إلى الداخل عن طريق الفتحة الصغيرة ، واستطعت تمييز المركب ودفنه ، تعرف اليوم أن الخشب هو خشب الأرز المستورد من لبنان .

فى الحقيقة لم تكن المركب إلا ألفاً ومائتين وأربعاً وعشرين قطعة مكسدة وتعانى من الضعف الشديد ، ولتجنب أى عمل متهور عجول صنع الأثريون من كل عنصر عشرة عناصر لكى يشيدوا نموذجاً مصغراً للمركب يجهلون حتى الآن شكلها . ثم بعد ذلك بدأوا فقط فى إعادة بناء مركب ملكية طولها اثنان وأربعون متراً وعرضها أكثر من خمسة أمتار . وأخرجوا عملاً رائعاً . ولكننى لم أستطع أبداً أن أفهم كيف سمحت مصلحة الآثار بتشديد مبنى قبيح أمام هرم خوفو مباشرة لكى تضمنه المركب الشهيرة . فى اللحظة التى وجهت فيها صحافة العالم أجمع أنظارها إلى العمل الذى تصوره شركة وارنر فى مصر ، كان زكريا غنيم يعلن عن اكتشافه الجديد . فقد توصل إلى حجرة الدفن فى هرم غير مكتمل كان معروفاً منذ عدة سنوات ، وتابعت باهتمام بالغ هذا الاكتشاف لأنه يقع على بعد عدة أمتار من سور زوسر . وذات يوم جاء زكريا يبحث عنى ليخبرنى أنه فى حيرة من أمر مستطيل ذى أضلاع تغطيه طبقة من الرمال . ويقولون إنه مضبة كبيرة ، ولكن فى سقارة لا نبرئ الهضاب من إخفاء أشياء بداخلها ، وبالتالي شجعت على البدء فى حفائر جديّة وسرعان ما اكتشف جداراً بدا لى أنه نسخة طبق الأصل من سور زوسر ، ومع ذلك فإن الأحجار المستخدمة كانت أكبر قليلاً ، وفكرت مباشرة أنها ربما كانت جزءاً من هرم مجهول حتى الآن . ونصحت زكريا بتنظيف الجهات الأربع لنرى إذا ما كانت زوايا أثر ما ستظهر . وأثناء إزالة الرمال أخذنا فى اعتبارنا أن هذا المبنى لم يكن أكثر أو أقل من قاعدة هرم مدرج غير مكتمل . وأسرعت بتنهئة زكريا الذى كان

سعيداً للغاية . وكان هذا أجمل يوم فى حياته القصيرة ، فكان أول مصرى يحرز شهرة فى موقع حفائر . وبناءً على نصائحي استمر - وخلال عدة مواسم حفر - فى عمليات تنظيف هرمه . وفى رمال المنحدر جمع قطعاً من الذهب وفازات من الألباستر وفخار ، والمجموعة تعكس تشابهاً مع مجموعة الأسرة الثالثة . وسدادة غطاء من الصلصال مطبوع عليها اسم الملك الذى شيد هذه المجموعة ، وهو الملك حوس سخم - خت ، وهو فرعون مجهول حتى هذه اللحظة . وعندما اكتشف زكريا أخيراً فى وسط حجرة الدفن ، تابوتاً من الألباستر لم يمس ، دخل فى حالة أخرى متوقفاً أن المومياء الملكية كانت لا تزال بالداخل . من ناحيتى كنت أكثر تحفظاً . فكانت هناك علامات على أن أكثر من لص استطاع الوصول إلى هذه الحجرة وأخذت أعينه إلى المنطق . ولكنه رفض الاستماع لنصائحي : وعاش فى أسطورة ولم يتقبل أن يتبدد حلمه .

حتى دونما الاهتمام بفحص ما بداخل التابوت أسرع بدعوة عبدالناصر ليعتبر مراسم الافتتاح ، وجاء عبدالناصر فى كوكبة من كبار الشخصيات والصحافيين ، وكنت ضمن المدعوين . وكان الكل مقتنعاً أنه سيعيش مفامرة مقبرة توت عنخ أمون نفسها . ومن جانبي بقيت محتفظاً بشكوكى الجادة فيما يتعلق بخاتمة المراسم . لن أترك عيني زكريا ، كان الشاب متوتراً جداً ولكنه متأكد من عمله . وحبس الجميع أنفاسه ، عندما - وفى صمت الموت - فتح التابوت كان خالياً .

رغم هذه المهانة المرعبة ، كان عالم المصريين الشاب مصحوباً بالتكريم أينما حل . وهاجت الصحافة كما فى الحالات المشابهة كلها ، والصحافيون يوماً يطمعون فى كل ما هو مثير ، ويقدمون المعلومات الأكثر غرابة . فتحدثوا عن اكتشاف هرم من الأسرة الثانية والذي يرجع لستة آلاف عام ، والذي سيكون أقدم أثر مبنى بالحجر فى العالم ! وخلطوا بين إيمحوتب المقدس وزميله أمنحوتب الذى عاش فى الأسرة الثامنة عشرة . وأعلنوا أن هذا الهرم مع أنه غير مكتمل لم يمس وأنهم سوف يعثرون على كنوز كتلك التى عثر عليها فى مقبرة توت عنخ آمون وكان أن حلت اللعنة بمصر وسقط ثلاثة من أثرييها .

وجهت الدعوة لذكريا غنيم للمشاركة فى عدة مؤتمرات بالولايات المتحدة، ونشر كتاب عنه فى إنجلترا، ولكن عند عودته لاحقه شبح الحسد . اتهموه بالاتجار فى الآثار والقطع الفنية . . واستدعاه البوليس وخضع لاستجوابات مطولة . ومنع من الوجود فى مواقع الحفائر . ودار الاتهام حول اختفاء أنية كبيرة من الدولة القديمة ولكن لم يقدم أى إنسان أى دليل أو حتى قرينة لإثبات إدانته . وأحس بإهانة بالغة واعتبر هذا وصمة عار ستلاحقه أبداً ، فانسحب واختفى الشاب فى القاهرة . وكنت سوف أقوم بزيارته وأبدأ تأييدى له . وبراءته ليست محل شك عندي فقد كان ذكريا رجلاً أميناً . وعنده ضمير حي ، وليس هو من يختلس . وتالت كثيراً من أجله .

فى سقارة كان فى مواقع الحفائر كلها سرقات لا يؤثر فيها إشراف المفتش الأثرى ، ولا حراسة الحراس ، ولا حتى غلق الأبواب بالأختام والأقفال .

هناك عصابات منظمة تماماً تحوم حول الآثار ، قادرة على رشوة العمال المساكين بإعطائهم مبالغ مالية أعلى من مرتباتهم الضعيفة . عندما لا يتمكنون من قتلهم للقيام بالسرقة . هذا ما حدث مع واحد من أفضل حراسنا والذين كنا نثق فيه تماماً ، رجل نوصمير حى ، عهدنا إليه بحراسة مخازن ببي ؛ لأنها تحتوى على آثار ثمينة وضعت هنا حتى نقلها لمتحف القاهرة ، فى منتصف الليل هاجمه اللصوص وقتلوه ، ولم نجد التمثال الذى سرقوه حتى الآن .

فى حالة زكريا ، لم يرفعوا أى أثر لعنف . ويمكن أن تكون الأنية من ثم قد وضعت فى مكان آخر . وفكرت فى متحف القاهرة حيث مئات من الأواني المستخرجة من الدهاليز الموجودة أسفل الهرم قد وضعت فى مخازن المتحف . وأمضيت ساعات عديدة فى فحصها وفجأة وفى ركن وقعت على الأنية التى أبحث عنها . أمسكت بدليل براءة زكريا ، وكتبت له كلمة سريعة لإخباره بالنبا السعيد . ولأول مرة ومنذ وقت طويل ، أنام نوماً عميقاً .

صباح اليوم التالى ، علمت القاهرة بنبا وفاة زكريا غنيم ، فقد ألقى بنفسه فى النيل من يأسه . قبل ساعات قليلة من وصول خطابي إليه ، والذى يحمل دليل براءته .

رحلة فى النوبة

وجدت مسعوية كبيرة فى إقناع ميمى بأن تلحق بى فى مصر ،
لتشاركنى فى الرحلة التى كنا نعد لها مع جون لكلاى ، فقد انخرطت فى
الأعمال الخيرية ، مكرسة حياتها لهذا الغرض . وكانت كثيراً ما تكرر على
مسامعى أنها لم يعد لديها دقيقة واحدة ، وكان هذا واقعاً . ولكن مفتونة
بفكرة اكتشاف إقليم ستلتهمه قريباً بحيرة ناصر انتهى بها الأمر بأن
قبلت أن تلحق بنا . فهى لم تعد لزيارة مصر منذ خمسة عشر عاماً .

منذ أن قرر عبدالناصر تشييد سد كبير فى أسوان ، أصبح
المجتمع الدولى فى حالة قلق شديد نظراً للسكان الذين سيهجرون
والآثار التى ستفقد . يوم ٨ مارس ١٩٦٠ المدير العام لليونسكو أطلق
نداء رسمياً للمساعدة العالمية لإنقاذ التراث التاريخى اعتباراً من تشغيل
السد العالى . تبيان رائعة والتى تعد من بين أجمل المباني فى الأرض
كلها مهددة بأن تغمرها المياه . هذه الثراء هو ملك للعالم أجمع ...
فلتتحد الشعوب لتعنى النيل . مصدر الخصوبة والطاقة من أن يصبح
مقبرة سائلة لجزء من العجائب التى استقبلها جيل اليوم من جيل الأمس .
هكذا نادى الشعوب المعنية فيكتوريو فيرنيز ، استخدم مالرو كل هذه

الوثائق أثناء خطابه المطول الموجه لحشد وسائل الإعلام . وبدأ علماء من العالم أجمع فى التحرك . عشرات الحملات نظمت لافتتاح مواقع حفائر النوبة ، وخاصة لفهم بلد لم تبد كثير اهتمام بالعلماء والأثريين ولا الرحالة . يجب القول إن هذا الإقليم كان معزولاً ، كى لا تقول مقطوعاً عن الدنيا ، والمناخ صعب ووسائل المعيشة مستحيلة .

منذ خمسة آلاف عام والمصريون مهتمون بمناجم الذهب والعاج الذى يأتى من أفريقيا السوداء . فى الدولة الوسطى اتبعوا سياسة استعمارية غنية ، ووصلوا حتى الشلال الثالث فى مشروعات تجارية كبيرة ، وفراعنة الدولة الحديثة ضاعفوا تشييد الحصون والمباني الدينية ولكن أقادوا من تصدع حكم أولئك الذين أخضعوهم منذ قرون . استطاع النوبيون (حوالى عام ٧٣٠ ق.م) أخيراً أن يثأروا لأنفسهم عندما نصبوا على العرش الملك بعثى من أصل كوشى . وخلال قرن حكم النوبيون مصر العظيمة مؤسسين عاصمتهم فى نباتا ، وشيدوا فى كل مكان أهراماً جنائزية . نظم مارييت حملة على هذا الإقليم حوالى عام ١٨٦٠ ، ثم فى بداية القرن العشرين عند تشييد أول سد فى أسوان كان ماسبيرو لديه الفضول للذهاب إلى هناك لعمل جولة ، وجمع من حوله عدة أثريين من جنسيات مختلفة ، حتى يسجل أكبر عدد ممكن من الآثار ، ونجد وصف هذه الآثار فى مجموعة رائعة بعنوان المعابد الفارقة بالنوبة ، وعمل رايزنر وفيرث معاً عدة حفائر ورفع معمارى ، واكتشفوا مقابر ذات طراز غير معروف من باقى مصر . وبعد ذلك بخمسين عاماً يتوافد علماء من الجنسيات كلها على أرض النوبة .

فى كل مكان ويطول النيل تنهض آثار معابد فخمة ، والسؤال هو مدى قدرة المجتمع الدولى على إنقاذها كلها . ولابد من الاختيار . ومن ثم كانت الأولوية لموقعين . أبوسمبل وفيلة . وفى عام ١٩٦٢ بدأت الأعمال لإنقاذ أبى سمبل ، وهو مشروع هائل استمر خمسة أعوام ، وفككت آثار فيلة ونقلت إلى جزيرة معدة لاستقبالها . وافتتاحها فى عام ١٩٨٠ . كانت المحطة الرسعية الأخيرة فى حملة النوبة .

لكل من رآنا تملؤنا الرغبة كغيرنا من الأثريين لزيارة المكان للمعرفة . ولكن لتنظيم هذه الرحلة يلزمنا ميزانية ، وحصلنا على معونة ضئيلة من الحكومة الفرنسية وتصريح من المصريين للقيام بالحفائر ، وخريطة للموقع غير دقيقة بالمرّة لدرجة أن بعثتنا بقيت تائهة فترة من الزمن . فيما يختص بالإمداد الغذائى سوف نتدبر حالنا فى المكان ، وكنا كلنا على قناعة ورضى للقيام بهذه الرحلة إلى النوبة .

عندما عادت ميمى إلى مصر ظلت لفترة طويلة مضطربة ، فقد رأت القاهرة القاهرة الحريم النصف الأول من القرن العشرين . الشرق بالنسبة لها فقد سحره رفضت الذهاب لسقارة ، وخمنت كما قالت "لا يجب العودة لأماكن النكريات" ، وصعدنا من ثم ثلاثتنا من القاهرة بالقطار إلى أسوان ، مدينة ذات سحر أخذ بمنازلها البيضاء الخفيفة جداً ، نوبية تقريباً . وفندق الشلال القديم العتيق المطل على النيل ، والمشهور نظراً لنزول أجاثا كريستى به ، وأصبح كذلك بالنسبة للفرنسيين عندما جعله الرئيس الفرنسى ميثران مكان استجمامه السنوى . وهنا برهن

المصريون على نوق سبى جداً مرة أخرى ، عندما تركوا برجاً شاهقاً يرتفع بجوار هذا المبنى الرائع ، الأمر الذى شوه انسجام المشهد .

بعد وصولنا مباشرة ، وبعد ليلة قضيناها فى القطار ، كان علينا أن نجد مركباً مجهزاً ونظراً للناس الذين وصلوا للنوبة فإن العثور على مركب كان أمراً صعباً ، والمركب الوحيد الذى وجدناه كان فى حالة سيئة وأعطينا مبلغاً كبيراً ولكن لم يكن أمامنا خيار آخر . ثم ذهبنا للسوق لنشتري ما نحتاجه من إمدادات ، وكان علينا أن نخزن ما نحتاجه لمدة شهر ، وهذا يعنى أننا سنشتري كميات ضخمة من الطعام ، وأهم شيء كان الماء ، ومن أجل تنقية المياه اشترت ميمى من باريس مرشحاً ماركة باستير وهو شيء سهل الكسر حملته على ركبتيها فى الطائرة ، وخلال الرحلة كلها كانت كقربان مقدس ! وفى المركب جعلنا رجلاً مسئولاً عن المرشح ، لأنه لم يكن متصوراً أن يتحطم مع أول الرحلة .

وبدأنا رحلة صعودنا البطيئة للنهر حتى الشلال الأول ، ومن بعيد كانت تبدو فيلة رائعة ، والتي ذكرتها بأجمل أيام رحلة زواجنا ، ثم استكشفنا تباعاً مشاهد الخراب التام . مؤثر جداً أن ترى النوبيين أنفسهم يفككون قراهم بأنفسهم ويعيدون تركيبها من حول أسوان ، هؤلاء السكان الفقراء لا يملكون كلمة يقولونها أمام الأمر الذى فرضه ناصر بالقوة . أكثر من سبعين ألف إنسان أجبروا غالباً بالقوة للعبور من الجانب المصرى على أسفل السد المرتقب . وفى عهد الرئيس السادات ظلت الصحافة مكفمة . فقد كان ممنوعاً على الصحافيين المصريين كما هو الحال مع المراسلين الأجانب فقط ، أن يذكروا الدراما الإنسانية للنوبيين .

وقضينا الليل على الساحل ؛ بالقرب من مركب فى حالة أفضل من مركبنا ؛ مزودة بفريق للخدمة ، ورحلنا مع الفجر لنصل بعد ثلاثة أيام من الإبحار عند قاعدة جبل الشيخ داود قبيل المنازل الأولى مباشرة فى توماس ، وهو الموقع الذى من المفترض أن نعمل به . لا يوجد هنا أى أثر فرعوني ، والمكان لا يثير من النظرة الأولى أى اهتمام خاص ، اللهم إلا بعض الأطلال من الأحجار الجافة التى تتوج مكانا صخريا . ووجدنا أنفسنا أمام جدار رائع تماماً ، منحدر صخري مغطى بال النقوش والمخريشات الصخرية تشير إلى أن النوبة كانت مقاطعة ذات فن صحراوي رائع . وبينما لكلانا وأنا نقضى أيامنا فى العمل بقيت ميمى على المركب لتتعلم طريقة بريل . ونظرت ورأت صندوق السودان يمر مبحراً بين مصر والسودان وهى مركب رائعة أبيضاء اللون من زمن آخر . بعد صدمة القاهرة كانت سعيدة من أعماقها أن تجد فى النوبة نوعاً من الصحراء التى اطلأنا أحببتها وهكذا عشنا لمدة شهر على النيل فى مركب عابرة ولكن كانت السعادة تظللنا . ميمى التى تعشق الغناء ، كانت تقدم لنا مساء السهرة من محفوظاتها الغنائية الشعبية ، وكانت تستقبلنا على العشاء ببهجتها ومرحها مما جعل إقامتنا جميلة ومريحة .

على طريق العودة احتفظ لنا لكلانا بمفاجأة ، فبدلاً من العودة مباشرة إلى أسوان ، أراد أن يرينا آخر شروق للشمس على أبو سمبل الذى كان لا يزال فى مكانه الأصلي ، وإنه لشيء مؤثر جداً أن تفكر فى مصير هذه الآثار المهيبة التى سوف تترك نهائياً الضفاف التى شيدها

الفراغة للخلود عليها . كيف يمكنهم أن يتصوروا مدى الحماقة التي حلت بالإنسان هنا ! على كل حال نحتفظ بذاكرة خالدة لهذه الآثار . بعد الشروق المتألكى على معبد أبى سمبل ، والذى يكفى لنراه أجمل ما فى الدنيا .

فى عام ١٩٦٤ وعندما كانوا يثبتون فى المياه الجزء الأول من السد العالى ، اندلعت فى القاهرة مشاكل سياسية خطيرة مع فرنسا . أعداد من الشخصيات الاستشارية الفرنسية استوقفت وسجنت . وكان علينا لكلاين وأنا العودة إلى توماس لنتابع رفع الجرافيت والنقوش الصخرية ، ولكن كان يجب علينا أن نؤجل حملتنا لمدة عام . وا أسفاه ميمى لن تكون معنا .

نظرة على القرن

حاولت على مدار أكثر من سبعين عاماً أن أعيد بناء حلم الأبدية الذي شاده إيمحوتب ، وفى الخاتمة لست راضياً عن عملى ، وفى كل الأحوال فإننى متأكد أننى لم أخطئ . فى العمارة العناصر غير قابلة للتبادل ، وهذا ما يضمن حقيقة البناء ، كل عنصر فى مكانه ، فعندما يوضع حجران فى مكانهما لا يداخلنا أدنى شك فى صحة إعادة البناء . لسوء الحظ ينقصنا الكثير وسوف ينقصنا دائماً لتظل هناك فجوات لا يمكن معالجتها فى هذا البناء المعمارى الفريد فى العالم . على سبيل المثال لا أعرف فى أى اتجاه كان عتب الممر المركزى فى دهليز الأعمدة ، وكذلك الحال فى الصالة المستعرضة وأعتقد أننى لن أعرفها أبداً ؛ لأن الحجارين كانوا يفككون الآثار ويأخذون أفضل القطع الحجرية والمقطوعة بشكل جيد ، فهم قد حملوا الكثير فيما يبدو ، حتى وإن لم أجد إلا الحسرة من هذا العتب ، فلن يفيد هذا وحده فى كثير .

كانت تأتى الفرصة أحياناً ، وتحدث المعجزة ، أن أجد أجزاء فى أماكنها وخاصة فى فناء سد . أساس مقصورة يرتفع حتى المترين وعشر سنتيمترات ، ومركب به ثلاث قواعد أعمدة من غير هذا الأساس

لم أكن لأعرف كم عموداً هنا في واجهات المقاصير . ومن جهة أخرى فالذى يعطى تقدير الارتفاع في الأثر هو الأعمدة ، فإن لم توجد هذه الأعمدة ربما كان العمل أكثر صعوبة إن لم يكن مستحيلاً . وكذلك كان الحال فيما يخص الجدار المستدير في المعبد ، فلم يتبق منه إلا قطع من بينها الجزء العلوى ، واستخرجت كذلك من الرمال تيجان أعمدة بردية الشكل . من الواضح أنني إن لم أجد هذه العناصر الأساسية ، ربما لم أتمكن من مباشرة أعمال إعادة البناء في مجموعة زوسر الجنائزية . أنا أعترف الآن أنه عمل لا يصدق ، ولكن أى رضا يملأ الإنسان عندما يكون وحده هو الذى كان وراء هذا العمل في مجموعة جنائزية كاملة وفريدة في تاريخ الإنسانية . قبل الحرب كانت الآثار عملاً يقوم به أحد الرواد وكان هذا مصيرى ، ولم يعد هذا ممكناً الآن . فلو أن الحفائر بقيت تحريات بوليسية في طيات الزمن لم نكن لنباشرها إلا في إطار فريق من المتخصصين في كل فرع من فروع المعرفة ، الأمر الذى لم يكن موجوداً في بداية القرن .

ولو افترض أن أقوم بهذا العمل ثانية اليوم فسوف أسلك الطريق نفسه والأسلوب ذاته الذى استخدمته في ذاك العصر ، لأنه عملى . فهل كنت أنجز أسرع وأعمل أفضل باستخدام الكمبيوتر ؟ فهو عمل دقيق للغاية ويتطلب صبراً بلا حدود . ولا أرى كذلك كيف في هذا الموقع خاصة تحل الماكينة محل يد الإنسان ، ربما يوجد جهاز خارق يكون قادراً على إعادة بناء موقع مجموعة زوسر ، ولكن هذا الجهاز لا أعرفه .

ولم أعمل إطلاقاً على الكمبيوتر لأنه فى هذا العصر الذى ظهرت فيه هذه الماكينة كنت قد أصبحت عجوزاً ، ولم يكن متصوراً أن أكون معمرأ لأبدأ فى استخدامه من جديد . وقلت إنه من غير المجدى أن أبدأ فى الغوص فى هذه التقنيات بقلم بسيط . عندما يكون على أن أكتب المقالات التى يلحون فى طلبها ، والتى تأخذ الكثير من وقتى ، أتأسف لعدم وجود كمبيوتر .

أن تضغط على زر فترج لك كل الأعمال المتعلقة بموضوع بحثك هذا شىء عملى جداً ، ولكنى مقتنع أن هذه التقنية الحديثة تمنعنا من الثراء المعرفى الذى تمنحنا إياه المكتبة . فعندما نفتتح الكتب نرى أشياء لم تكن متوقعة والتى تقود لأبحاث أخرى وتطور نتائج أخرى لم تكن تخطر لنا ببال . رجل من قرن آخر ، إننى أشعر بالارتياح مع الهيروغليفى كما هو الحال مع الإقرار الضريبى ، وهو عقاب أواجهه بقلق فى كل مرة أعود فيها لمصر . المشكلة فى مجتمعنا أن الناس يسبرون مع العصر ولكن عليهم أن يكونوا أسرع منه . ولحسن حظى ، فى عام ١٩٢٦ لم يكن مفهوم المربودية سائداً ، فقط تأكدت بعد وجود الطائرات أن الخطاب الذى كان لا يستغرق سوى ثمانية أيام لكى يصلنى فى سقارة أصبح يستغرق أكثر من خمسة عشر يوماً ؟ فعلام هذا السعى للتقنية ، الذى نفقد فى سبيله الكثير ؟ والدراما أننا فى نهاية المطاف نفقد أنفسنا .

قوتى تنبعث من محبتى الكبيرة للمواقع الجنائزية لزوسر ، فأقول هناك تأثير متبادل بين مبدع هذه العمارة وبينى . وعندما يمارحنى

البعض يقول لى إننى إعادة تجسيد لإيمحوتب ! ما أستطيع قوله هو أنه احتجزنى هنا . روح كبيرة كروحه لا تفارق ما أبدعه . وأحس بنوع من المسؤولية تجاهه ، والمدمش أن هذه الآثار التى شيدت على عجل فى عشرين عاماً تقريباً أخذت منى أكثر من سبعين عاماً فى إعادة بنائها ، ربما بحب أكثر وعناية أكبر من تلك التى بذلها إيمحوتب نفسه عند تشييدها . إننى سعيد لإعادة منافذ الإضاءة الأصلية فى الدهليز ، نستطيع رؤية الشمس تنساب على العمارة لتبرز جمال الأعمدة .

أود لو أن إيمحوتب ظهر لى لأناقشه فى بعض النقاط الغامضة ، كنت سأسأله ما الهدف من المقبرة الجنوبية ، والتى وضعنا من حولها فيرث وأنا العديد من الافتراضات ، وليس عندى الوقت ولا الإمكانيات للذهوض بحفائر فى الجانب الغربى من السور الذى يخبئ تحته دهاليز ، وما الهدف منها ؟ وآخر شئ أتأسف لعدم القيام به هو عدم نزولى فى البئر الواقع مباشرة بعد مدخل دهليز الأعمدة ، فربما احتوى مقبرة إيمحوتب .

قالت كاترين برجير ذات يوم ، ذاكرة هذه الجبانة الضخمة : وهذا ليس خطأ تماماً ، فعندما نقضى هنا قرابة القرن من الزمان ربما نزعِم معرفة بالأماكن . فى سقارة أحس أننى فى حياة وإن لم يكن كل شئ متيسراً ، يجذبنى هذا السلام ، سلام الصحراء ، يبعث الصمت هنا فى الإنسان سكوتاً داخلياً يقترب من الأبدية . تظل مصر رغم ما تعانيه بلداً رائعاً ، وكان لى الحظ أن أعرفها عندما كانت مسحة من الشاعرية

تكسو كل شيء فيها ، الأمر الذي توقف مع مجيء عبد الناصر ، حتى بعض التفاصيل التي تعطي الشارع سحره : نرى يوماً ابتداء من أبريل ارتداء الناس للثياب البيضاء وحتى الخريف ، لكن اختفى الطربوش . وأنا - من المفترض بالنسبة لعبد الناصر - موظف فرنسي نظراً لنظرية الرجعية. استطعت هكذا أن أفيد من تقاعد يبدو لي مفيداً اليوم ، ربما لأعود لسقارة . عندما بلغت الثانية والسبعين أبحلتني مركز الأبحاث القومي الفرنسي CNRS هو الآخر للتقاعد ، وجعلوني مديراً شرفياً . ومنذ ذلك الحين لم أستطع الحصول على أى إمداد مالى من أجل أعمالي . أعود من ثم على حسابي ولكنى أعتبر أن هذا واجب بعد مرور هذه السنين فى إعادة بناء هذه المجموعة ، أن أتركها فى أفضل حال ممكن ، وأشرف على ما تبقى . بفضل بعثتين فرنسيتين ، بعثة لابروس وبعثة زيفى اللتين تآتيان بالتتابع لتقوموا بالحفائر أثناء الشتاء ، أستطيع أن أستقر فى بيتى وأنا مع أعمالى فى سلام . من الواضح أننى معتمد على الآخرين فى معيشتى هنا ، منذ خمسة عشر عاماً سحبوا منى سيارتى ، وأتى للموقع منذ عام على قدمى ولم يعد هذا ممكناً اليوم . وانتهى المطاف بأن استعاديونى ، حيث يأتى السياح فى عائلات يزوروننى بعد الأهرام مباشرة .

أحس باضطراب كبير عندما أرى الناس اليوم ، من الواضح أن القرن العشرين كان قرن تطور كبير ، انقلبت الإنسانية كذلك بتطور العلم . لقد ولدت وسط عربات تجرها الخيول ورأيت الإنسان يمشى على

القمر ! استحواذ هذه الفكرة العلمية على الإنسان أفرغه من الدين والروحانية . يا له من اختلاف مع الحضارة المصرية القديمة التى ترجع فى تفاصيلها كلها إلى الدين ، وحتى أدق التفاصيل فى الفن تستقر على قاعدة الخلود الدينية ! هناك هوة بينهم وبيننا ؛ وربما من أجل هذا لا تزال مصر فاتنة ، الاعتقاد المذهل فى عالم ما بعد الموت كان مسيطراً على الحياة والموت . ماذا لدينا الآن من حلمنا بالأبدية ؟ فى النصوص المصرية نقرأ هذه الجملة الخالدة التى تشير إلى رغبتهم القوية فى الخلود : " لا ، ليس الموت الذى تذهب إليه ، ولكنها الحياة " ولأننى مسيحي من كل قلبى وأعتقد فى الحياة بعد الموت ، فى أبدية بشكل مختلف ، ولكن بالشكل الذى أراده الخالق ، إيمانى لا يمنعنى من الخوف من الموت ، هذا الأجل بالنسبة لى بارز ؛ مما يقودنى للصلاة كثيراً . فكرة مغادرة هذا العالم وإغلاق الباب نهائياً ليس من اليسير تقبلها ، حتى وإن بلغنا من العمر مائة عام ، تبقى الحياة ممراً قصيراً جداً ...

كتب ومقالات أخرى للمؤلف

La Pyramide a degrés, L'architecture (Fouilles a Saqqarah, SAE), t. I et II, in 40, Le Caire, 1936.

La pyramide a degrés, Complements, T. III, Le Caire, 1939.

La Pyramide a degrés, Inscriptions gravees sur Les vases, en collaboration avec P. Lacau, t. IV, 1er fasc. 1959; 2e fasc. 1961.

La Pyramide a degrés, Inscriptions a l'encre sur Les vases, en collaboration avec P. Lacau, T. V, 1965.

Etudes Complementaires sur les monuments du roi Zoser a Saqqarah
Reponse a Herbert Ricke, in Suppl. aux ASAE, cahier no 9, 1946.

Saqqarah. Les Monuments de Zoser (texts francais et anglais), en collaboration avec E. Drioton, Le Caire, 1939 et 1951.

Le Probleme des Pyramides d'Egypte, coll. Bibliothequehistorique, Payot, Paris 1948 et 1952.

Idem, edition japonaise, Universite de Hosei, Tokyo, 1966.

Observations sur les pyramides. Bibliotheque d'Etude de IFAO (Bde), t. xxx, 1960.

Les Statues ptolemaïques du Serapieion de Memphis, en collaboration
Avec Ch. Picard, in 40, Publications de l'Inst. D'Archeologie de l'Université de Paris, t. III, PUF, 1955.

Histoire monumentale des pyramides d'Egypte, t I : Les pyramides a degrees, dans BdE, t. xxxix, 1960.

Les pyramides de sokkara (textes francais et anglais), IFAO, 1961, 1972, 1977; nouvelle edition augmentee en 1991.

Architektur des Alten Reiches, en collaboration avec H. Altenmüller, in Propylaen Kunstgeschichte, Bd. 15 : Das alte Agyptens, par Claude Vandersleyen, Berlin, 1975.

Le Mystere des pyramides, Presse de la Cite, Paris, 1974, 1976, 1978.

Idem, nouvelle edition revue et augmentee en 1988.

Das Geheimnis der Pyramiden, Arthur Moevig, Rastatt, 1988.

Saqqara, The Royal Cemetery of Memphis. Excavations and Discoveries Since 1850, Thames and Hudson, Londres, 1976, Edition Francaise : Tal-landier, Paris, 1977. Edition allemande, G. Lubbe, Berlin, 1977.

Le Temple haut du complexe funeraire du roi Teti, Mission archeologique Francaise de saqqarah, I, en collaboration avec J. Leclant, Bde, t. Li, Le Caie, 1972.

Le Temple haut du complexe funeraire du roi ounas, Mission archeologique Francaise de Soqqarah, II, en Collaboration avec J. Leclant et Francaise de Saqqarah, II, en Collaboration Avec J. Leclant et A. Labrousse, BdE, t. Lxxiii, Le Caire, 1977.

Dans Le Temps des pyramides (collection L'Univers des Fromes, Galli-mad, 1978, chapitres (avec plans et commentaires) sur l'archi-lecture de l'epoque thinite, de l'Ancien et du Moyen Empire.

ملحق بالصور



لوير ولابروس فى موقع هرم الملك بيبى عام ٢٠٠٠



لویر بموقع بی فی مارس عام ۲۰۰۰ یستریح اثناء زیارتہ



لوير خارجاً من قصر المنيرة الذي أصبح "المعهد الفرنسي للآثار الشرقية"



لوير في مكتبة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية



لوير أمام أحد التماثيل اليونانية التي اكتشفها مارييت عام ١٨٥١



لویر أمام مدخل سور زوسر الذي رممه بنفسه



الهرم المدرج عام ١٩٢٤ قبل حفائر فيرث



انحسار الفيضان أمام الأهرام الثلاثة بالجيزة عام ١٩٢٦



لوير عام ١٩٣١ أمام صالة الأعمدة التي كان يجري ترميمها



ميمى وجون فيليب لوير فى سقارة عام ١٩٢٩



لویر وجوستاف جیکیه عام ۱۹۲۶



دهليز الأعمدة عام ١٩٢٦ قبل ترميمها على يد مارييت



إجازة يوم الأحد فى سقارة :
ميمى لوير (واقفة) بجانب والدها بيير جوجيه (حيث تضع يدها على كتفه)



محمد علي حمارة عائداً من سوق البدرشين



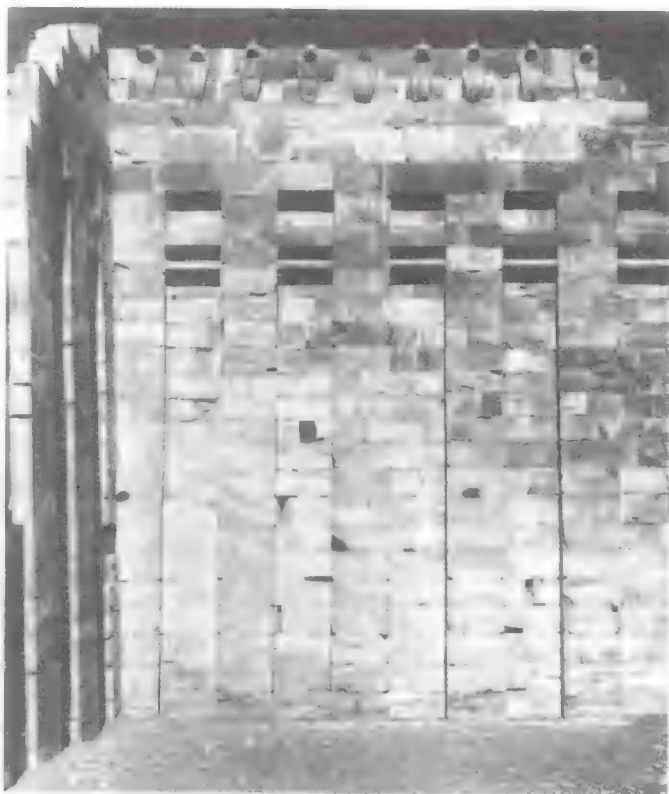
زواج لوير في كنيسة سان سولبيس في بارس ، الأول من أكتوبر ١٩٢٩



ميمى أمام منزل لويير بسقارة عام ١٩٢٩



١٩٣٢ : أواني الفخار التي عثر عليها في أسفل الهرم المدرج



جدار مقصورة مزدانة بحيات الكوبرا ، رممها لويز حجراً بحجراً



١٩٣٦ : لویر وإمری (بالنظارة) وبيير كو بلحيته البيضاء ، وكان مدير مصلحة الآثار



١٩٣٧ : مدام لوير مع ابنتها فلورنس فى سقارة



١٩٣٧ : الأب دريوتون (جالساً)



جزء من مجموعة زوسر الجنائزية



تمثال رمسيس الثانى الذى عثر عليه فى منف ،
والذى [كان] يقف فى ميدان رمسيس ،
[نُقل إلى موقع المتحف الكبير قرب الأهرام حالياً] المتحف الكبير حالياً



بجوار هرم ببى الثانى بسقارة مع أودران لابروس
وكاترين برجير وفازيل دوبروف عام ١٩٨٩



لوير مع لوكلان فى سقارة



لوير يصعد سالام منزله بسقارة



لویر مع أحد رؤساء عماله



لویر مرشدًا سیاحیا



لویر یشرح آثار سقارة للرئيس جاك شيراك



لوير داخل المقبرة الجنوبية



لوير أمام أساسات متحفه عام ١٩٩٥ والذي أمر بهدمه وزير الثقافة



لوير يسير أمام السور من ناحية الجنوب



لوير داخل دهليز المدخل الذي رممه

المؤلف فى سطور

جون فيليب لوير

جون فيليب لوير، ولد فى باريس فى مايو عام ١٩٠٢، حصل على شهادته فى الهندسة المعمارية، وسافر إلى مصر للعمل لدى مصلحة الآثار المصرية لمدة ستة أشهر، تجددت سنوياً؛ ليبقى طيلة عمره. استبعده رجال الثورة بعد عام ١٩٥٢، ليعود من جديد إلى مصر فى الستينيات. رُمِّمَ مجموعة زوسر، ومكث فى سقارة فى بيته الصغير مع زوجته وأولاده حوالى ثلاثة أرباع القرن، ساهم فى العديد من المكتشفات الأثرية بسقارة، وكان آخر موظف أجنبى يتقاضى راتباً من مصلحة الآثار. كرمته مصر وكذلك فرنسا التى عينته مديراً شرفياً بمركز الأبحاث القومى العلمى (CNRS) .

المترجم فى سطور

حسن نصر الدين حسن

حصل على الليسانس ثم الماجستير فى الآثار المصرية من كلية الآثار بجامعة القاهرة ، ثم حصل على درجة الدكتوراه من جامعة ليل - شارل ديغول بفرنسا .

ومن أهم أنشطته العلمية : التدريس بكلية الآثار جامعة القاهرة، وأقسام الآثار والإرشاد السياحى بالجامعات والمعاهد المصرية، والمشاركة فى المؤتمرات العلمية فى الداخل والخارج. وكذلك المشاركة فى الحفائر الأثرية فى مصر فى سيناء وسقارة ، وكذلك فى فرنسا مع الجانب الفرنسى فى شمال فرنسا .

ومن أعماله المترجمة : آلهة مصر القديمة (عن الفرنسية) - ضمن المشروع القومى للترجمة .

ومن أهم مؤلفاته : الآثار المصرية فى العصر المتأخر - من منشورات المجلس الأعلى للثقافة .

التصحيح اللغوى : شوكت المصرى
الإشراف الفنى : حسن كامل

